

الدلالة البلاغية وأثرها الجمالي في بناء السياق القرآني

أ.د: السيد محمد السيد سلام

أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية فرع
جامعة الأزهر بالمنوفية

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

المقدمة

الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، والصلاة والسلام على من أوتى الكتاب ومثله معه؛ فشق ظلام الجهالة بالهدى ونور العلم، وعلى آله، وكل من سار على هديه إلى يوم يبعثون.
وبعد:

فقد وصف ربنا سبحانه القرآن الكريم بأنه: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَمَ آيَاتِهِ، ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

خَيْرٍ ﴿١﴾ هود ١، وهذا بحث يدرس فيه- على قدر الجهد البشري- **الدلالة البلاغية**

وأثرها الجمالي في بناء السياق القرآني، وإذا كان الكلام هو الذي يعطي لكل علم

منزلته، ويبين سرائره، ويستخرج مكنونه، ويبرز دلالاته، التي لا يكون لها جمال إلا

بتآلفها مع سياقه، فإنه لا يمكن معرفة ما يدل عليه الكلام إلا بفقّه بناء لغته، وإعمال

الفكر في نظمه، والإحاطة بأنماطه، وبحث أجزائه التي يشتد ارتباط ثان منها بأول؛

ليكون للسياق منها جمال يتأزر مع خفي دلالاته، وظاهرها، فيكون الحكم بذلك لجمال

السياق القرآني على اختلاف منابعه، وتنوع مشاربه، وتعدد منازعه، وبيان الله هو النمط

العالي، الذي لا مثل له؛ لأنه من الحكيم، الذي: **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ**

الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ الشورى ١١، ومن ثم **بُنيت هذه الدراسة على بحث فقه الدلالة، ومعرفة**

جمالها بين السياق الذي أضاءت فيه، فكان هذا العمل قائما بعد هذه التقدمة، على:

تمهيد يحزر مصطلحات عنوانه، ثم بحث جمال الدلالة، والسياق في النص القرآني

بدءا من الحرف، معنى، ومبنى، ذكرا، وحذفا، في سياق واحد، وسياقات متقاربة في

نص واحد، أو متباعدة في مقامات مختلفة، ونصوص متنوعة، ثم بحث دلالة الكلمة

في حد ذاتها، وفي جملتها، خبرا، وإنشاء، من خلال الأنواع العشرة التي بنيت عليها

فواتح سور القرآن الكريم؛ تحديدا لمسار البحث، وقد استهلّت هذه الأنواع العشرة التي

قامت عليها هذه الدراسة في بحث دلالة الكلمة في الجملة والجمل، بالثناء، وغيره من

أساليب الخبر، اسما، وفعلا، وأساليب الإنشاء بنوعها؛ الطلبي، وغير الطلبي، وقد

جمع بعض العلماء أنواع فواتح السور التي قامت عليها هذه الدراسة في بحث دلالة

الكلمة، والجملة، والجمل، في بيتين، يحسن أن أزين بهما هذه التقدمة:

أتى على نفسه سبحانه بثبوت... الحمد والسلب لما استفتح السورا

والأمر شرط النداء والتعليل والقسم الدعا... حروف التهجي استفهم الخبرا^(١) ومن ثم تكونت هذه الدراسة من ستة فصول، تجمع بين دفتيها خمسة عشر مبحثاً، جاء عدد المباحث في كل فصل متناسقا مع مادته العلمية باعتبار موضوعه، فقد تكثر المباحث في فصل، وتقل في آخر بناء على الاعتبار الذي تفرضه طبيعة المادة العلمية في كل فصل.

وقامت هذه الدراسة على التحليل، والتعليل، والمناقشة، والمحاورة، والترجيح، وإبداء الرأي، فيما يحتاج إلى ذلك، والدراسة التطبيقية غالباً عليها، دون إغفال الجانب النظري الذي يهيئ للتطبيق، وينير دروبه، ويحدد مسالكه؛ ليكون التطبيق من خلال الشواهد موائماً للحقائق، مفصلاً عنها، وخلال الدراسة تجلى أمر مهم جداً، هو: أن ما يفصله السياق يكون مجملاً في نص الشاهد، ومن ثم تكون الدلالة مجملة من جانب، ومفصلة من آخر؛ فيحسُن وقعها، ويجمُل أثرها، ويتطابق مبنائها مع معناها، ويكون الثاني بسبب من الأول، والأول دليل على الثاني؛ لأن المعاني كامنة في النفوس، حتى تستخرج الألفاظ دلالتها، وتجلي الدراسات جمالها، وكمالها، على قدر ما يفتح الله كما قال سبحانه: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فاطر ٢، ثم ختم هذا العمل بخاتمة موجزة، وفهرس يبين محتوى البحث إجمالاً، وثبت لمصادره ومراجعته.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه: السيد محمد السيد سلام.

جامعة الأزهر-كلية اللغة العربية بالمنوفية.

التمهيد:

مصطلحات الموضوع

١- **الدلالة**: قبل أن أقف مع معانيها في اللغة وفي اصطلاح العربية، أنهو إلى أن الذي يكشف معناها، ويوضح جمالها هو السياق، الذي يصور موقفًا معينًا، أو مقامًا محددًا، فالدلالة هنا تكشف غرضه، وتساعد في استنتاج الغرض، فهي علامة على جمال المبنى الدال على جمال المعنى، وهي في اللغة كما قال ابن فارس: الدال واللام أصلان، أحدهما: إبانة الشيء بأمانة تتعلمها، والآخر اضطراب في الشيء.

فالأول: قولهم: دلت فلانًا على الطريق، والدليل: الأمانة على الشيء، وهو بين الدلالة والدلالة. (بفتح الدال وكسرها).

والأصل الآخر قولهم: تدلّ الشيء: إذا اضطرب، قال أوس بن حجر:
 أمّ مَنْ لِحِيٍّ أضعوا بعض أمرهم ★★ بين القسوط وبين الدين دلّال
 والقسوط: الجور، والدين: الطاعة (١).

فالمادة من وجهة نظر ابن فارس بفتح الدال وكسرها تفيد معنى العلامة، وتؤدي معنى الاضطراب، والأول أجلى من الثاني وأبين؛ لأنه يكون علامة أو أمانة على شيء آخر، أما الثاني (الاضطراب) ففيه معنى الحركة، وهذا مهم أيضًا في جمال التعبير؛ لأن الاضطراب فيه حركة قوية تلفت النظر، وتؤدي إلى التتبع في سبل البيان.

ومن ثم قال الأصفهاني: الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز، والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة، أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان

(١) مقاييس اللغة، (دل).

فيعلم أنه حيّ، قال -تعالى-: ﴿مَادَهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤]، وأصل الدلالة: مصدر كالكتابة، والأمانة، والدال من حَصَلَ منه ذلك، والدليل في المبالغة كعالم وعلیم .. (١).

وهذا يؤيد ما ذكره ابن فارس في المعنيين: العلامة والاضطراب، فكل منهما يدل على معنى، وحركة، وهذا ما دعا علماء المنطق إلى أن يقولوا في التعريف الاصطلاحي للدلالة:

كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص.

ووجه ضبطه: أن الحكم المستفاد من النظم إما أن يكون ثابتاً بنفس النظم، أو لا، والأول إن كان النظم مسوقاً له فهو العبارة، وإلا فالإشارة، والثاني إن كان الحكم مفهوماً من اللفظ لغة فهو الدلالة، أو شرعاً فهو الاقتضاء، فدلالة النص عبارة عما ثبت بمعنى النص ... (٢)، وهذا ما ستوضحه هذه الدراسة من خلال الشواهد إن شاء الله.

والدلالة لها أقسام اهتم بها البلاغيون المتأخرون في تعريف علم البيان؛ لأنها جزء منه، حيث قالوا: "هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه" (٣).

معنى هذا أن الدلالة لها وقع كبير في وضوح المعنى المطلوب، فالصورة البيانية تتجلى بأكثر من طريق، والدلالة هي التي تحدها وتبرز مرادها.

ولذا يقول بعض العلماء عنها إنها: "صفة للفظ قائمة به، متعلقة بمعناه، كالأبوة القائمة بالأب، والمتعلقة بالابن، فإذا فسرت بالانتقال من اللفظ إلى المعنى، أو بأحد

(١) المفردات، للراغب الأصفهاني، (دل).

(٢) التعريفات، للسيد الشريف الجرجاني، ١٣٩.

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني، ٢٠١/١.

الفهمين، لم يلتبس أن الانتقال وفهم السامع، ومفهومية المعنى ليست صفات قائمة باللفظ، لكنها منبئة عنه إنباء ظاهرًا على حالة قائمة هي كون اللفظ بحيث يترتب عليه ما ذكر، وتلك الحثية هي الدلالة^(١).

وعليه، فالدال أسبق إدراكًا وتصورًا من المدلول، والمدلول تابع في إدراكه للدال، ومترتب عليه.

وتنقسم الدلالة بناء على ذلك إلى: لفظية، وعقلية، واللفظية هي: دلالة اللفظ على تمام ما وضع له، وقد تكون مطابقة، كدلالة البيت على مجموع الجدار والسقف، وهي دلالة اللفظ على ما وضع كدلالة البيت على مجموع الجدار والسقف، وهي دلالة اللفظ على ما وضع له، ومتى كان لمفهومها ذلك تعلق بمفهوم آخر أمكن أن تدل عليه، سميت دلالة التضمن؛ أي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له مع دخوله فيه، كدلالة البيت على الجدار أو السقف.

أما الدلالة العقلية فهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له، كدلالة السقف على الجدار؛ لأنه لازم له، وبذلك تكون دلالة المطابقة عند علماء البلاغة وضعية، ودلالة التضمن والالتزام دلالة عقلية.

والدلالة العقلية هي مناط اهتمام البلاغيين، وهي التي يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، وهي التي سبق بيانها في كلام الإمام عبد القاهر بعبارة: المعنى، ومعنى المعنى، وهو يتحدث عن ضربي الكلام في قوله: (و"الكلام على ضربين: ضربت أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ... وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ... ثم يلخص المسألة فيقول: وإذ قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: "المعنى"، و"معنى المعنى" تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي

(١) حاشية الحفناوي على إيساغوجي، ص ١٢.

تصل إليه بغير واسطة، وبـ"معنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر... (١).

وفسر ذلك الخطيب القزويني بأن شرط الدلالة العقلية، أو دلالة الالتزام أن يكون حصول ما وضع اللفظ له في الذهن ملزومًا لحصول الخارج فيه... (٢).

فهي الدليل على المعنى المراد، ويقدر وضوحها يكون وضوح المعنى، وهذا قول الجاحظ: وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي مدحه ربنا تبارك وتعالى... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات (٣).

ومن هذا يتجلى سر التسمية (الدلالة) أي الأمانة الدالة على الشيء، ظاهرًا، أو خفيًا، فالظاهر يزداد ظهوره، والخفي تتجلى بلاغته، وكلما كان الشيء أغمض كانت بلاغته أعلى وأمكن لدى النفوس، وأملك للباب القلوب، ولا ريب أن الإشارة تحل محل اللفظ، وهي في سياقها أبلغ، وقد تكون باليد أو بالعين أو بالرأس... وهكذا فهي نوع من أنواع البيان، وقد تجتمع مع اللفظ لتوضيح الصورة، وبيان المعنى... فقد يتحدث الإنسان ويشير في ذات الوقت كما قال -صلى الله عليه وسلم-: "أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بأصبعه السبابة والوسطى".

وقد يكتفى بالإشارة لغرض معين، كما قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي: (٤)

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ★★ إشارة مذعور ولم تتكلم

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق: شاکر، ص ٢٦٢-٢٦٣ باختصار.

(٢) ينظر: الإيضاح، ص ٢٠١.

(٣) البيان والتبيين، ص ٥٥، بقدر من الاختصار.

(٤) ينظر الحماسة البصرية ١٤١/٢ تحقيق مختار الدين أحمد - عالم الكتب - بيروت

فأيقنت أن الطرف قال مرحبا ★★ وأهلا وسهلا بالحبیب المتیم
وقال آخر: (١)

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ★★ من المحبة أو بغض إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتة ★★ حتى ترى من ضمير القلب إنسانا
وقد شهر في البلاغة أن لكل كلمة مع صاحبها مقامًا، وأن لكل مقام مقالا،
وهذا المقال قد يكون باللفظ، وبغير اللفظ -كما رأينا- والدلالات تتفاوت بتفاوت
الأحوال والمقامات.

٢- الأثر الجمالي: معلوم أنه يقصد بها في هذا الموضوع: ما تضيفه الدلالة
من براعة وبلاغة كامنة في السياق القرآني.

ولا تعرف هذه، ولا تلك إلا بتحليل سياقه، والوقوف على الغرض الذي يرمي
إليه هذا السياق، وأثر دلالة التعبير فيه، مفردًا كان أو تركيبًا، أو مجموع جمل تدل
على ترابطه، ومن ثم تتجلى قوة الدلالة المنبثقة من ترابط السياق في الوصول إلى
جمال التعبير.

ولذلك قال ابن فارس (جمل) الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما: تجمّع،
وعِظَمَ جملة الشيء، وأجملته: حصلته، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ويجوز أن يكون الجمل من هذا؛ لعِظَمَ
خلقه.... والأصل الآخر: الجمال، وهو ضد القبح، ورجل جميل وجَمَّال، قال ابن
قتيبة: أصله من الجميل، وهو: وَدَكَ الشَّحْمُ المُذَابِ، يراد أن ماء السَّمْنِ يجري في
وجهه.... (٢).

من وجهة نظري أن هذا كله مطلوب هنا في هذا الموضوع، ومن ثم نقلته كله،
فالتَّجمَعُ وعِظَمُ الخلق يدل على القوة المَجْمَلَة؛ لأن قوة الشيء تكون في إجماله،
أقوى منها في تفصيله؛ ولذلك استدل ابن فارس بالآية الكريمة المذكورة، كما استدل

(١) غير منسوبة في كتب التراث مثل البيان والتبيين ١/٤٦، ٨٦

(٢) معجم مقاييس اللغة، (جمل).

بذكر اسم (الجمال) وأنه يجوز أن يكون اسمه (الجمال) من باب التناسب بين الاسم والمسمى والقوة، فجمال الدلالة يتجلى بداية من صورتها مجملة قبل تفصيلها، وجمال السياق يتجلى في تجمع معناه الذي كان اللفظ دليلاً عليه، وهذا في القرآن أعظم قدرًا، وأعلى شأنًا؛ لأنه معجز، ومحكم، ومفصل، كما قال ربنا - سبحانه -: ﴿ كَتَبَ أَحْكَمَتَّ ءَايَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ [هود: ١].

بناءً عليه، فالأصل الأول للمادة مراد من جهة قوة النص القرآني، وقوة سياقه، وقوة دلالة كل تعبير فيه على وجه الإجمال.

أما الأصل الآخر الذي هو بمعنى الجمال، ضد القبح، فجلي هنا أيضًا من وجهين، أحدهما: حسن ترابط السياق، وجمال تأزره، بتعبير يخلو من أي خلل لغوي، أو بلاغي، والآخر: نضارة المعنى وقوته، ولذلك قال ابن فارس: "يراد أن ماء السَّمْنِ يجري في وجهه"، وهذا يدل على النضارة، والبهاء مع القوة" (١).

والجمال: حُسن شامل في خَلْقٍ وَخُلُقٍ كما قال البطليوسي (٢)، وفيه معنى البهاء والحسن، ويقع على الصور والمعاني (٣).

ومن ثم كانت كلمة (جمال) واقعة على أصل الدلالة، وعلى معناها، وعلى إجمال معنى السياق، وعلى ترتيب ألفاظه، وبناء عباراته، ومقالات معانيه، أو مستتبعات تراكيبه، وهذا ما جمعه عبد القاهر في حديثه عن النظم وتعريفه له بأنه: توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي بها يؤم. (٤)

٣- السياق: المعنى اللغوي له: جمع ابن فارس معالم المادة في عبارة واحدة

تكاد تكون إجمالاً لما ذكره علماء اللغة بعده، فقال: السنين والواو والقاف

(١) مقاييس اللغة (جمال).

(٢) ينظر: المثلث، (الجمال)، ٤١٩، تحقيق ودراسة: صلاح مهدي علي الفطوس، دار الرشيد بالعراق، ١٩٨١م.

(٣) ينظر: لسان العرب، (جمال).

(٤) دلائل الإعجاز ٨٠ تحقيق: أبو فهر، محمود محمد شاكر،

أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقًا، والسِّيقة: ما استيق من الدواب...^(١).

وهذا يدل على الترابط والتسلسل في نظام وتتابع، وقال الراغب: سوق الإبل جلبها وطردها، يقال: سقته فانساق، والسِّيقة: ما يساق من الجواب، وسقت المهر إلى المرأة، وذلك أن مهورهم كانت الإبل^(٢).

وهو يجري في نفس الإطار السابق، وجلاه الزمخشري بصورة أوسع فقال: "ومن المجاز: وساوقت الإبل تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و"إليك سياق الحديث"، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث عن سَوْقه أي سَرده"^(٣).

والسرد بمعنى التتابع والتوالي على نظام مترابط، والتتابع والترابط أصل المادة، وقد أيده ابن منظور فقال: "ساق الإبل وغيرها... وقد انسقت وتساوقت الإبل إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة، وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعزًا ما تساق، أي ما تتابع، والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضًا..."^(٤).

ولا ريب أن هذه المعاني اللغوية كلها تهدف إلى التتابع والترابط الذي تُسمى مكوناته لبيان غرض معين، أو موقف محدد، تسمى في مجموعها نصًا لغويًا، والنص اللغوي الذي اتسق بناؤه وترابطت أواصره، وانتظمت حركة المعنى فيه، هو أساس الدرس البلاغي.

ومن ثم يتجلى المفهوم الاصطلاحي للسياق، منبجًا من روابط الكلام وعلائقه وقرائنه، والحال التي ورد فيها، والغرض الذي يقصده بيانه...

(١) مقاييس اللغة، (سوق).

(٢) المفردات في غريب القرآن، (ساق).

(٣) أساس البلاغة، (سوق).

(٤) لسان العرب، (سوق).

يقول ابن البناء المراكشي في مفهوم السياق: "هو ربط القول بالعرض المقصود من غير تصريح به"^(١)، ولا يكون ذلك إلا في سياق متساوق متتابع، تشد كلماته أزر بعضها؛ لأنها تحكي عرضاً معيناً، وتطابق حالاً مرادة، وهذا هو لب البلاغة في خبر الكلام وإنشائه، والسياق ههنا قد يكون سياقاً جزئياً يقف عند حدود العرض في آية أو آيات، وبه تكون علائق الكلام الذي به تتجلى معانيه ببناء ألفاظه وترابطها، ولذلك يقول الإمام عبد القاهر: "فإن قيل: النظم موجود في الألفاظ على كل حال، ولا سبيل أن يعقل الترتيب الذي تزعمه في المعاني، ما لم تنتظم الألفاظ ولم ترتبها على الوجه الخاص، قيل: إن هذا هو الذي يعيد هذه الشبهة جذعة أبداً، والذي يحلها: أن تتظر: أتتصور ان تكون مُعتبراً مفكراً في حال اللفظ مع اللفظ، حتى تضعه بجانبه أو قبله..."^(٢).

ووضع الشافعي باباً عنوانه: باب الصنف الذي يبين سياق معناه...^(٣).

وهذا في كل الكلام، فالسياق هو لب المعنى وأساسه، وهذا ما تجليه الدراسة بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

واستشهد الشافعي بقوله -تعالى-: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً أَلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فابتدأ - جل ثناؤه- ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ ... الآية دلّ على أنه إنما أراد أهل القرية؛ لأن القرية لا تكون عادية، ولا فاسقة بالعدوان في السبت، ولا غيره، وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون^(٤)، فبعض السياق دلّ على معناه، ويعني هذا أن ترابط السياق دلّ على معناه ... وكما كان هذا في السياق الجزئي فإنه أيضاً يكون في

(١) الروض المربع في صناعة البديع، ص ١٢٣.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥١، ٥٢.

(٣) الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، ٦٢.

(٤) السابق، ٦٢.

السياق الكلي، ولا ريب أن السياق الكلي يتكون من سياقات جزئية، وجمال الدلالة وعلائق السياق سيتجلى في الدراسة التطبيقية إن شاء الله تعالى.

ولما كان هذا البحث يُعنى ببيان الدلالة البلاغية وأثرها في بناء السياق القرآني فإن ذلك يستدعي أن أتحدث عن دلالة الحرف ذكراً وحذفاً، من خلال السياق، وأبين: جمال هذه الدلالة التي كان الحرف له أثر في سياقها، ثم أنتقل إلى دلالة اللفظ في بناء السياق، ثم دلالة التركيب، بما فيه من: دلالة الجملة والجمل في السياق، وخصائص التعبير تتجلى بين ذلك، وتتعاون في بيان جمال الدلالة.

والبداية بدراسة الحرف المذكور تستدعي النظر في حروف الهجاء التي جاءت استهلالاً لثمان وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، نحو: الم، المص، المر، إلخ.

الفصل الأول

الحروف المقطعة ودلالاتها الجمالية في السياق القرآني

المبحث الأول

مكانة هذه الحروف في البيان القرآني

لا ريب أن التعبير بهذه الحروف وراءه سر أقوى من أن يتحدث فيه القوم، بدليل أنهم لم ينبسوا فيه ببنت شفة، مع أنهم قالوا عن القرآن: سحر، وشعر، وغير ذلك، ولكنهم عند هذه الأحرف لم يسمع لأحد منهم ركزا، فقد خرس ألسنتهم مع شدة حرصهم على معارضته، وهذا أول مفتاح للمعارضة؛ لأن هذه حروف من جنس ما بني عليه الكلام، وتنطق هذه الحروف باسمها لا بمسماها، وتنطق مقطعة، وكل هذا مما يلفت النظر، ويستدعي التفكير، ف (ألم) تقرأ حرفاً حرفاً، بخلاف قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح ١] فالنطق هنا يكون بمسمى الحرف، ولكل منهما معنى وجمال ودلالة في سياقه ... وهذه الحروف دون سواها مبنية على الوقف، يعني لا تصلح قراءتها إلا بالوقوف عليها، بخلاف قراءة القرآن غيرها، فالوصل قائم فيه، فأخر كل كلمة مضبوط بالشكل على موقعها مما بعدها، وموقف ما بعدها منها ... وهكذا.

ولكن هذه الحروف لا تصلح إلا بالوقف عليها، وهذا الوقف يهز أوتار الصوت، فيعطي نبرة تشغل السمع بالبحث عن دلالتها ... وهذا ما أبحثه، ولكن يجب بداية ذكر أقسام هذه الحروف بالنسبة لأوصاف الحروف، وأصنافها.

يقول الزمخشري: "واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله -عز سلطانه- في الفواتح من هذه الأسماء، وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك: أن فيها من المهموسة نصفها (الصاد والكاف والهاء والسين والحاء)، ومن المجهورة نصفها (الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون)، ومن الشديدة نصفها (الألف والكاف والطاء والقاف)، ومن الرخوة نصفها (اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون) ومن المطبقة نصفها (الصاد والطاء) ومن المنفتحة نصفها (الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون)، ومن المستعلية نصفها (القاف والصاد والطاء)، ومن المنخفضة نصفها (الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون)، ومن حروف القلقة نصفها (القاف والطاء).

ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته^(١).

استدعى المقام أن أنقل النص كله؛ ليكون مرآة للناظرين ومفتاحاً للباحثين عن تصنيف هذه الحروف، والراغبين في معرفة الحكمة منها، وأنها من كل صنف نصفه، وتلك عدالة تدع الحليم -إن وجد- من المعارضين حيراناً؛ لأنها جاءت من تراكيب كلامهم، ومن أصناف بيانهم الذي برعوا فيه، وصاروا بسببه أهل لسان وحجة وبيان، ومن ثم نزل القرآن بلسانهم؛ لقوته، ومع ذلك تحداهم أن يأتوا بشيء من مثله، ولو كان على سبيل الافتراء كما قال -تعالى-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ

(١) الكشف، ١/١٠٠: ١٠٣.

مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنَّكُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ
بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [هود: ١٣، ١٤].

فقد ألزمهم -بذلك- الحجة، ولكن دحضت حجبتهم بقدر ما قويت حجة المبعوث إليهم، وإلى الناس كافة.

وثمة تصنيف آخر لهذه الحروف ذكره الزركشي، يبين عدد ذكر كل حرف منها، والنظم الذي يجمعها، والنص النثري كذلك.

يقول الزركشي: "واعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السور ثمانية وسبعون حرفاً، فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد، والعين والياء والهاء والقاف كل في مكانين، والصاد في ثلاثة، والطاء في أربعة، والسين في خمسة، والراء في ستة، والحاء في سبعة، والألف واللام في ثلاثة عشر، والميم في سبعة عشر، وقد جمع بعضهم ذلك في بيتين وهما:

كن واحد عيهق اثنان ثلاثة صا ★★ د والطاء أربعة والسين خمس علا
والراء ست وسبع الحاء آل ودج ★★ وميمها سبع عشر تم واكتملا

هي في القرآن في تسعة وعشرين سورة، وجملتها من غير تكرار أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر" (١).

وإذا أردنا أن ندرس نماذج منها، فننظر في أول سورة البقرة: ﴿الَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأول آل عمران: ﴿الَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ وأول الأعراف: ﴿الْمَصَّ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأول يونس: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وأول هود: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، وأول يوسف: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، وأول الرعد: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ...﴾، وأول إبراهيم: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ الْآيَةَ، وَأُولَ الْحَجَرِ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

(١) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ج ١/١٦٧.

نجد إلى هذا الحد أنها في النصف الأول من القرآن الكريم كلها تتحدث عن الكتاب لنفي الريب، أو لإنزاله بالحق أو لطمأنته -صلى الله عليه وسلم- ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ وُلُوصفه بالحكيم، وإحكام آياته ثم تفصيلها، وُلُوصفه بالمبين كما في يوسف، ولبيان علو آياته كما في أول الرعد: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، ووصفه بالحق، أو لبيان منهجه -صلى الله عليه وسلم- كما في إبراهيم، أو لرفعة الكتاب وكونه قرآنًا مبينًا مفصلاً جامعًا بينًا مبينًا لكل شيء كما في أول الحجر.

لذلك قيل: إن هذه الحروف تذكر في السور التي تتحدث عن الكتاب، أو القرآن في بدايتها، وهذا دليل على ذلك.

وهكذا في النصف الثاني من القرآن لو تأملنا، نجد أيضًا الكتاب، أو القرآن، أو الذكر، الذكر كما في أول سورة مريم، والقرآن كما في أول طه، وأول يس، وأول ص، وأول ق، والكتاب كما في أول الشعراء: ﴿طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، والجمع بين القرآن والكتاب كما في أول النمل: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وكذا أول القصص ذكر الكتاب موصوفًا: ﴿طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، والوصف بالحكيم في أول لقمان: ﴿الْمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وأول السجدة: ﴿الْمَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ وكذا أول غافر: ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وأول فصلت: ﴿حَمَّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ...﴾، وأول الزخرف: ﴿حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، وأول الدخان نفس النص، وأول الجاثية: ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ...﴾، وأول الأحقاف أيضًا: ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾.

ولم يخرج عن ذكر الكتاب، أو القرآن إلا خمس سور، هي: مريم: ﴿كَهَيَعَصْ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، والعنكبوت: ﴿الْمَ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا...﴾، وأول الروم: ﴿الْمَ غَلَبَتِ الرُّومُ...﴾، وأول الشورى: ﴿حَمَّ عَسَقَ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ...﴾، وأول سورة ن: ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ولكل من هذه السور الخمس خصوصية تعادل السور التي استهلكت بحروف التهجي، وذكر في أولها الكتاب، أو القرآن ... فإذا نظرنا في أول سورة مريم ﴿كَهَيْعَصَ﴾ نجد ذكر الرحمة التي منبعها اتباع الكتاب، بما فيه من آيات وابتلاءات، وعبر وعظات، وقصة مريم فيها، واقتراء القوم عليها، وذكر عيسى، وحديثه في المهد، والإعجاز الذي تجلى فيها منبعه (رحمة ربك) وهذا يتناسب مع مقصودها الأعظم، وهو -كما قال البقاعي-: "بيان اتصافه -سبحانه- بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع خلقه، المستلزم للدلالة على اتصافه بجميع صفات الكمال المستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب، المستلزم لتمام القدرة، الموجب للقدرة على البعث..."^(١).

عند التأمل في هذا المقصود الأعظم، نجد أن هذا مضمون ما جاء به الكتاب، وما حواه القرآن الكريم، ولكن افتتاح السورة هنا جاء مختلفاً عن بقية الفواتح ليتناسب مع حالة مريم التي نفخ الله فيها من روحه، ولا مثيل لحالتها في البشر، وكذلك موقف عيسى ونطقه في المهد، ورفع الله، وإنزال المائدة من السماء بدعائه ... ونحو ذلك من أمور فريدة لحالته وحالة أمه -عليهما السلام-.

ولما كان أقصى ما رآه البشر خلاف فطرتهم: أن تلد الأم دون أن يمسسها بشر، وأن يتكلم وليدها في المهد دفاعاً عنها... كان أقصى ما جاءت عليه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور خمسة أحرف (كهعيص)، وحرف الكاف في بدايتها يدل على تكرار الأحداث، ففيها ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى...﴾ [مريم: ٥١]، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ...﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

وتدل الكاف مع ما بعدها على عظمة هذه الأحداث، فمريم أحداث قصتها عظيمة في السورة، وفي غيرها، كما في سورة آل عمران، وإبراهيم له مواقف جسام

(١) نظم الدرر ٤/٥١٤.

كطرحه في النار، ومواقفه مع قومه، وابتلائه بذبح والده، وإسماعيل كان صادق الوعد؛ حيث قال: ﴿يَتَابَتِ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ومواقف موسى مع فرعون، ومع الذي استغاثه من شيعته، وابنتي شعيب... وهكذا، وإدريس له مواقف جسام تستدعي ذكره، فقد قيل: إنه "أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار، وأول من نظر في علم النجوم، والحساب، وخط بالقلم، وخاط الثياب، ولبس الجبة، وكان أغربهم قصة، وأعجبهم أمرًا، وأقدمهم زمنًا، ختم به هذه القصص تأييدًا لهذا النبي الكريم" (١).

والهاء تدل على بلوغ الشيء حده وكنهه، وإذا كانت الكاف فيها تكرر، فالهاء فيها تنبيه، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ أكثر من مرة في السورة والتنبيه -بلا شك- يدل على عظمة الشيء المنبّه له...

والأمر بلغ حده، وكنهه مع سيدنا زكريا -عليه السلام- لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ سَيْبًا...﴾، ومع ذلك بشره ربنا بغلام لم يجعل له من قبل سميا، ولذلك نجد حرف (العين) لم يذكر في الحروف المقطعة التي استهلّت به بعض السور إلا هنا وفي سورة الشورى، كما أن الصاد لم تذكر إلا هنا وفي الأعراف، وجاءت حرفًا مفردًا في سورة ص، والياء تكررت هنا وفي (يس)، والهاء هنا وفي (طه)، ولكل حرف دلالة في سياقه ومقامه، فلو تأملنا مثلًا فاتحة الأعراف، وفاتحة مريم، نجد أن: في فاتحة الأعراف زيادة لم تذكر في فواتح السور قبلها وهو حرف (ص) وأن هذا الحرف جاء بعدها في فاتحة سورة مريم ضمن مجموعة، ثم جاء قائمًا بنفسه في فاتحة سورة تسمى باسمه ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، والجانب الصوتي هنا يدل على الأحداث هنا وهناك، فحرف الصاد الذي زاد هنا عن السور السابقة يتناسب مع أحداث كثيرة في السورة جاءت تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأول تسلية هنا في تثبيت الحق له حيث قال -سبحانه- ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ...﴾.

والتثبيت الثاني في التهديد والتفريع المتوالي للمكذابين: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ
وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْضَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦، ٧]، ثم يأتي تلطيف
الموقف بالتذكير بالنعم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... ﴾
[الأعراف: ١١] "أي صورنا ذرية آدم - عليه السلام - في ظهره ... أو إشارة إلى أنه -
تعالى - أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة" (١).

وهذا تذكير مشوب بالوعيد لمنكري النعم، وتلك كلها مقدمة السورة، يترتب
عليها قصة السجود لآدم، وموقف إبليس، وتنبیهاة بني آدم ﴿ يَبْنِيَّ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْوَمٍ وَرِيشًا وَلِبَاسَ الْتَقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾
[الأعراف: ٢٦] ﴿ يَبْنِيَّ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَكْوَمٍ إِنَّهُ يَبْرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿ يَبْنِيَّ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥] ثم قصة أصحاب الأعراف.

وبعد التذكير بقدره الخالق - سبحانه - تسرد السورة مواقف فريق من الأنبياء مع
أقوامهم ... تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتهوينا عليه، وذلك في قصة:
نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، موسى ...، وقصة الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها ..
تلك التي جعلها الله مثلاً للمكذابين، ثم تختم السورة ببيان شأن المهتدين الصالحين،
والضالين المفسدين، وهذا الذي قامت عليه السورة يدل عليه دلالة تامة مقصودها
الأعظم وهو "إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد
والاجتماع على الخير والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام، وتحذيره
بقرار الدارين ... (٢)".

وكل هذا وما بُني عليه سياقها يدل دلالة قاطعة على الشدة والقوة التي دلت
عليها الحروف المقطعة التي استهلكت بها السورة، فالألف حرف مجهور، وكذا اللام

(١) تفسير الفخر الرازي، ٣٣/١٤.

(٢) نظم الدرر ٣/٣.

والميم وهي -أيضاً-منفتحة، ومنخفضة، بحيث تحقق غرضها خلال السياق، وحرف الصفير الرخو، وهو الصاد يأتي اسماً لسورة قائمة بنفسها وتستهل بنفس الحرف المقطوع (ص) وهذا يدعو إلى التساؤل الذي فتح فيه العلماء باباً كبيراً عن نوعها من جهة الاسمية، أو الحرفية، والإعراب والبناء، ثم مفادها من جهة المعنى ككونها قسماً أو تنبيهاً، أو مجرد اسم سورة ... وبيان ذلك، كما يأتي:

المبحث الثاني:

نوعية حروف التهجي ومقصدها

ذكر الفخر الرازي أن الألفاظ التي يُتَهجى بها: أسماء، مسميّاتها الحروف المبسوطة ... ولأنها يتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم، والتعريف والتكثير، والجمع، والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، فكانت لا محالة أسماء ... وأن تسميتها حروفاً في الحديث الشريف: "من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، لكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف ...". تسمية مجازية؛ لكونه اسماً للحرف، وإطلاق أحد المتلازمين على الآخر مجاز مشهور ...

ثم بيّن أنها أسماء معربة، وإنما سُكنت سكون سائر الأسماء؛ حيث لا يمسه إعراب لفقد موجهه، والدليل على أن سكونها وقف لا بناء: أنها لو بُنيت لَحُذِي بها حذو كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: صاد، قاف، نون، مجموع فيها بين الساكنين.

كما أنها تحتمل الرفع على الابتداء، والنصب، والجر لصحة القسم بها، وهذا على رأي من جعلها أسماء للسور، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل على حد قوله، كما لا محل للجمل المبتدأ، والمفردات المعدودة^(١).

هذه حالتها من جهة الاسمية، والحرفية والإعراب والبناء.

أما مقصدها فللعلماء فيه قولان:

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢/٢، ٣، ١٣ باختصار.

أحدهما: أنها علم مستور، وسر محجوب، استأثر الله -تبارك وتعالى- به، وقال أبو بكر الصديق: لله في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور، وقال علي -رضي الله عنه- إن لكل كتاب صفة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي فهذا رأي من فوض علمها إلى الله، وجعله يجري مجرى علم الغيوب، ومنه قول الشعبي: إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل. (١)

يقول الفخر الرازي: وقد أنكر المتكلمون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله -تعالى- ما لا يكون مفهوماً للخلق؛ لأن الله -تعالى- أمر بتدبره، والاستنباط منه، وذلك لا يكون إلا مع الإحاطة بمعناه، ولأنه كما جاز التعبد بما لا يعقل معناه في الأفعال، فلم لا يجوز في الأقوال بأن يأمرنا الله تارة بأن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون القصد منه ظهور الانقياد والتسليم .. (٢).

وأرجح أن لكل منها في سورتها دلالة يجليها السياق، كما سبق في دراسة أول سورة الأعراف، وأول سورة (ص)، وسأقف بعد بيان هذه الأقوال على دلالة بعضها وجماله من خلال السياق.

أما القول الثاني، فرأى أصحابه أنها معلومة، وذكروا فيها ما يزيد على عشرين وجهًا، بعضها -من وجهة نظري- يغني عن بعض، ومن هذه الوجوه:

- ١- أنها أسماء للسور، وهو قول أكثر المتكلمين، واختيار الخليل وسيبويه.
- ٢- أنها أسماء لله -تعالى- روي عن علي -عليه السلام- أنه كان يقول: يا كهعيص، يا حم عسق.
- ٣- أنها أبعاض أسماء الله تعالى، قال سعيد بن جبير: قول (الر، حم، ن) مجموعها اسم الرحمن، لكننا لا نقدر على كيفية تركيبها في البواقي.
- ٤- أنها أسماء للقرآن، وهو قول الكلبي والسدي وقتادة.

(١) ينظر: البرهان للزركشي، ج ١/١٧٣.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، ٤/٢، ٥، والبرهان للزركشي، ١/١٧٣.

٥- أن كل واحد منها دال على اسم من أسماء الله -تعالى-، وصفة من صفاته، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في (ألم) الألف إشارة إلى أنه -تعالى- أحد، أول، آخر، أزلي، أبدي، واللام إشارة إلى أنه: لطيف، والميم إشارة إلى أنه ملك، مجيد، منان، وقال في (كهيعص) إنه ثناء من الله -تعالى- على نفسه، والكاف يدل على كونه كافيًا، والهاء يدل على كونه هاديًا، والعين يدل على العالم، والصاد يدل على الصادق ...

٦- بعضها يدل على أسماء الذات، وبعضها على أسماء الصفات، قال ابن عباس في (الم) أنا الله أعلم، وفي (المص) أنا الله أفصل، وفي (الر) أنا الله أرى ...

٧- كل واحد منها يدل على صفات الأفعال، فالألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجيده.

٨- بعضها يدل على أسماء الله -تعالى- وبعضها يدل على أسماء غير الله .. فالألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي أنزل الله الكتاب على لسان جبريل إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-.

٩- كل واحد من هذه الحروف يدل على فعل من الأفعال.

١٠- أن الله -تعالى- ذكرها احتجاجًا على الكفار، وذلك أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا عنه، أنزلت هذه الحروف على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف؛ أي أنها تنبيهات على عجزهم، وأن القرآن ليس إلا من عند الله ...

١١- كأن الحق قال: اسمعوها مقطعة حتى إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك ..

١٢- قيل: يراد بها حساب الجُمَّل، ورده كثير من العلماء؛ لأنه أشبه بالسحر ...

١٣- وقيل: إن الله -تعالى- أقسم بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها؛ لأنها مباني كتبه المنزلة.

١٤- وقيل: لما قال الكفار: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ وأراد الله صلاحهم ونفعهم أورد عليهم ما لا يعرفونه؛ ليسكتهم، وليستمعوا لما يتلى عليهم بعد.

١٥- وقيل: إنها تنبيهات للمخاطبين على قطع كلام، واستئناف كلام آخر.

١٦- وقيل: إنها ثناء على الله.

١٧- وقيل: إنها معجزة دالة على صدقه.

١٨- وقيل: إنها دليل على أن القرآن مؤلف منها، فلا يكون قديمًا....^(١).

توضيح وترجيح:

وكل هذه الأقوال اجتهادات شخصية لا ضابط لها من الشرع أو من اللغة ..

والأولى أنها تنبيه لما يذكر بعدها، وخاصة أن معظم الحديث بعدها عن الكتاب، أو القرآن .. وكان هذا هو شغلهم الشاغل، فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: إنما يعلمه بشر، وقالوا: افتراه ... وهكذا، فكانت هذه دليلاً على غيرها، وأنه كله كلام الله المؤلف من هذه الحروف التي هي لغتكم، ولسانكم المبين، وهذا يشبه إجماع الخصم بالحجة، وكل سورة من سور القرآن لها مفتاح يناسبها، ويلفت من يتدبر إلى أثر بدايتها في بناء سياقها، ومن ثم جعل البقاعي لكل سورة مقصدًا عامًا تدور حوله جل آياتها، وبداخلها مقاصد فرعية، فجعل السورة دائرة كبرى تتخللها دوائر صغرى، وتتربط عناصر بنائها، وتتعلق دواخلها بمفتاحها، ويرتبط أولها بآخرها وأخرها بأول التي بعدها ... وهكذا نجد أن كل سورة متصلة بما قبلها وبما بعدها، كما نجد أن كل آية في بناء السورة نتيجة للتي قبلها، ومقدمة مهينة للتي بعدها.

وهذا هو الإحكام الذي قاله ربنا ﴿الرَّكَيبُ أَحْكَمُ مِنْهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ٢].

ورجح السيوطي القول بأنها تنبيهات، واستدل بقول الخويبي: "القول بأنها تنبيهات جيد؛ لأن القرآن كلام عزيز، وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد على سمع متنبه، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي في عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله: الم، والر، وح، ليسمع النبي ﷺ صوت جبريل فيقبل عليه، ويصغي إليه، قال: وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي، ج ٢، ٦: ٩.

كـ(ألا، وأما)؛ لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يؤتى فيه ألفاظ تنبيه لم تُعهد؛ لتكون أبلغ في قرع سمعه^(١).

وقفه وتأمل:

هذا كلام جيد، ولكني لا أرحبه؛ بل لا أكاد أرغب في سماعه؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يشغله عن بيان الله شيء، بل كان يأتيه الوحي فيحرك به لسانه حرصاً وخوفاً من تفلته منه، وربنا يقول له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ [القيامة: ١٦]، فالنبي لم يكن في حاجة إلى تنبيه يخبره بأهمية ما يأتي به الوحي، أو تنبيه لمهمته التي كلفه الله بها... فقد فرّغه الله لذلك، ولم يشغله حتى بقريضهم، الذي يدل على قوة لسانهم فقال - سبحانه -: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾ [يس: ٦٩]، فهي تنبيهات لهم مخالفة لما عرفوه وأفوه من أدوات التنبيه المستعملة في بيانهم، وليست تنبيهات لكون النبي شغله شاغل.

والأولى من ذلك أن تُبحث علاقتها بالسياق الذي تصدرته، أو كانت لها الصدارة فيه؛ لبيان قيمة الكتاب، أو القرآن، أو التنزيل، أو الوحي، كما في: ﴿حَمَّ عَسَقَ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ...﴾ الآية، فهي وإن كانت تنبيهات، إلا أنها ضرب من الإعجاز الذي يدفع إلى تحريك العقل، ولفت الذهن، وشحذ البصيرة، ومن ثم يتجلى جمال دلالتها على التحدي، وبلاغتها في مقدمة سياق الكلام المعجز ببناء نظمه، وخصائص سياق لفظه، فمثلاً تأتي (الم) البقرة لتلفت النظر إلى الدلالة العظمى على أن القرآن هدي؛ ليتبع، ودليل ذلك هو البداية بعد الحروف المقطعة بـ(ذلك الكتاب) أي الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، ففيه العلو، والعظمة، والرفعة، الدال عليها اسم الإشارة (ذلك)، والتعريف في الكتاب، ونفي الريب عنه مع عدم إثباته لغيره، وتتكبير (هدى) الدالة على بلوغه أقصى درجات الهداية، ثم تأتي بعد ذلك طبقات البشر في بداية السورة: الكافرون، المنافقون، والمؤمنون... ثم تنسج السورة على مجموعة من الوقائع والأحداث الدالة على أن كلاً منها يحتاج إلى

(١) الإتيان في علوم القرآن، ط٤، الحلبي، ١٩٧٨م، ١٤/٢.

طريق الهداية، حتى مع الأنبياء، ففي قرب نهاية السورة يقول إبراهيم -عليه السلام-
 : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ البقرة ٢٦٠، وفعلاً دلّله الله على الطريق بطريقة
 عملية ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ
 يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقبله الذي مر على قرية وهي خاوية على
 عروشها ... إلى آخر الأحداث الدالة على طرق الهداية، وعلى علو الكتاب، وأنه
 أساس الهداية، ولو تأملنا سورة آل عمران الداعية إلى التوحيد لوجدنا أحداثها كذلك،
 كلها تدل على وحدانية الله، وقدرته الدالة على هذه الوحدانية، و(الم) في بدايتها لافتة
 أساسية لهذه الوحدانية التي تكمن فيها القدرة ... فلكل سورة دلالة يكمن فيها جمال
 هذه الفواتح بالحروف المقطعة، المنبهاة على أحداث السورة وترابطها، وتواصل
 سياقها، وأنه لا يصلح تقديم حدث على حدث آخر معه في ذات السورة، وهذا هو
 الإحكام الذي قال فيه ربنا ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِهِ﴾ هود ١، وهذه الفواتح بالحروف
 المقطعة إحكام من الإحكام الذي ليس كمثله إحكام، فإن كل ما قيل في هذه الفواتح
 يصلح فيها من وجهة نظر قائله، فإنه قول مبني على فهم معين، وتختلف الأفهام
 باختلاف العقول، وتتفاوت الأحكام بتفاوت الأفهام، وكل ذلك من قدرة العليم الخبير
 ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ البقرة ١٤٨.

وهذا من جمال دلالة الحرف حين يذكر، وفي غير الحروف المقطعة قد يذكر
 الحرف بمسماه لا باسمه كما هنا، فتكون له دلالة، وقد يحذف في سياق آخر فتكون
 له دلالة.

الفصل الثاني

جمال الدلالة في ذكر الحرف وحذفه من خلال السياق

بناء على ما سبق فإن السياق الذي نبحث فيه جمال الدلالة البلاغية في القرآن الكريم، قد تحذف منه الأداة، ويبقى معناها، كحذف ياء النداء مثلاً مع بقاء معناها، ويكون بناء الكلام على هذه الطريقة أوفى بالغرض، وأدل على المراد، وأحكم في البناء، وقد يقصد بالكلام الاستفهام، ولا تذكر أداة الاستفهام، كما أن بعض الجمل تُذكر فيها كلمة، أو عبارة كذكر متعلق الفعل؛ لأنه لا يفهم المراد بدونها كقوله - تعالى:- ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، والسقف لا يكون إلا من فوق، ولكن ذكر المتعلق (من فوقهم) فيه جمال، وله دلالة، لا يكتمل المعنى المراد إلا به، وإن كان، بعض أهل العلم قالوا: إن المتعلق فضلة، فذلك لا يعني أنه يمكن الاستغناء عنه، ولا سيما إذا جاء في الكلام المعجز، ولكن معنى اعتباره فضلة، أن به فضل تمام بناء معنى الكلام، وأن دلالة المعنى من غيره لا تكون تامة، وعلى ذلك فيكمن جمال الدلالة في: توثيق المعنى، وتقويته، وتوكيده، وهذا هو معنى قول البلاغيين: إن تقييد الفعل يكون لتربية الفائدة، وتنميتها... كما أقول: رأيت به عيني، وذقته بعمي، فزيادة القيد دلت على معنى لا يكون بدونها، وتزداد أهمية الدلالة في هذا القيد إذا الكلام في مقام الإنكار، فذلك يحتاج تقوية المعنى وتوكيده، ليقر قراره في النفوس، وبه يكون جمال المبني، وقوة المعنى: كما رأينا.

كذلك تحذف الكلمة وتبقى دلالتها أعلى مما لو كانت مذكورة، كما في حذف المسند مثلاً، وتذكر الكلمة في مكان وتحذف من آخر، وتقدم هنا وتؤخر هناك. ولنبدأ بالحرف الذي هو أحد مكونات الكلام [مبنى أو معنى] لمعرفة دلالاته حين يذكر، وحين يحذف.

المبحث الأول

الحرف يحذف من سياق الكلام وتقوى دلالاته:

هذا من طبيعة اللغة التي نزل بها هذا الكتاب المحكم، وهو مما استعملته العرب في بيانها، وكان أصلاً في بلاغتها وبراعة أسنتها، من باب الاعتماد على الحس، ثم الإيجاز الذي هو عروس الكلام، وبه يتميز باعتبار الحال والمقام ... ولذلك ذكر فيه الشيخ عبد القاهر عبارة بليغة، لم تترك مجالاً لكلام آخر يقال في براعة الكلام إذا بني على ذلك، يقول عن الحذف بعمومه: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين، وهذه جملة قد تتكرها حتى تَحْبُرَ وتدفعها حتى تنظر ..."^(١).

وندرس هنا من شواهد ذلك: حذف الحرف من الكلمة، والسياق ينطق بجمال الدلالة، والحالة هذه.

من شواهد ذلك: مجيء كلمة (ربنا) في القرآن الكريم مقصوداً بها الدعاء نحو قوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ... والمقصود: يا ربنا، وهي كثيرة في باب الدعاء، وكلها بحذف الحرف، ولا ريب أن وراء ذلك دلالة تبرز جمال المعنى مع إيجاز القول، والدلالة على قرب الله من عباده كما قال - سبحانه-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة ١٨٦]، والقريب -من البشر- حين تناديه وأنت بليغ لا تحتاج ذكر حرف النداء، فما بال رب البشر؟! وهو الرحيم الغفور؟

وبناء على ذلك فالدعاء بصيغة حذف حرف النداء وراءه دلائل وأسرار تكمن في سياق كل شاهد منها.

(١) دلائل الإعجاز، ١٤٦.

ومن شواهد ذلك أول دعاء بذكر هذا اللفظ (ربنا) في الكتاب العزيز: وردت هذه الكلمة (ربنا) في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة مع اختلاف موقعها الإعرابي، واختلاف المقام والسياق الذي وردت فيه، فقد يقصد بها الدعاء، وقد يقصد بها مجرد الإخبار، وهذا كثير في القرآن الكريم، وقد تكون تمهيداً للدعاء ومقدمة له، كما في قوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وقد تكون مقدمة للتزويه وممهدة له، كقوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقد يقصد بها التحذير والوعيد، كقوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقد تأتي في مقام الخوف والتمني كقوله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِتْنَال لَوْلَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ...﴾ [القصص: ٤٧]، وقد تأتي في مقام التقرب كقوله -تعالى-: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤]، وقد تأتي في مقام الاعتذار كقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقد تأتي في مقام الحوار والتقرير كقوله -تعالى-: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا...﴾ [الأنعام: ٣٠]، وتأتي في مقام تحقيق الوعد كقوله -تعالى-: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقد تأتي في مقام القسم كقوله -تعالى-: ﴿لَيْنَ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وكقوله -تعالى-: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا...﴾ [الأحقاف: ٤٣]، وقد تأتي في مقام الاعتراف بالوحدانية كقوله -تعالى-: ﴿... رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَّا هَٰهَا﴾ [الكهف: ١٤]، وقد تأتي في مقام الخوف والاعتذار، كقوله -تعالى-: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، وتأتي في مقام الإقرار بالنعيم كقوله -تعالى-: ﴿قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وتأتي في مقام الاعتذار المهيب للدعاء كقوله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا

السَّيِّئَاتِ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمُ لَعَنًا كَبِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٦٧]، وقد تأتي بعد فعل المشيئة لغرض الإنكار، كقوله -تعالى-: ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ... ﴾ [فصلت: ١٤]، وقد تأتي في مقام الطلب لغير الدعاء، بل للندم وطلب الاقتصاص كقوله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩]، ولات ساعة مندم، وتأتي في مقام البشارة، كقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقد تأتي في مقام الرجاء، كقوله -تعالى-: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [القلم: ٣٢]، وقد تأتي في مقام التأييد لغرض التأكيد كقوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ١: ٣]، ومن مقام التأكيد أيضًا قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا ﴾ [الإنسان: ١٠].

هذه معظم المقامات التي ورد في سياق نصوصها، لفظ (ربنا) رفعًا ونصبًا وخفضًا، وسأقف فقط عند ذكرها في مقام الدعاء، للبحث في جمال دلالة حرف النداء، والحال يقتضي بسط الكلام مع رب العالمين، ولكن دلالة الحذف أولى هنا من دلالة الذكر التي يكون المقام فيها بسط الكلام مع رب العزة كما فعل موسى - عليه السلام - حين قال له ربه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ طه ١٨، ولم يكتف بذكر المسند إليه، بل ذكر أوصافها ومنافعها حبًا للإطالة الوقوف مع رب العالمين فقال: ﴿ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْسُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَثَرَبٌ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨].

وهنا في مقام الدعاء كان يجب ذكر ياء النداء؛ حبًا للإطالة في حضرة الذات الإلهية، ويكون للكلام جمال، ولدلالته حسن وبهاء، ولكن حذفها أوفى بالدلالة، وأبرز لجمال القرب ممن قال: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ البقرة ١٨٦، فحذف الياء فيهما جميعًا يدل على

أن الله قريب من عباده دائماً، ولم تذكر الياء مع لفظ (ربنا) أبداً في القرآن الكريم، ولكنها ذكرت مع كلمة (رب) فقط في موضعين اثنين، الأول في قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، ذكرت الياء هنا، مع أن المتحدث هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقرب الناس إلى الله -عز وجل- مبالغة في التبرؤ في مقام التضرع بما يتناسب مع حالة الندم التي جعلت الظالم يعرض على يديه أسفاً مما أصابه بسبب اتباع الهوى بموافقته من أضله، وتركه من يريد هدايته، بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا لَيْتَنِي لَمْ أُتَّخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

فمقام المبالغة في الندم والويل يستدعي أن يكون المقابل المبالغة في بيان علة ذلك، وافتعالهم له بقوله "اتخذوا"؛ لأنهم كانوا يعرفون الحق من الباطل، ولكنهم كما وصفهم ربنا -سبحانه-: ﴿فَاتَّهَمُوا لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وليس المقام مقام دعاء، ولكنه مقام استدلال على أسفهم البالغ، وندمهم الشديد، ومن ثم ذكرت الياء مع كلمة رب في غير مقام الدعاء في هذا السياق، وكذلك في قوله -تعالى-: ﴿وَقِيلَهُ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩].

والمقام هنا أيضاً ليس مقام دعاء، ولا أن الله بعيد فيناديه، ولكنه مقام الإفصاح في بعدهم عن الله، مع إقرارهم بأنه الخالق ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] لا يستطيعون القول بغير ذلك، حتى لا يزداد اتهامهم في عقولهم ... ومع ذلك فهم للحق كارهون، كما وصفهم ربنا بقوله -سبحانه-: ﴿لَقَدْ حَسَنَّاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ولكن يلفت النظر هنا التعبير بقوله "وقيله" دون: وقوله، وقال الزمخشري: قراءة النصب والجر في "وقيله" على إضمار حرف القسم وحذفه ... ويكون قوله "إن هؤلاء قوم لا يؤمنون" جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بوقيله يا رب، أو وقيله يا رب قسماً إن

هؤلاء قوم لا يؤمنون (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم ... وودعهم، وقل لهم (سلام) أي تسلّم منكم ومشاركة... (١).

و(قيله) بهذه الصياغة تدل على شدة حرص الرسول على إيمانهم دون جدوى منهم، والله -سبحانه- يسليّه بقوله -سبحانه-: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ...﴾ [الزخرف ٨٩] أي لا تبالي بكفرهم، كما قال -سبحانه- في موقف آخر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، (وقل سلام) من باب قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وختام الموقف بالتهديد ﴿فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ فيه دلالة على الوعيد الذي يضاهي الجهد المبذول في إبلاغ الدعوة، ومقابلة ذلك بالجدود والذكران.

هذان فقط هما الموقفان اللذان ذكرت فيهما الياء مع لفظ (رب) وليسا في مقام الدعاء، ولكنهما في مقام الإخبار بحالة قوم لا يؤمنون، ولا يرجى لهم الإيمان، كما تبين.

ومن ذلك يتجلى جمال الدلالة حين يُذكر الحرف في المقام الذي لا يصلح بغيره، ولا يستقيم دونه، كما يتجلى جمال الدلالة بذكر الحرف في المقام الذي لا يكون المراد إلا بذكره، وهو مقام الدعاء كما سبق، وشواهد كثيرة، نكتفي بدراسة بعضها لتكون دليلاً على غيرها مع اليقين بأن كل سياق له ما يناسبه، ولا يغني سياق عن سياق، كما لا تغني دلال هذا عن دلالة ذلك، فالذي في قوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مَنَّا...﴾ يختلف عن الذي في: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ عن الذي في: ﴿رَبَّنَا أَعْفِرْ لَنَا...﴾ وهكذا.

فإذا تأملنا أول دعاء بلفظ (ربنا) في القرآن الكريم، نجده توالى ثلاث مرات في سياق واحد، ونص مترابط، وحذفت منه ياء النداء كله دلالة على الإقرار بأن الله

(١) الكشف، ٤/٤٩٨ بشيء من الاختصار.

قريب مجيب، وأن الداعي يدعو بظهر قلب مشتاق لا غفلة فيه، بل كله ثقة بإجابة ربه.

وأن أول نداء بلفظ ربنا كان في حالة مشقة وعناء، ومع ذلك جاء التعبير بما يدل على الاعتراف بالضعف والتقصير بجانب نعم الله.

وجاء النداء الثاني بالجعل ﴿وَأَجْعَلْنَا﴾ أي صيرنا، أو وفقنا للاستسلام لأمرك، والاستقرار على طاعتك، ووجهنا لما ينفعنا، وتقبل توبتنا.

والنداء الثالث (ربنا وابعث) فيه بالغ الحرص على عموم الصلاح، وأن يكون المبعوث إليهم منهم ...

وهذا هو قول ربنا -سبحانه-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَارِنَا مَنَاسِكًا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

نلاحظ أن النداءات الثلاثة في هذا السياق تعطي دلالة عامة تتناسب مع مقصود سورة البقرة الذي هو -كما قاله البقاعي-: "إقامة الدليل على أن الكتاب هدي ليتبع في كل ما قال ..."^(١).

وعليه، فجمال الدلالة في هذا السياق يتدرج ليبدأ من الاعتراف بضعف العمل والتقصير فيه؛ أي: "تقبل عملنا بفضلك، ولا ترده علينا؛ إشعاراً بالاعتراف بالتقصير لحقارة العبد، وإن اجتهد في جنب عظمة مولاه، ولما تضمن سؤال القبول المشعر بخوف الرد، علم الناقد البصير بالتقصير علله بقوله (إنك) وأكده بقوله (أنت السميع العليم) أي: فإن كنت سمعت، أو علمت منا حسناً فزده حسناً، وإن كنت سمعت أو علمت غير ذلك من نحو قول ناشئ عن اختلاج في النفس بما سببه كلال أو إعياء فاغفره"^(٢).

(١) نظم الدرر ١/٢٤١.

(٢) السابق ١/٢٤٢.

فالبداية استسلام وإقرار بضعف عمل العبد؛ لأن التاء في (تقبل) تدل على الطلب الذي يتناسب مع لفظ الدعاء بحذف حرف البُعد (يا) وكأن الداعي واثق من قبول المدعو، وفيه دلالة على الأخذ بأسباب الدعاء قبل الدعاء، والاعتراف بالتقصير والتذلل من أسباب قبول الدعاء، بخلاف الغرور، والعُجب.

وقيل: إن التقبل هنا مجاز عن الإثابة والرضا؛ لأن كل عمل يقبله الله - تعالى- فهو يثيب صاحبه ويرضاه منه ... وفي اختيار صيغة التقبل اعتراف بالقصور؛ لما فيه من الإشعار بالتكلف في القبول ...^(١)، أي أنه ذكر التقبل وأراد لازمه، من باب المجاز المرسل بعلاقة اللزوم؛ أي ذكر الملزوم وإرادة اللازم، وفيه يقول الراغب: والتقبل: قبول الشيء على وجه يقتضي ثوابًا ...^(٢).

وهذه أدنى مراحل الطلب التي ارتقت بعد ذلك إلى طلب أعلى، مما يدل على أن الطلب الأول وطأ للثاني، فقال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾

فلما اطمأن للقبول أظهر المراد من الطلب الأول، فحدث التدرج من خفي الاستسلام إلى ظاهره، وهو عمومته له، ولولده، ولذريته، بالإضافة إلى طلب الهداية للمناسك، وقبول التوبة عن كل تقصير، سواء كان ظاهرًا يعرفه، أو خفيًا لا يدركه، وليس هذا له فقط، بل لذريته كلها على امتداد أزمانها، وتتاسل ذرياتها ...

ودرجة القرب في الدعاءين واحدة، فلم ترد ياء النداء فيهما، فبدأ هنا بطلب القبول بقوة؛ لذا قال (تقبل) وظاهر اللفظ يدل على باطن المعنى؛ لأن الألفاظ تحاكي المعاني وتدل عليها، ومن ثم كانت دلالة النص جامعة لمفهومه زمانًا، ومكانًا، ومطلوبًا.

فالزمان واضح في التعبير بالمضارع "يرفع" حكاية لحال ماضية واستحضارًا لها، وكأنها الآن، وفي كل زمان، والمكان هو البيت الذي لا ينقطع الطواف حوله ... والاستحضار لجمال المعاني في طلب الثواب في كل الأعمال؛ لأن الله سائل

(١) روح المعاني للألوسي، ج ٢/٣٨٤.

(٢) المفردات، (قبل).

عنها، والأجر على قدر المشقة، لذا قال "إنك أنت" على وجه الخصوص (السميع) لدعائنا، سماعًا ترتقي به الدرجات، وتقبل به الأعمال (العليم) بمقصودنا ...، ثم يعلو الطلب إلى فعل الجعل (واجعلنا)، وفيه يقول الراغب:

"جعل" فعل عام في الأفعال كلها، وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ... ويتصرف على خمسة أوجه ... (١) يصلح منها في شاهدنا (صار) أي صيرنا كذلك منقادين مستسلمين لأمرك.

يقول فخر الدين الرازي: "وجعلهما بهذه الصفة لا معنى له إلا خلق ذلك فيهما، فإن الجعل عبارة عن الخلق، قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ الظُّمُتِ وَالنُّورَ﴾ .. [الأنعام ١] ثم يقول: لا نسلم أن الجعل عبارة عن الخلق والإيجاد، بل له معان أخرى سوى الخلق، منها (صير) قال -تعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، ثم يقول: لكن لم لا يجوز أن يكون المراد منه خلق الألفاظ الداعية لهما إلى الإسلام، وتوفيقهما لذلك، فمن وفقه الله لهذه الأمور حتى يفعلها فقد جعله مسلمًا له ... وطلب ذلك في الزمان المستقبل لا ينافي حصوله في الحال ... أو أن يكون المراد منه الزيادة في الإسلام؛ كقوله -تعالى-: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، [الفتح ٤] و﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى ...﴾ [محمد ١٧].

وقوله "ربنا واجعلنا مسلمين لك" يفيد الحصر؛ أي أن نكون مسلمين لك لا لغيرك، وهذا يدل على أن كمال سعادة العبد في أن يكون مسلمًا لأحكام الله -تعالى- وقضائه وقدره، وألا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه ... (٢).

فالتدرج هنا أدى إلى أمرين؛ أحدهما: تثبيت الطلب، والثاني: التوسع فيه؛ ليخرج بالنص من مجال حب الذات، والاكتفاء بذلك، إلى طلب إعمار الأرض زمانًا، ومكانًا بذلك، إلى ما هو أعلى، وهو طلب الهداية إلى معرفة المناسك، وكيفية أداء

(١) السابق، (جعل).

(٢) ينظر تفسيره، ٦٥/٢.

الفرائض، إلى ما هو أكبر حماية للذات، والذوات البشرية المجبولة على النقص بطلب قبول التوبة التي تطهرها "وتب علينا".

ثم يأتي الترقى الذي بلغ الذروة في الدعاء؛ حرصًا على الزمان كله، والنسل كله، وهو قوله -تعالى-: "ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم".

طلب أولًا أن يكون المبعوث من جنسهم، والتعبير بقوله (منهم) فيه دلالة على أنه ليس المراد الجنس فقط، ولكن من بينهم ومن نسلهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم حتى لا تكون لهم حجة في الاعتراض على دعوته، ثم حدد المهام التي يقوم بها، وهذا من أعلى درجات القرب، ومن ثم قلت إن الطلب أو الدعاء، بلغ ذروته، فطلب المهام الآتية (يتلو) و (يعلم) و (يزكي) وهذا الطلب أيضًا فيه ترق من الأدنى للأعلى، فالتلاوة تكون سببًا في التعلم، ومن ثم يكون التزكي كما سيأتي.

فالدعاء هنا (ربنا) بإسقاط النداء فيه الدلالة على القرب الذي بينه وبين ربه - كما سبق- ولكن الطالبين السابقين (تقبل) و (اجعلنا مسلمين) فيهما التذلل والانكسار أمام الحضرة الربانية التي يصورها النص كله بما قبله، وبما بعده، ولكن الطلب الثالث (وابعث) وتحديد مهام المبعوث، فيه شيء من التمكن من درجة القرب، والحرص على نجاح الرسالة مهما حدث من تحديات ... ولذلك عبر بقول "وابعث" الدالة على الحركة، بل الإثارة.

والمادة -كما يقول ابن فارس- "الباء والعين والهاء أصل واحد وهو الإثارة"^(١)، ويقول الراغب الأصفهاني: أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، ويختلف البعث باختلاف ما علق به، فقد يقصد به إحياء الموتى كما في قوله -تعالى-: ﴿وَأَمْوَاتٌ يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقد يكون بمعنى (قيض) كقوله -تعالى-: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ...﴾ [المائدة: ٣١]، أي قيضه، وقد يقصد به الإثارة بلا توجه إلى مكان؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، أما قوله

(١) مقاييس اللغة، (بعث).

-تعالى-: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦] فبمعنى توجههم ومضاهيهم.... (١).

أما موطن الشاهد في السياق الذي ندرسه "ربنا وابعث" فبمعنى أرسل، وهذا الإرسال في باطنه معنى الإثارة التي ذكرها ابن فارس والراغب ... لأنه ليس مجرد إرسال، وإنما إرسال تكون مهمته كما هي في السياق "يتلو ... ويعلمهم ... ويزكيهم ..."، وهذا ليس بالأمر الهين، ولكن يخففه قوله "رسولا منهم".

قال الزمخشري: أي من أنفسهم، ووصفه بذلك ليكون أشفق عليهم، ويكونوا أعزَّ به، وأشرف، وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصدقته وأمانته ... وهذا قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "سأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأيت حين وضعتني" (٢).

ومن هنا يكمن جمال الدلالة بهذا الترقي الفائق الصادر من مقام أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام- الذي تدرج في حدود مهام من يبعثه الله، واستجاب الله دعوته، فكانت ركيزة الدعوة: تبليغ ما أنزل إليه من ربه، وتعليم أسس الشريعة؛ لأن كتاب الله فيه بيان كل شيء كما وصفه -سبحانه-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ثم تأتي أعلى مرحلة من مهام النبوة "ويزكيهم"، قال الزمخشري: أي يطهرهم من أرجاس الشرك، وأنجاس الشك، وقاذورات المعاصي، وهو إشارة إلى التخلية، كما أن التعليم إشارة إلى التحلية، ولعل تقديم الثاني على الأول لشرافته ... (٣).

هذه دلالة لفظ ربنا في النص القرآني، محذوفة أداة النداء في نص توالت فيه الكلمة (ربنا) ثلاث مرات بثلاثة طلبات، وليس في القرآن شاهد آخر مثله في هذا التوالي من نبي كما حدث من سيدنا إبراهيم، ولكن لسيدنا إبراهيم دعاء آخر بنفس

(١) ينظر: المفردات، (بعث).

(٢) الكشف ٣٨٦/١ باختصار.

(٣) الكشف ٣٨٧/١.

اللفظ (ربنا) فهذه كلمة (تَقَبَّل) ولكن مسبوقه بالواو (وَتَقَبَّل)، وبعدها طلب المغفرة على الوجهين الخاص، والعام.

ونقف مع النص حتى يتبين جمال الدلالة في سياقه، قال -تعالى-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٩-٤١].

بداية، نجد أن هذا النص مترابط مع سياقه كله، وأن الدعاء بدأ فيه من أول قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثم الدعاء الثاني في ذات السياق ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ثم يتدرج الدعاء في السياق لينتقل من العموم إلى الخصوص في قوله ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

أول ما يلفت الذهن هنا: هو علاقة هذا النص بمراحل الدعاء فيه؛ عمومًا، وخصوصًا، وتنوعًا تحتاج إليه كل حياة؛ حيث الدعاء بالأمن هو مبدأ الاستقرار، والدعاء بربط أفئدة الناس بالبيت فيه تعلق بالله، والدعاء بطلب الرزق لا يكون إلا بعد هذا التعلق برب العالمين، فنلاحظ البناء المحكم في النص لتكون الدلالة محكمة ومتعلقة بمقصود هذه السورة الأعظم، الذي قال فيه البقاعي: "ومقصودها التوحيد، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله؛ لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه، المؤدي إليه، وأدل ما فيها على هذا المرام: قصة إبراهيم -عليه السلام- أما التوحيد فواضح، وأما أمر الكتاب: فلأنه من جملة دعائه لذريته الذين أسكنهم عند البيت المحرم، ذرية إسماعيل -عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (١).

(١) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، مكتبة المعارف بالرياض، ط ١٩٨٧م، ١٩٦/٢.

يتجلى من ذلك أن هذا الدعاء امتداد لدعائه السابق في سورة البقرة؛ لأن ما طلبه هناك من تحديد مهام المبعوث يحتاج إلى هذا الأمن الذي به تثمر الدعوة ثمرتها، وتؤدي مهمتها، كما أن ربط الأئمة به دعوة إلى انتشار الإسلام في كل ربوع الأرض، ثم يأتي الشاهد المراد هنا في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

البداية هنا بقوله "رب" ولم يقل ربنا كما كان في سورة البقرة، وحرف النداء محذوف أيضاً؛ لأن المراد: يا رب، واستعاض عن (يا) بقوله عقبها (اجعلني) ف (رب) هنا ليست هي مناط الدعاء، ولكنها هيأت له، وأصلها ربي، حذفت الياء تخفيفاً، كما هو معتاد عند الحذف غالباً، وهي (أي الياء) مضاف إليه، كل هذا هيأ لتخصيص الدعاء في قوله (اجعلني) فهذا الفعل (اجعل) يقال له في القرآن الكريم: فعل دعاء، فقبلها كان الطلب عامًا (فاجعل أئمة من الناس تهوي إليهم)، وهنا: (اجعلني)، ونونه للوقاية -كما يقول النحاة- والياء مفعول به أول، ومقيم مفعول به ثاني ... ولم يقف تضرعه عند هذا الخصوص الذي في (رب) بحذف ياء المتكلم الدالة على هذا الخصوص، وحذفها أبلغ من ذكرها؛ لأن الحذف هنا يدل على انقطاع لربه، فالقطع من الانقطاع، والحذف من صفاء القلب لرب العباد، وأنه لا ينشغل بسواه، وهكذا اللغة تتطابق مع واقع النفس، وتتطق بما يجول في الخاطر.

والإجمال حين يسبق التفصيل يدل دلالة بارعة في التعبير عن الشيء مجملًا لتشتاق النفس إليه مفصلاً، فلما قال (رب) بحذفين، أحدهما في أول الكلمة، والثاني في آخرها؛ لأن المقصود (يا ربي) ارتقت صيحة النداء، وتهيأت النفس لما بعده، فهذا الحذف فيه تشويق. وهنا يكمن جمال دلالاته، أي دلالة الحذف المحيط بجوانب الكلمة؛ لمعرفة جمالها الذي يتجلى في مكن الدعاء بعدها مكتمل الأركان، لا حذف فيه (اجعلني) فالحذف في الأولى شوق لمعرفة ما بعدها، ويزاد جماله في تحديد المفعول به (مقيم الصلاة) وهذا أبرع الدعاء وأرقاه؛ لأن الصلاة عماد الدين، فلم يطلب حين يطلب لنفسه فرعاً من فروع الشريعة، وإنما طلب لبها، وأصلها الذي به تستقيم كل أمورها، والتعبير بقوله (مقيم) ضرب من الاستمرار؛ أي دائم الإقامة في

الحل، والترحال، في الصحة، والمرض، ثم مدّ الطلب لذريته من بعده؛ لأنه قدوتهم، وفي ذلك دعاء باستمرار إقامته؛ لأن عمله بذلك لم ينقطع، فهو باق ببقاء ذريته، ثم يرتقي التضرع والتقرب في لب شاهدنا هنا (ربنا) بهذا الجمع الذي أدخل فيه ذريته معه، وهنا يرتقي الطلب وينتقل من العموم إلى الأعم، بهذه الإضافة (نا) وما فيها من امتداد يحقق طلب الأول في سورة البقرة (ربنا وتقبل) وهذه الواو لافتة للذهن، ولكنني أرى في ذكرها (وتقبل) طلب الاستمرار لدعوته، وألا تنقطع بمماته، فكأنه يطلب بقاء التقبل، وكأن هذا الدعاء قائم لا ينقطع، وموقع الواو هنا (عاطفة) لدعاء على دعاء، ولم يقل أحد من العلماء فيه أكثر من أنها عاطفة، ولكنني أفهم منها الزيادة في الطلب؛ لأن إبراهيم -عليه السلام- لو قال: ربنا وتقبل دعاء، لاستوفى مطلوبه، وبناء على ذلك فحرف العطف هذا يحقق المعنى الذي يريده سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وهو أن يوقفه الله لإقامة الصلاة؛ أي القيام بها على أكمل وجه، وكذا كل من يأتي من ذريته، وأن يزيده على ذلك تقبل دعاءه الذي مضى، والذي سيأتي، ولذلك ختم ابتهالاته بطلب المغفرة على وجهي الخصوص والعموم.

وقال الطبري في المعنى: "وتقبل عملي الذي أعمله لك، وعبادتي إياك"^(١).

وقال البغوي: "أي عملي وعبادتي، سمي العبادة دعاء، وجاء في الحديث: الدعاء مخ العبادة"^(٢).

وأرجح أن يكون المعنى بهذه الواو: (وتقبل دعاء) على الإطلاق، عملاً كان، أو عبادة؛ لأن العمل عبادة، فمع أنها عاطفة إلا أن ذكرها لغرض القبول لكل ما دعا به، ولكل ما يدعو به هو، والمقبولين من ذريته؛ لأنهم منه، والعلماء يقولون: حذف ياء المتكلم تخفيفاً، وأصلها: دعائي، ولكن التخفيف الناجم من الحذف، والحذف دليل الإطلاق والعموم في الطلب، وقد علم أن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن ثم امتد الطلب بعد ذلك إلى المغفرة؛ لتكون العبادة وما يتبعها من عمل، خالصة لله لا

(١) تفسيره، دار هجر، ط ١، ٣/٧٠٢.

(٢) تفسيره المسمى معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، ط ٤، ٤/١٩٩٧، م، ٤/٣٥٨.

يشوبها شيء يقلل أجرها، فنأدى بالإضافة إلى ضمير الجمع أيضاً (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب).

وفيه يقول فخر الدين الرازي: لقائل أن يقول: طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب، فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه، وإن كان قاطعاً بأن الله يغفر له، فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعاً بحصوله؟

والجواب: المقصود منه الالتجاء إلى الله -تعالى- وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته^(١).

وفي النهاية يتجلى جمال الدلالة في هذا التدرج أيضاً، وأن هذا الدعاء في سورة إبراهيم إتماماً لدعائه السابق في نص سورة البقرة السابق، ومن دعاء الأنبياء بنفس اللفظ (ربنا)، دعاء سيدنا عيسى -عليه السلام- ولكنه مسبق بكلمة (اللهم)، وذلك في قوله -تعالى- حكاية عنه ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤].

لما استعظم القوم نزول المائد، وعللوا طلبهم، طانين استبعاد ذلك، افتتح سيدنا عيسى -عليه السلام- إجابة طلبهم بالاسم الأعظم، ورفعته إلى رب العالمين، كما يقول البقاعي: "افتتح دعاءه بالاسم الأعظم، ثم بوصف الإحسان، فقال (ربنا) أي أيها المحسن إلينا"^(٢).

وهذا مما يؤكد مطابقة النص للمقام الذي كان هذا الدعاء سبباً فيه، فقد قالوا: (هل يستطيع ربك ...) بلفظ الرب الدال على الإحسان؛ أي المحسن إليك، فأجابهم بلفظ الهيمنة "اللهم" لأنه أصله يا الله، فزيدت الميم (اللهم) في آخرها عوضاً عن الياء في أولها، قال سيبويه: "وقولهم: اللهم، حذفوا "يا" وألحقوا الميم عوضاً، وشددوا الميم؛ لأن يكون على عدة "يا"؛ لأن "يا" حرفان، وخصوا الميم لأنها تقع زائدة في

(١) تفسيره ١٩/١٤٢.

(٢) نظم الدر ٢/٥٧١.

وأواخر الأسماء، نحو: "زرقم"، و"ستهم" و"دلقم"، ولا يقع هذا الحرف إلا في النداء، وقال الفراء: إن الأصل في هذا الحرف "يا الله أمنا بخير..."^(١).

وجمال التعبير هنا يدل على قصد الوجدانية من جانب، وعلى بيان القدرة الإلهية التي شككوا فيها من جانب آخر، حين قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ [المائدة ١١١] وفاء لهم بما طلبوا، وهذا يتناسب مع مقصود السورة، وهو: الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق، ورحمة الخلاق شكرًا للنعمة، واستدفاعًا للنقمة...^(٢).

فجمع عيسى في جوابه لهم بما يدل على وحدانية الخالق وبيان عظمته وإحسانه لخلقه بجوابه لهم، فقال: "اللهم ربنا"، ولم ترد في القرآن في غير هذا الموضع، وكذا طلب المائدة لم يرد إلا في هذا الموضع، فجمال الدلالة في مواءمة الجواب للسؤال، ومطابقة المقال للمقام.

ومما سبق يتبين أن أكثر دعاء ذكرت فيه كلمة (ربنا) بحذف حرف النداء كان من سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وذلك في سورتي البقرة، وإبراهيم، وأن الدعاء الوحيد الذي سبق فيه لفظ ربنا بكلمة "اللهم" هو ما كان من سيدنا عيسى -عليه السلام- إجابة لطلب الحواريين.

دلالة كلمة (ربنا) في دعاء فريد في القرآن الكريم:

ولكن وردت كلمة (ربنا) في باب دعاء المؤمنين، بتوجيه من الرحمن الرحيم، أكثر من تكرارها في كلام سيدنا إبراهيم -عليه السلام-، حيث وردت عند سيدنا إبراهيم ثلاث مرات متواليات، وفي دعاء المؤمنين وردت أربع مرات متواليات في ختام سورة البقرة، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ

(١) ينظر: شرح كتاب سيبويه لأبي سعيد السيرافي، تحقيق: أحمد حسن مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ١/١٨٤.

(٢) مصادد النظر للإشراف على مقاصد السور، ١٠٤/٢.

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُمُ إِيمَانُهُمْ وَرُسُلِهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِمْ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَاغُوتِ النَّاسِ بِهِمْ وَعَظُفْنَا وَغَفِرْنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٥-٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

وبهذا الشاهد نختم جمال الدلالة في سياق النص بحذف حرف النداء.

خلاصة القول في دلالة حذف الحرف وبقاء معناه:

وبناء على ما سبق تبين أن الكلمة لبنة في بناء النص، ومع ذلك لها أثر كبير في تجلية مراده، ولولاها لما توصلنا منه إلى دلالة معينة، فالكلمة مع جيرانها ليست معزولة عن سياقها، فهي بداية الخيط، وأول الطريق لتحديد جمال الدلالة في سياق النص، ومنها أيضاً مع السياق تستخرج الدلالات البلاغية، والأحكام الفقهية، ولا تتجلى المعاني المرادة إلا بها، وهذا هو قول الشاطبي: "الاعتناء بالمعاني المبنوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو سيلة إلى تحصيل المعنى المراد"^(١).

والاعتناء ببناء الألفاظ، أو الكلمات، هو أساس الاعتناء بقوة المعنى، والوصول إلى جمال الدلالة فيه، والعرب كانوا يفعلون ذلك، وبرعوا فيه، ومن ثم نزل القرآن بلغتهم، وعلى نهج بيانهم، وإلا لما صلح أن يتحداهم فقد تحداهم من جنس ما برعوا فيه، ويبين ابن جني هذا الموقف العربي فيقول:

"فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها، وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها، وأرهفوها، فلا تزين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي

(١) الموافقات ٢/١٣٨.

عندنا خدمة منهم للمعاني، وتتويها بها، وتشريف منها، ونظير ذلك: إصلاح الوعاء وتحسينه، وتزكيته، وتقديسه، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه...^(١).

ومن هذا المنطلق كانت كلمة (ربنا) في باب الدعاء مذكورة الياء لها دلالة- كما سبق- ومحذوفة الياء لها دلالة، ولكل مقام مقال، وإذا كانت جاءت في دعاء الأنبياء على لسان سيدنا إبراهيم أكثر ما جاءت ثلاث مرات متواليات، فإنها في شاهدا هذا في توجيه الله للطائعين جاءت أربع مرات متواليات، ولا يوجد هذا إلا في ختام سورة البقرة.

وكانت بداية النص إخبارًا بالوعي البالغ بأهمية البناء، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- هو المبلغ عن الله، وهو الموحى إليه بهذا البلاغ، فلا شك في إيمانه، والحالة هذه، ولكن الله أخبر بإيمانه بما أنزل إليه؛ تثبيتًا للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وتمهيدًا للوصول إلى المطلوب، وهو طلب المغفرة.

وكما سبق في دعاء سيدنا إبراهيم -عليه السلام- كان آخر شيء ارتقى إليه

الطلب هو طلب المغفرة ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾.

فحتى يرقى الطلب هنا ويكون عن يقين، لا بد من تقديم أسبابه، ومن ثم بدأ هنا بـ الرسول، "آمن الرسول"، ثم نتى بالمؤمنين "والمؤمنون"، ثم العموم في قوله - سبحانه- "كل آمن بالله...". وفيه يقول الزركشي: "قبدأ بالإيمان بالله؛ لأنه قد يحصل بدليل العقل، والعقل سابق في الوجود على الشرع، ثم قال: "وملائكته" مراعاة لإيمان الرسول فإنه يتعلق بالملك الذي هو جبريل أولاً، ثم بالكتاب الذي نزل به جبريل، ثم بمعرفة نفسه أنه الرسول...^(٢).

كل هذا وما بعده من السياق استدعاه طلب الدعاء بالمغفرة.

وكلمة "ربنا" بما فيها من الإحسان، استدعت كل ذلك، ومن ثم كانت دلالة

الكلمة في بناء السياق.

(١) الخصائص الهيئية المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١/٣١٨.

(٢) البرهان، ٣/٣٤٥.

والسورة اصطفاء - كما قال السيوطي - وأخرج الطبراني عن عقبة بن عامر قال: "ترددوا في الآيتين من آخر سورة البقرة (آمن الرسول) إلى خاتمتها، فإن الله اصطفى بها محمداً"^(١)، حيث فيها ترتيب أركان الإيمان المعروفة واستدعاء بعضها لبعض، وكانت المحصلة (سمعنا وأطعنا).

وفيه يقول الشيخ دراز ملخصاً مجيء كلمة (ربنا) في السياق بعد طلب المغفرة ثلاث مرات: "وقالوا سمعنا وأطعنا؛ وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فتحاً لباب الأمر على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين، فليبسوا إذا أكفهم مبتهلين: ربنا.. ربنا.. ربنا.. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"^(٢).

فكما كانت أركان الإيمان والإقرار بها، والسمع والطاعة لها، توطئة لطلب المغفرة، كانت كلها وما بعدها (ربنا لا تؤاخذنا) (ربنا ولا تحملنا ...) (ربنا ولا تحملنا) كان كل هذا تمهيداً للطلب الأعلى (وانصرنا على القوم الكافرين)، ويؤخذ من هذا أن تحقيق وعد الله للمؤمنين بالنصر في قوله -سبحانه-: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧] لا بد أن يسبق بالأسباب المؤدية إليه؛ ليعرف الناس أن نجاح الحياة بنجاح الأسباب والوصول إلى المراد ليس بالأمر الهين ...

واللفظ لا يدل على مراده إلا بسياقه، وإن دل معناه مفرداً على معنى معين ككلمة (ربنا) الدالة على الشفقة والإحسان، واسم الجلالة (الله) الدال على القوة والهيمنة ... فهذه دلالات فردية لا تكون إلا جزءاً من جمال الدلالة الكبرى في بناء السياق الذي يصل بدارسه إلى الثمرة المرجوة، ويكفي أن أسوق دليلاً على ذلك من كلام الشيخ عبد القاهر وهو يقول: "اعلم أن هاهنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب، وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي

(١) الإيتقان، ١١٤/١

(٢) النبأ العظيم دار الثقافة، الدوحة، طبعة ١٩٨٥م، ٢١٠.

أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم"^(١).

فكل كلمة ركن من أركان السياق الذي نبحث فيه جمال الدلالة، كما تبين أن جمالها في ذكر لفظ ربنا في مقام الدعاء أربع مرات في خواتيم سورة البقرة، جاء الدعاء به توطئة لأهم طلبين في حياة الإنسان هما: المغفرة، والنصر الذي ختمت به السورة "وانصرنا على القوم الكافرين".

(١) دلائل الإعجاز ٥٣٩.

المبحث الثاني

دلالة نكر الحرف وحذفه في سياق واحد

=هناك كلمات يستقيم فيها جمال الدلالة بذكر حرف المعنى، وأخرى يستقيم فيها جمال الدلالة بحذف نفس الحرف، وهما في سياق واحد، مترابط يجمع بين الشيء وضده، وقد يحدث هذا الحذف في سياقين متباعدين مكاناً، هذا في سورة، وذلك في سورة أخرى.

ولنبداً بالكلمة الواحدة التي سبقتها الواو في آية، وحذفت قبلها الواو في آية أخرى، وهما في سياق واحد.

وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ الزمر: ٧١ ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ الزمر: ٧٣

الواو في قوله -تعالى-: (وفتحت) ذكرت في الحديث عن أهل الجنة، وحذفت في الحديث عن أهل النار، وهذا يدل على أن أهل الجنة ذهبوا إليها، وهي مستعدة متهيئة لهم، كما قال -تعالى-: ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ [ص: ٥٠] ففي ذكر الواو تكريم لهم، وجمال دلالة نكر الواو هنا هو التكريم، كما أن جمالها في الحديث عن أهل النار بحذف الواو (فتحت) يدل على الذلة والإهانة.

ولكن العلماء اختلفوا في هذه الواو، فقال أبو جعفر النحاس: "... الكوفيون يذهبون إلى أن الواو زائدة، وهذا خطأ عند البصريين؛ لأن الواو تفيد معنى العطف،

ولا يجوز أن تزداد، قال محمد بن يزيد: المعنى: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها سعدوا^(١).

قال المبرد: وحذف الجواب بليغ في كلام العرب، وقيل: الواو واو الحال؛ أي تجدونها عند المجيء مفتحة، وهذا هو الراجح فيها عندي.

ويعني هذا أن جواب "إذا" كله محذوف، تقديره (سعدوا) ويرى بعض العلماء: "أن الحذف هنا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان؛ أي حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير"^(٢).

وعلى هذا فحذف الواو في الحديث عن أهل النار (حتى جاءوها وفتحت أبوابها) جعل (فتحت) جواباً لـ (إذا) الشرطية، وذكرها في الحديث عن أهل الجنة (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) دل على حذف الجواب، وأنه أعلى من أن يحدد بناء على الحديث الشريف: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، وفيه -كما سبق- إهانة وذلة لأهل النار، وتكريم وتشريف لأهل الجنة ..، ولذا قال أبو السعود: (وافتحت أبوابها) وقرئ بالتشديد، وجواب إذا محذوف للإيذان بأن لهم حينئذٍ من فنون الكرامات ما لا يحِدِّقُ به نطاق العبارات، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها... (٣)

وربط الإسكافي في دلالة ذكر الواو وحذفها بما يشبه أحوال أهل الدنيا، من أن جهنم محبس شديد لا يفتح إلا لداخل أو خارج، وجهنم أهولها أمراً، وأبلغها عقاباً، لذا

(١) معاني القرآن وإعرابه للنحاس ١٧/٤ تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم الطبعة الأولى دار الكتب العلمية بيروت، وينظر: تفسير القرطبي ٢٨٥/١٥، وينظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن للنيسابوري، تحقيق: سعاد بن صالح بن سعيد، نشر جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٢/١٢٦٥.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط٣، ١٠٥.

٣ - ينظر تفسير ٢٦٤/٧ دار إحياء التراث

كان الإخبار عنها عما شوهد من أحوال الحبوس التي تضيق على محبوسها، فوقع الفتح عقيب مجيئها ليتطابق لذلك اللفظ المعنى، ولم يكن هناك حذف.

أما الجنة فلأن من فيها يتشوفون للقاء أهلها، فمن الطبيعي أن تفتح لهم الأبواب استبشاراً بقدومهم، وتطلعاً إليهم، ويكون ذلك قبل مجيئهم، فيكون حذف الجزاء وإدخال الواو على مفعل المعطوف عليه لذلك^(١).

ويتطابق مع دلالة حذف الواو في الحديث عن أهل النار، سياق التأنيب والإقرار منهم، وذلك في قول الخزنة لهم ﴿الْمَ يَايَكُم رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ...﴾ [الزمر ٧١]

كما يتطابق السياق مع ذكرها في الحديث عن أهل الجنة بالتحية وحسن الاستقبال، ودعاء الملائكة ﴿سَلِّمُ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فالسياق تواءم مع حذف الواو وذكرها حتى أبرز لكل فريق ما يستحق، فالإنذار، والوعيد لهؤلاء، والتحية والبشارة والوعد الحسن لهؤلاء... وكان الموقف موقف تسليم للفريقين، فأهل النار اعترفوا وقالوا ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وأهل الجنة فرحوا واستبشروا، وحمدوا الله - عز وجل - وقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْشَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر ٧٤] وليس أدل على ذلك من ترابط الدلالة مع السياق، وأنه هو المهيم على جمالها، وأنها لا تخرج، ولا تستقيم إلا به.

دلالة ذكر الواو وحذفها في سياقين متباعدين:

وقد تذكر الواو وتحذف في خبر واحد، ولكنه في سياقين متباعدين مكاناً، متقاربين معنى ودلالة، أحدهما في سورة البقرة، والآخر في سورة إبراهيم، والكلمة التي دخلت عليها الواو أو حذفت منها ليس لها نظير في القرآن الكريم على رسمها وهيأتها.

فأما آية البقرة فقوله تعالى:- ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، المكتبة التوفيقية، ٢٩٢.

وآية إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

بداية نلاحظ أنه في آية البقرة إخبار من الله عن الله -عز وجل- يخاطب بني إسرائيل بنعمه التي أنعم بها عليهم، كما في سابق الآيات من قوله -تعالى- بالخطاب الصريح ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ...﴾ [البقرة ٤٧]، ونجيناكم في آية البقرة كما قال البقاعي من التنجية، وهي تكرار النجاة، والنجاة: معناه رفع على النجوة، وهو المرتفع من الأرض الذي هو مخلص مما ينال من الوهاد، وخبث الأرض من هلاك بسيل ماء ونحوه^(١).

ولكنه كان في الثانية، أي: آية سورة إبراهيم خطابًا من سيدنا موسى -عليه السلام- لقومه، مذكّرًا لهم بنعمة الله عليهم، ولذلك قال: "إذ أنجاكم .." فهنا سرعة إنقاذ، أي دفعة واحدة، ولذلك ذكرها في إنجائهم من الغرق ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، والإنجاء من الإغراق لا يتحمل التمهّل، وهنا لا تكرار في النجاة كما في آية البقرة هناك، وإنما هي نجاة واحدة، ولذلك ذكرت الواو في "ويذبحون"؛ لأن الله نجاهم من هذه وتلك دفعة واحدة، أما آية البقرة فتكررت فيها أنواع النعم التي أولها أنه -سبحانه- فضلهم على العالمين، وثانيها أنه نجاهم من آل فرعون، وثالثها أنه أنجاهم وأغرق آل فرعون، وهنا ذكر الفعل بالهمزة لسرعة الإنقاذ من الغرق، ثم عفوهم عنهم بعد اتخاذهم العجل.

ومن هنا يتبين أن حذف الواو من قوله "يذبحون" في آية البقرة؛ لأنها جاءت مفسرة لقوله "يسومونكم سوء العذاب" وذكرت في آية إبراهيم على أنها نوع آخر من العذاب، والعذاب قد يشتق بعضه من بعض، فالنوع الواحد منه قد يتفرع، وقد يدمج، فهو في آية البقرة أدمج، وصار نوعًا واحدًا يوضح لفظ فيه لفظًا، أو يكون عامًا، وخاصًا، وقد يُنص على فروعه كما في آية إبراهيم؛ لأن المتحدث في آية إبراهيم

(١) نظم الدرر ١/١٢٩.

بشر، وهو موسى -عليه السلام-، ففرّج العذاب، وعدّد أنواعه، أما المتحدث في آية البقرة هو الله مباشرة، لذلك جاء الفعل نجى دون الهمزة على وزن (فعل) مما يدل على تكرارها، ومن رحمته بهم جعل التذبيح نوعاً من التسويم، والتضعيف في آية البقرة يتناسب مع عظمة النعم التي يذكرهم بها، وذكر أبو حيان أن الإنجاء من عدوهم هو أعظم النعم، وقرئ (أنجيناكم) والهمزة للتعديّة في المفعول، كالتضعيف في (نجيناكم). وذكر بعضهم أنه قرأ (أنجيتكم) فيكون الضمير موافقاً للضمير في (نعمتي)^(١).

وعلى ذلك فقوله (يذبحون) من غير الواو في آية البقرة متناسب مع التضعيف في آية البقرة (نجيناكم) ومجيء الواو (ويذبحون) في آية إبراهيم متناسب مع التعديّة بالهمزة (أنجيناكم) والتعديّة تدل على تعدد أنواع العذاب، وأن (يسومونكم) نوع من العذاب يتقدم الذبح، والفعل (سوم) نوع من التعذيب النفسي، يقول البقاعي: "سماه بذلك لأنه أشد البلاء على النفس لما فيه من استحقاقها من السوم، وهو تعذيب بتهاون بالمعذب، والسوم ما يشتد تنكر النفس له وتكرّها"^(٢)، وفي ذلك يقول الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ★★ ولا يلتئم ما جرح اللسان

أما التذبيح فعذاب جسدي ظاهر، وعلى ذلك فالتعديّة بالهمزة في آية إبراهيم تناسب ذكر الواو في قوله: "ويذبحون"، وأن العذاب أنواع تقتل النفس قبل قتل الجسد، كما أن استبقاء البناء للخدمة فيه إهانة للنفس أيضاً... والتضعيف في آية البقرة يناسبه حذف الواو من (يذبحون).

ومن ثم تخلص دلالة حذف الواو من الفعل إلى جلاله النعم، وكونها أعلى من أن تفصل؛ لأن نعم الله ظاهرة وباطنة لا تحصى ولا تعد، ولما كان البلاغ من سيدنا موسى قال (ويذبحون) على التفصيل لقوة العذاب من منظور البشر، ومضاعفته ودمجه؛ حيث كان الحديث من الله مباشرة، ويتعاون مع السياقين: التضعيف مع

(١) ينظر: البحر المحيط، دار الفكر، ١/١٨٦.

(٢) نظم الدرر ١/١٣٠.

حذف الواو في آية البقرة (نجيناكم)، والتعددية مع تعدد الأنواع (أنجيناكم) في آية إبراهيم، فكان السياق موجهاً لجمال الدلالة في النصين الكريمين.

ولكنه في سورة الأعراف استبدل يُقْتَلُونَ بِـ (يذبحون) فقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

يقول الغرناطي: "وعبر في سورة الأعراف بالقتل؛ لأنه أوجز من لفظ يذبحون لأجل التضعيف؛ إذ لفظ يذبحون أثقل لتضعيفه، وقد حصلت صفة القتل في سورة البقرة فأحرز الإيجاز في الكل، وجاء على ما يجب ويناسب، والله أعلم" (١).

وقفة تأمل:

ومن وجهة نظري أن هذا جواب غير مقنع لمن يتدبر الفرق بين مادة (ذبح) ومادة (قتل)، فالذبح يدل على الشق، يقول ابن فارس: الذال والباء والحاء أصل واحد وهو يدل على الشق، ويقول الراغب: أصل الذبح: شق حلق الحيوانات ... وقوله -تعالى- ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ على التكثر؛ أي يذبح بعضهم إثر بعض" (٢).

أما القتل، فيقول ابن فارس: القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة، ويقول الراغب: أصل القتل: إزالة الروح عن الجسد كالموت إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك، يقال: قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موت، قال -تعالى-: ﴿أَفَأَبْنِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ (٣) [آل عمران: ١٤٤].

وبناء على ذلك فإن التعبير في سورة الأعراف أشد من التعبير في سورتَي البقرة وإبراهيم، وذلك يتناسب مع مقصود كل سورة، فسورة البقرة كما سبق مقصودها: "الدلالة على أن الكتاب هدي لاتباع، والتذكير بالنعمة فيها من الردع والزجر الذي يؤدي إلى طريق الهداية، وسورة إبراهيم كما قال البقاعي: مقصودها التوحيد، وبيان

(١) ملاك التأويل ١/٢٣.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، والمفردات، (ذبح).

(٣) المصدران السابقان (قتل).

أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله؛ لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدي إليه^(١).

ومقصود سورة الأعراف: إنذار المعرضين، وتحذيرهم من القوارع التي أحلها بالماضين، وسياق النص أشار إلى جلافتهم، وعلوهم في الجحود والنكران لكل نعم الله عليهم، كما قال -سبحانه-: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَذِهِ قَوْمٌ مُتَّبِعُونَ وَمَنْ يَتَّبِعْهُمْ يَنْصَبْ إِلَهُ مَآ كَانُوا يَعْبَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]، فهذا دل على غرورهم، وجهلهم واقتدائهم بمن قبلهم في الجهل والضلال، لذلك قال (متبر) أي مفتت ومهلك، فناسب هنا أن يعبر بالقتل في التذكير بالنعم العظيمة، ولم يكتف بالذبح؛ لأن الذبح تذكير بالنعم بليوننة قول يتناسب مع الدعوة إلى طريق الهداية كما هو مقصود سورة البقرة، أو الدعوة إلى التوحيد، كما هو مقصود سورة إبراهيم، ولكن لما حدث التجاوز في القول والاعتداء فيه في سورة الأعراف عبر بالقتل الدال على الإهانة والتمزيق، وفيه كما قال ابن فارس: الإذلال الذي يتناسب مع علوهم، وطلبهم ما لا يطلب بعد بيان كل هذه النعم، التي أولها في سياق سورة الأعراف قوله -تعالى-: ﴿أَغْيَرَّا اللَّهَ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

وفيه يقول البقاعي: عدل عن الذبح -الذي هو في الأصل لمطلق الشق- إلى التعبير بالقتل؛ لأنه أدل على الإمامة وأهز؛ لأنه قد يكون على هيئة شديدة بشعة كالتقطيع والنخس والخبط وغير ذلك، مع أنه لا بد فيه من تقويت ذلك فقال (يقتلون) أي تقتيلاً كثيراً، (أبناءكم) ودل على حقيقة القتل بقوله (ويستحيون)^(٢).

وجمال الدلالة استوفى حقه من جمال السياق، وتناسبه للموقف وتغطية كل نص للهدف المنوط به، وهنا جاءت (يقتلون) من غير واو؛ لتدل على أن سوء

(١) نظم الدرر ٤/١٦٥.

(٢) السابق، ٣/١٠٦.

العذاب هنا شكلاً ومضموناً، وهكذا الحرف يذكر مع الكلمة لدلالة يشعها السياق، ويذكر مع نفس الكلمة لدلالة يجليها السياق أيضاً، ولكل مقام مقال.

ومن دلالات حذف الواو وذكرها مع كلمة واحدة في سياقين متباعدين أيضاً:

قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا أَبْابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٥٨]، حيث دخلت الواو هنا على قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا أَبْابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٥٨]، وحذفت في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا أَبْابَ سُجْدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦١].

فروق مهمة في تحقيق جمال الدلالة:

وبين الآيتين عدة فروق، فهناك "واذ قلنا" وهنا "واذ قيل" وهنا ذكرت كلمة "لهم" وليست هناك، وهنا (اسكنوا) وهناك (ادخلوا) وهنا "وكلوا منها حيث شئتم" وهناك "فكلوا منها حيث شئتم رغدا"، وهنا "وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا" وهناك "وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة"، وهنا "نغفر لكم خطيئاتكم"، وهنا "نغفر لكم خطاياكم"، هذا بالإضافة إلى ذكر الواو في آية البقرة، وحذفها من آية الأعراف، والدراسة ستجلي جمال الدلالة وسياقها في النصين يعد بيان موطن الشاهد "وسنزيد المحسنين" بالواو أو "سنزيد المحسنين" من غير واو؛ لأن لهما علاقة بالسياق كله... وكذلك الآية التي أعقبت كلا من الآيتين السابقتين بينهما اختلاف أيضاً حيث قال عقب آية البقرة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وفي الأعراف قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ فنص على (منهم).

أولاً: موطن شاهدنا الرئيس هنا هو قوله -تعالى-: "وسنزيد المحسنين" في البقرة، و"سنزيد المحسنين" في الأعراف من غير واو.

هذا الختام لكل من السياقين دليل على تعلق أول كل آية بختامها، وترابط الجميع بسياق السورة، ومقصودها.

فلما كانت بداية آية البقرة "وإذ قلنا" بضمير العظمة الذي أسند الفعل فيه إلى الذات المقدسة، استدعى ذلك عدة أمور:

أولها: ربط الدخول بالأكل ارتباط الجزاء بالشرط، فرتب الأكل على الدخول، أي إذا دخلتم فكلوا، وتوسع فيه بما يدل على عظمته وكرمه وإنعامه، فزاد هنا في آية البقرة قوله (رغدا) أي أكلاً واسعاً هنيئاً مريئاً دون مشقة، ثم قدم الدخول (سجدا) على طلب المسألة بأن يحط عنهم خطاياهم؛ لأن الدخول (سجداً) أولاً مما يتناسب مع ضمير العظمة في "قلنا" فقول الحطة بعد دخول المتواضع لعظمة "قلنا" أدعى للقبول وأرجى له ..

ثم جاء التعبير بـ"خطاياكم" بجمع الكثرة المناسب لهذه العظمة أيضاً في قوله - تعالى- "قلنا" وجاءت الواو بعد كل ذلك داخلة على الزيادة "وسنزيد المحسنين" مما يؤكد أن عظمة الله بكرمه ومغفرته لن تنقطع، وأن أجر الكريم متصل؛ أي وفوق كل ما سبق سنزيد المحسنين إحساناً، يكون سبباً في مضاعفة الأجر، ومن ثم قال: "قبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم" ولم يقل فبدل الذين ظلموا منهم، كما هو محدد في آية الأعراف، ولذلك يتجلى أن إسناد الفعل إلى ما لم يُسمَّ فاعله في آية الأعراف "وإذ قيل" كان سبباً في عدم ربط الأكل بالسكنى؛ لأنه قال هنا (اسكنوا) ولم يقل ادخلوا، كما في آية البقرة، والسكنى هنا من اللبث؛ أي (المكث) ومن ثم لم يترتب عليه الأكل، فلم يعطفه بالفاء، بل جمعه مع السكنى بالواو، والواو لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، ولم يذكر (رغداً) الدال على التوسع، وذلك للفرق بين (قلنا) هناك و(قيل) هنا، وقدم قول الحطة على الدخول (سجداً)؛ لأن قول الحطة هو هدفهم حين أسند القول لما لم يسم فاعله، وعطف الدخول بالواو حتى لا يترتب أحدهما (القول والدخول) على الآخر، ومن ثم جمع (خطيئاتكم) على القلة، ليتناسب أيضاً مع (قيل) في أول الآية، ثم قطع القول (سنزيد) بحذف الواو، وجعله خبراً مفرداً.

فالواو هناك أعطت الزيادة معنى التأكيد، وحذفها هنا جعلها مجرد قول يخلو من المبالغة الملحوظة من سياق المعنى هناك، والألفاظ خدم للمعاني، ودليل عليها كما سبق، واستدعى ذلك تحديد الظالمين فقال: (منهم) بقصرها عليهم، وسياق سورة الأعراف يقتضي هذه الزيادة (منهم)؛ لأن أول القصة في سورة الأعراف مبني على التخصيص، والتميز بدليل لفظه في الآية قبلها في قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(١) [الأعراف: ١٥٩] فذكر أن منهم من يفعل ذلك بعد أن عدد نعمه عليهم في قوله -تعالى-: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ، أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِمَّةً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فلما بدلوا نعم الله عليهم خصهم بهذا القول: (منهم)، وتركت في سورة البقرة على إطلاقها؛ تناسبًا مع العظمة في لفظ "قلنا" فقط؛ لأن سياق سورة البقرة فيه أيضًا تعدد نعم الله عليهم، وبيان ظلمهم... ومن ثم كانت بداية كل سياق حاكمة على سياق كل قول وعلى نهايته.

ويتجلى جمال الدلالة والسياق في إبراز كرم الله وسعة عفوه، وزيادة إحسانه، بناء على ترابط عناصر النص بمقصود السورة الدال على الهداية في البقرة، كما يتجلى جمال الدلالة والسياق بأن تكون الزيادة خبرًا مستأنفًا، والسياق يخلو من السعة والجود، وتقليل الخطايا التي تُغفر بناء على استهلال النص بلفظ (قيل) المبني لما لم يسم فاعله، ويأتي تحديد الظالمين (منهم) خصيصًا ليتواءم مع سياق النص كله وترابطه مع المعاني الماثورة في السورة المترابطة مع مقصدها الذي هو إنذار المعرضين - كما سبق - وهذا الإنذار يقتضي حذف الواو من (سنزيد المحسنين) أو يقتضي ذكر (منهم) كما تبين.

(١) أفدت في هذا البيان من العلامة: الخطيب الإسكافي أثر كتابه درة التنزيل وغرة التأويل، ص ٨-١٢.

وكتاب الله مملوء بهذا النوع من البيان، وتختلف الدلالات من سياق لآخر،
ولكن أكتفي بهذا؛ لأننقل إلى نوع آخر من البيان الذي يتجلى فيه جمال الدلالة في
بناء السياق.

الفصل الثالث

أثر بنية الكلمة على جمال دلالتها في السياق القرآني

المبحث الأول

دلالة حرف المبني ذكرا وحذفا

ما سبق بيانه كان في أثر حروف المعنى في بناء السياق، وارتباط جمال الدلالة به... وهنا سيكون الحديث عن حرف المبني يذكر في كلمة ويحذف من أخرى، في بناء واحد، وسيقاق متقارب، أو متباعد في سياقين من سورتين مختلفتين، والتي زيد فيها الحرف لها دلالة تتبلج من سياقها، والتي حذف منها نفس الحرف لها كذلك دلالة يفرضها سياقها، ولكثرة ذلك في القرآن الكريم سأقف فيه مع بعض شواهد لتكون دليلاً على غيرها، ومن ذلك:

١ - قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وقوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا سَلَامٌ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

وقوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

فقد جاءت (توفاهم) مرة واحدة في القرآن الكريم كله، وهي آية سورة النساء، وكانت استئناف بيان في الحديث عن الذين ظلموا أنفسهم -كما سيبتين- وجاءت (تتوفاهم) مرتين في سورة واحدة، وهي سورة النحل، واحدة عن الذين ظلموا أنفسهم، والثانية عن الطيبين، وكل واحدة منها مفسرة للجمله قبلها، الأولى تُفسر (الكافرين)، والثانية تفسر (المتقين)، كما سيأتي إن شاء الله.

فآية سورة النساء (توفاهم) بتاء واحدة "نزلت في أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام، ولم يهاجروا، وأظهروا الإيمان، وأسروا النفاق، فلما كان يوم بدر خرجوا مع المشركين إلى حرب المسلمين فقتلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقالوا لهم ما ذكر الله سبحانه" (١).

وجملة (الذين توفاهم الملائكة) اسم إن، وجملة (ظالمي أنفسهم) حال، والخبر "فأولئك مأواهم جهنم"، وتوفاهم فعل ماض، وجاء التذكير بمعنى الجمع، ويجوز أن يكون فعلاً مستقبلاً، والأصل (تتوفاهم) فحذفت إحدى التاءين (٢).

أي أن النقص الذي حدث في صنيعهم صوره اللفظ، فحذف التاء من "تتوفاهم" وإن كان الأصل نكرها فيه؛ دلالة على نقص إيمانهم؛ حيث لم يهاجروا، وظلوا في مكان لا يتمكنون من إقامة الشعائر فيه، ولذلك جاء التعبير مبنياً على التأنيب، والتوبيخ من الملائكة "فيم كنتم؟" أي لم حدث النقص في أعمالكم؟ فقالوا: كنا مستضعفين في الأرض ... أي لم نتمكن من الخروج مع المهاجرين ... لذا كان جواب الخبر: الحكم عليهم بجهنم "فأولئك" خصيصاً، ومن كان على شاكلتهم "مأواهم جهنم"؛ لتركهم الواجب، وتكثيرهم سواد الكفار ... (٣).

فحذف التاء هنا لفظاً دلّ على نقص في المعنى، واخلل في العمل، فيمكن أن يكون الفعل ماضياً، كما قال النحاس، والفراء، وابن عطية، وغيرهم من أهل العلم، ويمكن أن يكون مضارعاً حذفت إحدى تاءيه؛ للدلالة على النقص كما تبين، وعلى كونه ماضياً تكون الآية إخباراً عن الماضي، ونزلت في قوم كانت هذه حالتهم على وجه الخصوص، وإن كان مستقبلاً كانت عامة في كل من كانت هذه حالته ... هكذا عبر عنه العلماء (٤).

(١) أسباب النزول للواحي، تحقيق: ماهر الفحل، ١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس، علق على حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٣٤هـ، ١٤٢١.

وينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري، تحقيق: محمد علي البجاوي، طبعة الحلبي، ٢٨٤/١.

(٣) أفدت في بيان ذلك من نظم الدرر، ج٢/٣٠٢.

(٤) ينظر مثلاً: تفسير الرازي، ١١/١٩٥.

عموم جمال الدلالة:

ولكن الذي يُرَجَّح هنا أن الآية إخبار عن قوم معينين حدث منهم هذا، كما سبق في بيان سبب النزول، فهي خاصة، ولا يمنع أن يخاطب بها كل من كان هذا شأنه، والعرب تذكر الخاص الذي يراد به العام، والقرآن نزل بلغتهم ... فالصفة خاصة بمن نزلت فيهم الآية، ولا يمنع أن تطلق على غيرهم، ومن هنا يبرز جمال الدلالة بالحال والمقام والزمان والمكان باعتبار الأحوال، والأحداث، ومن ثم قال السعد في الحديث عن التخصيص بالصفة:

"ومنه تخصيص الشيء بالصفة؛ أي نقص شيوعه، وتقليل اشتراكه، وذلك بأن يكون الشيء مما يطلق على ما له تلك الصفة، وعلى غيره، فينقيد بالوصف؛ ليقصر على الدلالة على ما له تلك الصفة دون القسم الآخر"^(١).

أما ذكر التاء في آيتي سورة النحل مع الظالمين أنفسهم ومع الطيبين، فلم يكن الوصف (تتوفاهم) حديثاً مستأنفاً كما هو في آية سورة النساء، إنما جاءت في الآية الأولى وصفاً للكافرين في الآية قبلها، وهي قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

قال القرطبي: قوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ تَنَوَّقَهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾، هذا من صفة الكافرين، وظالمي أنفسهم نُصِبَ على الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم؛ إذ أوردوها موارد الهلاك، وقيل نزلت أيضاً فيمن نزلت فيهم آية النساء السابقة ..^(٢).

وإذا كان ذلك كذلك فيبقى السؤال هنا: لماذا زيدت التاء في قوله تعالى:

(تتوفاهم)؟

(١) شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: زكريا

عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ١/٢٦٨.

(٢) ينظر: تفسيره، ١٠/٩٨.

أرى أن المقام في هذا السياق مقام غرور، وتكبر، ومكر، فجاء ذكر التاء ليضاهي مبالغتهم المذكورة في نفي حب الله لهم في قوله -تعالى-: ﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل ٢٣].

وكذا حملهم أوزارهم كاملة في الآية بعدها ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً...﴾، والزيادة في قوله -تعالى-: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ومعلوم أن السقف لا يكون إلا من فوق ... فناسب سياق كل هذا الزيادة في (تتوفاهم) حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وجمال الدلالة ينبج من السياق جملة بدلالة الكلمة التي تهيمن على الموقف، ويبرز أثر السياق في التعبير بها مناسبة للموقف، وتقلب الأحوال.

لذلك قال (تتوفاهم) هنا مع الظالمين، وجاءت بنفس الزيادة أيضاً مع الطيبين؛ لأنها كذلك تفسير لما قبلها، ولكنها هنا ليست في الإخبار عن القلوب المنكرة المستكبرة الماكرة إنما فيما هو عكس هذا الموقف تماماً، وهو سياق الحديث عن المتقين المقربين بفضل الله وحسن عطائه، ومن ثم أنعم عليهم ووعدهم جنات عدن ... وجعلها جزاءهم، فقال -سبحانه-: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠، ٣١].

ثم يأتي موطن الشاهد ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ...﴾ فهنا أيضاً تكريم يناسب هذه الزيادة التي يتجلى منها تكرار التكريم، وتكرار التوقّي لكل من هذا حاله، ولكل من اقتدى بهم ... فتلك مبالغة تتناسب المتقين، والسابقة مبالغة تتناسب المستكبرين، ولكل سياق ما يناسبه، ويبرز جمال الدلالة من موافقتها لمنطوق السياق ومفهومه كذلك؛ ليكون البناء النصي مطابقاً وجامعاً للمشهد الذي يجليه مبنى ومعنى.

ودلالة (ظالمي أنفسهم) في الأولى جمعت كل ما يتعلق بذلك من الشرك والتهاون في أمر الله ورسوله، والركون إلى الراحة، وعدم الخروج إلى الجهاد ... أو الهجرة،

وكلمة (طيبين) جمعت معالم الخير التي اتصفوا بها من تقوى الله، والاستجابة لأمره، واجتتاب نهيه ... واجتماع الحاليتين في سورة النحل، وبزيادة واحدة يدل على براعة التقابل بين الموقفين، ويتناسب تمام التناسب مع مقصود السورة، الذي قال فيه البقاعي: الدلالة على أنه -تعالى- تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزه عن شوائب النقص" (١)

فالتمام في الفعل ناسب التمام الذي دل عليه المقصد، والنقصان في (توفاهم) دون تتوفاهم، على غير الأصل في آية سورة النساء، دل على خروجهم عن الأصل، وهذا أيضًا يتناسب مع مقصود سورة النساء.

وهو: الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه سورة آل عمران، والكتاب الذي حدثت إليه سورة البقرة لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة ... (٢).

وهم بصنيعهم خرجوا على كل ذلك، ولم يكملوا شيئًا منه، ومن ثم جاء التعبير ناقصًا تناسبًا لما هم عليه.

دلالة حذف التاء وذكرها في كلمة واحدة في سياقات متباعدة:

وعلى هذه الشاكلة من حذف التاء في كلمة، وذكرها في نظيرتها في سياقين مختلفين، مع تناسب كل كلمة لمقامها، قوله -تعالى-: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

جاءت الكلمة بتاءين في آية سورة النساء، وتاء واحدة في موقفين في القرآن الكريم:

أولهما في سورة إبراهيم في قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

(١) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢/٢١٣

(٢) السابق، ٢/٨٦.

والثانية في سورة الأحزاب في قوله -تعالى-: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۗ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

يتجلى جمال الدلالة عند زيادة التاء في قوله تعالى (ولا تبدلوا) لفظاً ومعنى، في معنيين:

أحدهما: التحذير الذي يتجلى في النهي، والتكلف على وجه العموم باستبدال الخبيث بالطيب؛ أي بترك الطيب لكم وإعطائهم الخبيث؛ لأن الباء تدخل على المتروك، ثم يأتي الخصوص بالانتفاع بأموالهم إضافة إلى أموالكم، وتذييل الآية ببيان أن هذا العمل إثم كبير، وهلاك عظيم "إنه" أي هذا الصنيع، من ترك الخبيث لهم، وأخذ الطيب لكم، والانتفاع بأموالهم إلى أموالكم، كله حوب كبير، حذر الله منه.

والثاني: زيادة التاء تدل على الزيادة المرتقبة في نفوسهم بسوء صنيعهم، مع ما استؤمنوا عليه مما يخص اليتامى، كما أنها -أي الزيادة- تتكرر في كل زمان ومكان، وتتناسب مع النداء الأعظم الذي استهلته به السورة على وجه العموم، والحث على الالتزام بالأمر الذي هياً له النداء وتكراره، ولفت النظر إلى ما ختمت به الآية من تهديد ووعيد يتجلى في قوله -تعالى- في ختام الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۗ﴾ [النساء ١]

كما أن كلمة (بث) في الآية الأولى أيضاً ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ تتناسب معها هذه الزيادة، فالسياق يشد بعضه بعضاً، ومراحله من بداية السورة تصب في هذه الزيادة، وهذه الزيادة تتوافق مع توالي التحذير وانتقاله من العموم ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ إلى الخصوص في التحذير الثاني ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾



أما آية الأحزاب ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ﴾ فلا تصلح فيها الزيادة؛ لأنها خطاب خاص للرسول -صلى الله عليه وسلم- في أمر معلوم محدد؛ ليس فيه زيادة واقعة، أو

متجددة بتجدد ما يحدث كما في أموال اليتامى ظلماً هناك؛ لذلك قال -سبحانه-: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ على وجه الخصوص، وإن كان أصلها ﴿تبدل﴾ إلا أن البناء اللفظي يتناسب مع الهدف المعنوي.

وكذلك الشأن في آية سورة إبراهيم ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ...﴾ ففيه قمة التحديد، أرض تغاير أرضاً.. دون الحاجة إلى زيادة معلومة؛ لأن الأرض الجديدة في علم الغيب، ولكنها أرض بأرض، وهذا ظاهر اللفظ يحكم به على ظاهر المعنى.

تلك رؤيتي لجمال الدلالة في الفرق بين زيادة التاء وحذفها، ويؤيده ما ذكره الزمخشري من أن (تبدلوا) بمعنى تستبدلوا؛ أي: ولا تستبدلوا الحرام -وهو مال اليتامى- بالحلال -وهو مالكم- وما أبيع لكم من المكاسب، ورزق الله المبتوث في الأرض فتأكلوه مكانه... والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز... وقيل هو أن يعطي رديئاً ويأخذ جيداً... (١).

وهذا يدل على أن هذا الصنيع طلب يخالف مبدأ السورة الذي استهلته به وهو ما كمن في النداء والأمر ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِيكُمْ...﴾ من تكاليف تحفظ لكل ذي حق حقه، لذلك نهى عن استبدال الخبيث بالطيب على وجه العموم، ثم خصص النهي عن أكل أموالهم إلى أموالكم؛ أي إضافة هذه إلى تلك؛ مما يؤدي إلى أكل أموالهم بالباطل، وكل ما ذكره العلماء بعد ذلك تفسير وتفصيل لهذا.

أما الآيتين الأخريين (تبدل) في سورتى: إبراهيم، والأحزاب، بتاء واحدة، فليس في سياقهما هذا التكلف أو الاعتداء، ومع ذلك لكل منهما مقامها، الذي تتأزر فيه مع سياقها، وقال الزمخشري في آية سورة إبراهيم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، والتبديل: التغيير، والمعنى: تُبَدَّلُ هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة، وكذلك السماوات، وقيل تبدل أوصاف كل منهما... وقيل يخلق بدلها... (٢).

(١) ينظر: الكشاف، ١/٤٩٤.

(٢) ينظر: السابق ٢/٣٨٤.

ومع كل هذه التفسيرات لكلمة (تبدل) نجد أنها خالية من التكلف والاعتداء وتجاوز الحد، وطمس التكاليف الذي رأيناه في آية سورة النساء ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ وذكر الخبيث والطيب هناك قرينة على التكلف والاعتداء، وتجاوز الحدود، وطمس التكاليف التي نصت عليها المعاني في فاتحة السورة.

كما أن التبديل هنا أسند للأرض والسموات ﴿تَبَدَّلُ الْأَرْضُ...﴾ والأرض مأمورة مسخرة، كما قال ربنا -سبحانه-: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ بخلاف آية النساء ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا﴾ فأسند الفعل إلى عاقل مكلف...

أما آية الأحزاب ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فالتبديل هنا بمعنى التغير أيضًا، ولا يمكن أن يحدث فيه تكلف أو اعتداء أو تجاوز؛ لأن المخاطب هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان ذلك ردًا على ما كان يحدث في الجاهلية من أمور البذل التي لا تليق بمقام النبوة، وليكون ذلك دليلًا على تحريك هذه العادة الجاهلية، ودليلاً قبل ذلك على مكانة نساء النبي بعد أن خيرهن فاخترن الله ورسوله... وفي ذلك يقول الرازي: لما لم يوجب الله على نبيه القسم، وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله، ذكر لهن ما جازهن به من تحريم غيرهن على النبي -عليه السلام- ومنعه من طلاقهن بقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾^(١).

فالحرف الواحد يذكر في الكلمة فيعطي دلالة من السياق كله، والنص الذي هو جزء من كيان هذا السياق، ومرتبطة به، ومتألف معه، غير التي تعطيها نفس الكلمة بحذف هذا الحرف منها، ولكل مقام مقال.

الفرق بين دلالة الفعل (ولا تفرقوا) والفعل (ولا تتفرقوا):

ومن شواهد هذا النوع من الكلام قوله -تعالى-: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ

(١) تفسيره، ج ٢٥/٢٢٣.

عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ آل عمران:

فهنا جاء الفعل (تفرقوا) بتاء واحدة، ولكنه جاء في آية سورة الشورى بتاءين (ولا تتفرقوا)، قال -تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فالنهي في السياقين واحد، وهو نهي عن التفرق، ولكنه في آية آل عمران بتاء واحدة (ولا تفرقوا) وفي آية الشورى بتاءين (ولا تتفرقوا) وهذا هو الأصل؛ لأن معنى (ولا تفرقوا) ولا تتفرقوا، فلماذا جاءت الأولى بهذا الدمج؟

والجواب عن ذلك: أن سياق آية آل عمران قائم على الدعوة إلى البقاء على الأصل الذي جاء به الدين الإسلامي، وحذف التاء يدل على الترابط الذي نص عليه السياق بالاستمرار على إقامة معالم هذا الدين، والسياق السابق لخصه الأمر الأول في هذه الآية، وجمع معالمه حين قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا...﴾، وهذه دعوة إلى قمة الترابط لذلك قال (جميعاً) ثم جاء النهي الذي يعضد ذلك ببناء الفعل على الترابط لا التفكك فقال ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وبناء الفعل على هذه الشاكلة تقوية للأمر السابق ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ وتوطئة للأمر الذي جاء بعده ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾، والنهي حينما يأتي بين أمرين مثل هذا، لا بد أن يكون مطابقاً لهما، وأن تكون دلالاته مستمدة من سياقه.

وبناء عليه فجمال الدلالة هنا هو تأكيد الدعوة إلى الترابط، وتفعيل مبادئ الدين الذي أقاموه، ووضحه السياق السابق في قوله -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فكان هذا الأمر وذاك النهي تهيئة للاعتصام بحبل الله، وذلك كله يستدعي أن يكون الفعل المنهي عنه مبنياً على التجمع المراد،

ومناسبًا للتذكير بنعمة التأليف التي أحدثها الله في قلوبهم، ولو جاء الفعل على الأصل بتاءين لكان منافياً لفظاً ومعنى، مع دلالة هذا السياق قبله وبعده ...

ولذلك قال الزمخشري خلال شرحه ذلك: "أو ولا تُحَدِّثُوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع، والألفة التي أنتم عليها، مما يأباه جامعكم، والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق، والتمسك بالإسلام..."^(١).

فجمال الدلالة بحذف التاء يتناسب مع الأمر بالاعتصام، والتذكير بالنعمة التي أعلاها الألفة، وما يترتب عليها من نعم، وسياق الاجتماع يستدعي اجتماع التاءين، ودمجهما لفظاً يعبر عن غزارة المعنى ..

أما آية الشورى، فلم يكن الدين مُقَامًا أصلاً، بل كانوا متفرقين ومختلفين، والدليل على ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَفَوْا...﴾ [يوسف: ١٩]، وقال -تعالى-: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ [المائدة: ٤٨].

فهذه مجموعة أمم، من نوح إلى محمد -عليهما السلام- وذكر التاءين في بناء اللفظ يدل على هذا التعدد، وقوله -تعالى-: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ تفسير لما شرعه -سبحانه- وبيان له .. وقوله ﴿وَلَا تُنْفِرُوا﴾ بتاءين دلالة على تعدد الأمم، وصعوبة ما شرعه الله على بعضهم؛ لذلك وضح هذه الصعوبة بقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى ١٣]؛ أي عظم عليهم هذا الاتحاد على إقامة الدين الذي أراده الله -سبحانه-، ففك الإدغام هنا يدل على تعدد الأمم، ولذلك قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ بضمير الغيبة، ثم انتقل السياق منها إلى خطاب الحاضر، فقال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، وفيه يقول الرازي: "وبالجملة، فالمقصود من الآية أنه يقال: شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته..."^(٢).

(١) الكشاف، ٤٥١/١.

(٢) تفسيره، ج ٢٧/١٥٧.

وهذا هو الاصطفاء الذي اصطفى الله به أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- في قوله عقب ذلك ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى ١٣]، وبناء عليه تجتمع دلالة الفعل في الدعوة إلى إقامة الدين على الوجه الذي تتحد به الشرائع كلها، وأن الدين واحد من لدن آدم إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهذه التاء دالة على هذا التعدد، والنهي عن التفرق، وفي باطنه الدعوة إلى الترابط، بخلاف آية آل عمران، فكان الدين قائماً جلياً، ولكن النهي عن التفرق كان معضداً للأمر بالاعتصام، وبناء عليه جاء الفعل مدموجاً بتاء واحدة ليحقق الدعوة إلى الترابط والتآلف الذي يكون سببه الاعتصام بحبل الله ... فما جاء بتاء واحدة كان لأمة واحدة؛ لتجتمع على ما أمر الله به، وما جاء بتاءين كان لمجموعة الأمم التي أوصاها الله بإقامة دينه، والابتعاد عن التفرق، وإن كان ذلك كبيراً على المشركين بالله، وطريق نجات لمن اجتباهم الله به.

جمال الدلالة في حذف نون الجمع وذكرها على التوازي:

وكذلك جاء الخبر على التوازي بين كلمتين، إذا ذكرت (إننا) بنونين جاءت (تدعوننا) بنون واحدة، وإذا ذكرت (إننا) بنون واحدة جاءت (تدعوننا) بنونين، ولكل سياق ما يناسبه، وجمال الدلالة والسياق يتجليان في كل نص بما يحقق المراد.

ولنبداً بذكر الشاهدين، الأول في قوله -تعالى- في الحديث عن سيدنا صالح -عليه السلام-: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكَّتْ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

والثاني في الإخبار عن حديث موسى -عليه السلام- مع قومه، قال -تعالى-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٨-٩].

لو تأملنا نسيج السياقين لوجدنا أن آية سورة هود كانت في مخاطبة قوم صالح - عليه السلام- يذكرونه بمكانته السابقة عندهم، قبل أن يكلف بالدعوة إلى الله ﴿قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود ٦٢]؛ أي كان لك بيننا شأن عظيم، ثم يتوعدونه وينكرون عليه نهيه لهم عن عبادة ما يعبدون من دون الله .. ﴿أَتَهْتَأْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ [هود ٦٢] يستعظمون عليه ذلك وينكرونه إنكارًا مشوبًا بالتهديد والوعيد، ولما كان الشأن بهذه القوة منه في حرصه عليهم، وهذه القوة منهم بهذا الإنكار والوعيد .. استدعى السياق أن يؤكد الضمير بما يدل على جمعهم ويطابق قولهم، ويناسب قوة المعنى في ضمائرهم، ويتآزر مع ما جاء حالاً منه بناءً ومعنى (أتهتأنا) التي هي جملة مكتملة الأركان مكونة من فعل وفاعل ومفعول، ومعبرة عن دواخلهم بقوة، وهي "جملة مستأنفة في حيز القول ... وجملة "وإننا لفي شك" حالية من مفعول "تهتأنا" في محل نصب ..."^(١)، وعلى ذلك جاءت صياغة الضمير بهذا التأكيد "وإننا" لتكون دلالاته منبثقة من قوة السياق والمقام، وغير نافرة منه، أو ضعيفة عنه ...

ولما كان نبي الله صالح هو الداعي لهم وحده جاء الفعل (تدعوننا) على الأصل بنون واحدة، ولا يستقيم هنا تدعوننا كما في شاهد سورة إبراهيم.

وفي ذلك يقول الكرمانى: وتدعوننا خطاب مفرد، وفي إبراهيم لما وقع بعده - أي بعد إنا- تدعوننا بنونين؛ لأنه خطاب جمع حذف منه النون؛ استثنائاً للجمع بين النونات، ولأن في إبراهيم اقترن بضمير قد غير ما قبله بحذف الحركة، وهو الضمير المرفوع في قوله (كفرنا) فغير ما قبله في (إننا) بحذف النون.

وفي هود اقترن بضمير لم يغير ما قبله، وهو الضمير المنصوب، والضمير المجرور في قوله (فيينا مرجوًّا قبل هذا أتهتأنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) فصح كما صح^(٢).

(١) مشكل إعراب القرآن، أ. د. محيد الخراط، ص ٢٢٨.

(٢) أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الاعتصام بالقاهرة، ط ٢، ١٣٩٦، ص ١٠٨.

وبناء على ذلك جاء الضمير مؤكداً ومجموعاً في آية سورة هود؛ ليتناسب مع سياقه، وجاءت (تدعوننا) بنون واحدة؛ لأن الداعي واحد، ولا يصلح فيها غير ذلك.

أما ما جاء في سورة إبراهيم فكان خطاباً من سيدنا موسى -عليه السلام- مقررًا لهم بمعرفة أخبار من سبقوهم، ومنكرًا عليهم تجاهلهم ذلك، وقد عرفوه، ثم عدّد هؤلاء الأقسام: نوح، وعاد، وثمود ... الذين كانوا عبرة، وذاعت، وشاعت أخبارهم بما حدث لهم؛ جزاء على صنيعهم لما جاءتهم رسلهم، ولقد لخص الحق هذا الصنيع في قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم ٩] "أي أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به)"^(١).

فقولهم "إنا" جاء عطفًا على قولهم "إنا كفرنا"، وفيه يقول الإسكافي: "ثم قوله - تعالى-: (إنا كفرنا) حُذفت منه النون تشبيهاً للضمير بعدها بالضمير المرفوع بعد الفعل، فكما أن الفعل يلحقه حذف حركة عند اتصال هذا الضمير به، وكان الضمير يحذف من أن النون حذفت ليقضي لفظها عند اتصاله بما هو كالضمير المرفوع لفظًا ومعنى وموقعًا؛ حملًا على ما تقدم كما يكون عليه إذا لم يواصله، وجاءت (تدعوننا) على مقتضى الإعراب الواجب لها بنونين"^(٢).

نظرة وتأمل:

أي أن مجيء (إنا) بنون واحدة لمشاكله السياق، ولكن -من وجهة نظري- لا يكفي هذا؛ لأن قوله (إنا كفرنا ..) بنون واحدة جاءت ردًا على موسى بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم ٨]؛ أي لا يضير الله في شيء، وكذلك ردًا -أيضًا- على إنكاره عليهم معرفة أخبار الأقسام السابقين، ومع ذلك أنكروا، وأشركوا .. ثم تأتي (إنا كفرنا) و (إنا لفي شك) بنون واحدة لتؤكد أن تراكم الغيظ والضيق المسيطر على قلوبهم، كان من جراء من هذه الدعوة التي جاء بها موسى، فهي تصور دواخلهم بما هو مكبوت فيها، ولكن جاءت (تدعوننا) بنونين؛ لأنه خطاب

(١) روح المعاني للألوسي، ١٣/١٩٢.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل، ١٦٤.

للرسل الذين جاءوا للأمم السابقة، وكانت دعوة موسى امتدادًا لدعوتهم .. فهنا مبالغة عظيمة تستدعي النونين (تدعوننا) كأنهم لم ينكروا دعوة موسى فقط، بل دعوة كل من سبق موسى؛ تأييدًا منهم للأمم السابقة فيما صنعوا وتحديًا للأنبياء فيما حدث لأقوامهم، دون مبالاة بكل ذلك.

ومن هذا يتجلى جمال الدلالة في آية سورة هود بخيبة ظنهم جميعًا على التفصيل فيما كانوا يرجونه من سيدنا صالح -عليه السلام-، لذلك قالوا: (وإننا) ولكن قالوا (تدعوننا) لأنه كان واحدًا، وهم على اختلاف منازعهم كانوا يرجون منه غير ذلك.

كما يتجلى في آية سورة إبراهيم بإفراد الضمير (إننا) تصويرًا لتراكم الغيظ، والكمد مما يدعوهم إليه موسى -عليه السلام-، ومما يذكرهم به من حال الأقسام السابقين الذين أنكروا رسالة رسلهم، وجاءت (تدعوننا) مناسبة لعموم الرسل، ثم يأتي السياق بعدها يعضد ذلك في قوله -تعالى-: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ ...﴾ [إبراهيم: ١٠].

فكل سياق يجلي دلالة التعبير، ويربط على قلوب الألفاظ لتبقى المعاني فيها معبرة عن دواخل أصحابها ... والألفاظ صورة للمعاني وتعبير عن الكوامن، وتلك جمال الدلالة والسياق في بناء كل من المعنيين السابقين.

دلالة الحذف والذكر في الفرق بين قول الحواريين والوحي إليهم:

من شواهد حذف نون الجمع وذكرها يتجلى الفرق بين سؤال رسول، ووحى إليه، وذلك في كلام حوارى عيسى -عليه السلام- في نصين متقاربين، أحدهما في سورة آل عمران وهو قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، والثاني في سورة المائدة، ولكنه خطاب من رب العالمين، قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فمع سؤال عيسى -عليه السلام- قالوا: (واشهد بأننا مسلمون)، ومع إخبار الحق -سبحانه- قالوا: (وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٠﴾)؛ لأنهم في الأولى أقرروا الإيمان بالله، واتخذوا عيسى شاهداً على ذلك، فقالوا: آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون، آثروا الإيجاز، الذي يتطابق مع مجرد الإحساس الذي أحسه عيسى منهم، وهذا خطاب بشر لبشر.

أما آية المائدة فالله هو الذي أوحى إليهم -ولو كان على لسان عيسى- فهو المتكلم هنا، بادئاً بالإيمان به -سبحانه- ثم برسوله (ءَامِنُوا بِرِسُولِي)، فقالوا -جواباً للحق سبحانه- (ءَامِنَّا) واتخذوا الله شهيداً (وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾) فجاء الكلام على الأصل مدعوماً بالقوة التي تتناسب مع دعوة الحق ووحيه ... وهذا فرق بين حوار في حضرة الرسول، وحوار في حضرة الذات الإلهية.

ويعلل الكرمانى القول بـ(أنا) في المائدة جاء على الأصل، وأن ما في آل عمران بـ(أنا) تكرر لكلامهم، فجاز فيه التخفيف؛ لأن التخفيف فرع، والتكرار فرع، والفرع بالفرع أولى^(١)، وهو ما شرحه الإسكافي^(٢).

نظرة وتأمل:

ولست ممن يقتنع بهذا التعليل الذي يراعي ظاهر اللغة، ويترك بواطن الكلمات التي تصور دواخل النفوس وتعبر عن أسرار الشعور، فالكلام هنا جاء على أصله؛ لأن الوحي (بمعنى الإلهام هنا) صدر من أصل من أنزل وأرسل، ثم قدم الإيمان بالله لأنه هو الأصل أيضاً، وهو الذي يهدي إلى الحق، ثم قال: (وبرسولي) إيجازاً في التعبير؛ لأن التقدير: وآمنوا برسولي، وهذا الإيجاز يفيد بأن الإيمان بالرسول جزء الإيمان بالله، ولا يكفي أحدهما عن الآخر؛ لأن الواو لمطلق الجمع ... ولهذا ونحوه ﴿قَالُوا ءَامِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾ بالتعبير بمزيد من البيان والتأكيد، كما أن الحديث هنا في مقام تعديد نعمه -سبحانه-، وهذا الوحي منها، فقد سبق أن الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ

(١) ينظر: أسرار التكرار ٥٠

(٢) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل ٥٢.

الْقُدْسِ ... ﴿ [المائدة ١١٠] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ... ﴾، فمقام تعديد النعم من المنعم ذاته يحتاج إلى أن يكون القول مؤكداً، ومعبراً به على أصله وتمامه (بأننا مسلمون)؛ لأنه إحدى نعم الله على عيسى -عليه السلام- أما آية سورة آل عمران ﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾ فسياقها يتحدث عن نعم الله على (مريم) من أول قوله - تعالى -: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥-٥١] إلى أن تولى عيسى مهمة الدعوة فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾، فلما استشعر منهم الكفر ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾، وقولهم (بأننا) هنا دون (بأننا)؛ لأن الحديث عن الله وحده في السؤال والجواب، فكان هو الركيزة العليا، بخلاف آية المائدة (آمنوا بي وبرسولي) وكلما اشتد المبنى اشتد المعنى المعبر باللفظ عنه، وكل شاهد في القرآن له في موقعه دلالة، ولسياقه جمال يناسبه، كما تبين.

دلالة حذف الحرف وذكره في خطاب واحد ومقام مختلف:

ومن أبرز الشواهد الدالة على ذلك: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خُوطب بخطاب واحد في موقفين مختلفين، ونص الخطابين واحد عدا حرف واحد في كلمة ذكر فيها في موطن، وحذف منها من الآخر، مع اختلاف السياق قبل وبعد كل نص منهما.

والموقفان هما قوله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله -تعالى- في سورة النمل: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠]، ففي الأولى "ولا تك" وفي الثانية "ولا تكن" لماذا؟

بيان ذلك: من خلال سياق النص في سورة النحل، نلاحظ أن الخطاب بدأ عاماً تسلياً للرسول -صلى الله عليه وسلم- وتوجيهاً لكل من آمن، ثم خُصص بعد ذلك

برسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه جاء في واقعة معينة حدثت، وتكلم فيها الرسول بالوعيد.

فكان العموم في قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إقامة للعدل في الأرض، وعدم المبالغة في العقوبة؛ لذا جاء التعبير بلفظ المشاكلة، وفيه دعوة للالتزام بأن تكون المجازاة على قدر الحدث... ثم انتقل السياق من هذا العموم إلى الخصوص، وكأن هذا العموم كان توطئة لهذا الخصوص تدريجاً وترقياً في بيان المطلوب والمشروع، فقال -تعالى- محدداً الخطاب لمن توعده ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وبدأ بالعموم لأن الرسول لم يكن فاعلاً وحده، بل كان معه من تآزر معه من القوم، والخصوص هنا يتجلى في سبب نزول الآية الذي يتلخص في أن المشركين يوم أحد مثلوا بمن قُتل من المسلمين، وفعلوا بحمزة ما لم يفعل، مما لم ير الرسول -صلى الله عليه وسلم- مثله، فلما رآه توعده بقوله: "لأمثلن بسبعين منهم"، فنزلت خواتيم سورة النحل... (١).

وبناء عليه فقطع الحرف من الكلمة (ولا تك) في هذا السياق، يدل على خصوص الحدث وعدم امتداده، فهو حدث مقطوع، كما يدل على الحث على التصبر وقطع اليأس والضيق؛ أي الغم الذي أصاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الحالة، بل حذف الضيق والحزن من نفسه، فنهى الله عنهما تسلياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ...﴾.

وفيه معنى التخفيف الذي ذكره بعض العلماء والمفسرين؛ حيث قالوا: قرئ ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾؛ أي ولا يضيق صدرك من مكربهم، والضيق تخفيف الضيق، أي في أمر ضيق... (٢).

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي ١٦١.

(٢) الكشف ٤٣٥/٢.

وقال البقاعي ... قال (وتك) بحذف النون - وحذفه تخفيفاً أيضاً يتناسب مع التسلية - إشارة إلى ضيق الحالة عن أدنى إطالة .. (١)

وذكر الرازي الفائدة من ذكر لفظ الضيق بهذا التركيب، فقال: "هذا من الكلام المقلوب؛ لأن الضيق صفة، والصفة تكون حاصلة في الموصوف، ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة، فكان المعنى: فلا يكن الضيق فيك، إلا أن الفائدة في قوله (ولا تك في ضيق) هو أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب، وصار كالقميص المحيط به، فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى، والله أعلم" (٢).

أما آية سورة الزمل فجاء فيها الفعل مكتملاً (ولا تكن)؛ لأنه حدث تاريخي مكتمل، والدعوة إلى السير، والتأمل، والاعتبار للحث على الامتثال لأمر الله ورسوله، والالتزام بهما، حتى لا تكون العاقبة كما حدث للأمم الماضية سوى صنيعهم، فالمقام هنا وإن كان مقام تسلية أيضاً إلا أنه ليس كسابقه في واقعة محددة، بل هنا دعوة للسير والنظر، دعوة كاملة، ولكن جاء التعبير واحداً لاشتراك الفريقين هنا وهناك في عدم الإيمان، وحرص النبي على إيمانهم، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، تسلية له - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والضيق في آية سورة النحل مصدره معروف حيث كان من صنيعهم السابق في التمثيل بالقتلى، ومنهم حمزة، ومكرهم الممتد الذي لم يتوقف بعد، ولكن الضيق هنا كان بسبب كيدهم للنبي والمؤمنين وتديبيرهم له.

وخير من عبر عنه البقاعي في قوله: "ولما كانوا لا يقتصرون على التكذيب، بل يبغون للمؤمنين الغوائل وينصبون الحبائل، قال: (ولا تكن) مثبتاً للنون؛ لأنه في سياق الإخبار عن عنادهم واستهزائهم، مع كفايته - سبحانه وتعالى - لمكرهم بما أعد لهم من سوء العذاب في الدارين، فلا مقتضى للتأني في الإيجاز والإبلاغ في نفي الضيق ..." (٣).

(١) نظم الدرر ٣٢٦/٤.

(٢) تفسيره ١٤٤/٢٠.

(٣) نظم الدرر، ٤٤٧/٥.

ومن ثم يتجلى جمال دلالة حذف الحرف هنا؛ لحذف الضيق والحزن من النفس، ولأن الموضوع واحد محدد، كما يتجلى جمال دلالة ذكر الحرف في آية سورة النمل لعدم وجود ما يقتضي حذفه؛ حيث الموضوع سير في الأرض ونظر باعتبار، وهذا ممتد بامتداد الزمان، فمن ثم اكتمل الفعل ليتواءم مع السياق، كما تم حذف نونه هناك مطابقة للحال والمقام.

وكثر في القرآن الكريم هذا النوع من البيان، بحذف النون، وذكرها من الفعل: يك، ويكن، وتك، وتكن، وأك، وأكن.

وكل نوع من البيان في موطنه بليغ مطابق للسياق والمقام، ولكل شاهد لالة تتطرق من نص البناء وسياقه، وتتطابق مع المقام الذي ورد فيه، والمقصود العام للسورة هو الذي يجمع معالمها وتتطرق منه أغراضها ...

وقد سبق بيان دلالة الحذف في قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمَكُرُونَ﴾، ولو تأملنا على هذه الشاكلة شواهد أخرى سنجد اختلاف السياق له أثر في البناء المعبر عن المعنى المراد.

فلو تدبرنا الشواهد التي حذفت منها النون مثلاً وصار الفعل "تك" سواء سبقته "إن" أو "لا" أو "لم" وجدنا أن الحذف فيها كلها يُشعر بنفي شيء، وإثبات آخر بأحد طريقي الكلام: الخبر أو الإنشاء، بالإضافة إلى دلالة تنبثق من هذا يوحي بها النص.

دلالة حذف النون في مقام القطع والتضعيف:

قد يكون الحذف في مقام قطع شيء، وتضعيف آخر، من باب الحث، والإلهاب للبحث عن الحق والسعي في الخير، كأن يأتي الشاهد في سياق الأمر بالعبادة، والإحسان، والتحذير من البخل، والترغيب في الإنفاق، ومن ذلك قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] جاء هذه الآية في سياق الأمر بعبادة الله، وعدم الإشراك به تأكيداً لوحديته، والإحسان إلى الوالدين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم... فجاء الكلام

هنا كناية عن امتناع الظلم عن الله، وقطعه عنه كلية، كما أنه كناية عن أن الإنسان إذا لاحت الحسنة في نفسه، حتى لو لم يعملها، يؤجر عليها، فإن عملها ضوعف له أجرها، فقوله -سبحانه- (وإن تك حسنة) ترغيب في أقل ما يقال عنه حسنة.

فالحذف هنا معبر عن أمرين، أحدهما: قطع الظلم عن الله تمامًا، والثاني: مضاعفة أصغر ما يقال له حسنة، والحديث الشريف يوضح ذلك: "من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة..."، والتعبير بأصغر شيء وهو مثقال الذرة، في نفي الظلم عن الله، يقتضي مضاعفة الحسنة، وإن كانت أيضًا مثقال ذرة.

والكلام هنا جلي عن المقدار، والمقدار المتحدث عنه ضئيل جدًا، وهذا يناسبه حذف النون.

ويقول البقاعي: "ولما ذكر التخلي من الظلم، أتبعه التحلي بالفضل، فقال عاطفًا على ما تقديره: فإن تك الذرة سيئة لم يزد عليها، ولا يجزي بها إلا مثلها، ولما كان تشوف السامع إلى ذلك عظيمًا حذف منه النون بعد حذف المعطوف عليه تقريبًا لمرامه، فقال: (تك) أي مثقال الذرة، وأنه لإضافته إلى مؤنث، وتحقيرًا له ليفهم تضعيف ما فوقه من باب الأولى"^(١).

فإذا كانت سورة النساء التي فيها هذا الشاهد -كما سبق- مقصودها الاجتماع على التوحيد فإن هذا الترغيب من ملائمتها المقصد؛ حيث يرغب الله في الحسنة ولو كانت مثقال ذرة، فإن الله لا يبغضها، بل يضاعفها ويزيد عليها من لدنه أجرًا عظيمًا. فخلاصة القول: إن حذف النون فيه دلالة على أن الله يكافئ على أصغر الأعمال، ولذلك يقول الزركشي: "حذفت النون تنبيهًا على أنها وإن كانت صغيرة المقدار، حقيرة في الاعتبار، فإن إليه ترتيبها وتضاعفها، ومثله ﴿إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦] وكذلك: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ [غافر: ٥٠]، جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه، وهو الحس إلى العقل إلى الذكر، ورقوهم من أخفض رتبة، وهي الجهل، إلى أرفع درجة في العلم، وهي اليقين،

(١) نظم الدرر، ٢/٢٥٨.

وهذا بخلاف قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَالِي عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه وتم، وكذلك ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] هذا قد تم كونه، وكذلك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: ١] هذا قد تم كونهم غير منفكين إلى تلك الغاية المجعولة لهم، وهي مجيء البينة، وكذلك: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمن: ٨٥] انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله، فانتهى أصله" (١).

نقلت النص كله لأنه جمع معالم الموضوعات، حذفاً للحرف، وذكر له، وأتى بشواهد من هنا وهناك، وبين أن دلالة الحذف ترجع إلى القلة، والصغر، ودلالة الذكر ترجع إلى التمام والكمال، فالبناء النصي يوحى بجمال الدلالة بإيجاز، وهذا كله يتطابق مع سياق كل قول.

دلالة حذف الحرف في إزالة الشك وإثبات الحق:

نجد جمال الدلالة في ذلك عند التأمل في قوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ. فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٧]، وقوله -تعالى- بعدها باثنتين وتسعين آية في نفس سورة ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].
فالمقصود بحذف الحرف هنا إزالة أدنى شك في أن النار موعد من كفر، وإزالة أدنى شك في الحق الذي جاء به من عند الله، وفي هذا تثبيت للنبي -صلى الله عليه وسلم- وتجلية لمقصود السورة الذي يسري في كل أنفاسها، وأن حركة معناها بادية في جميع آياتها، ومقصودها كما قال البقاعي: "وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتي البشارة والندارة المقتضي لوضع كل شيء في أتم محاله، وإنفاذه مهما أريد، الموجب للقدرة على شيء" (٢).

(١) البرهان، ٤٠٨/١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث.

(٢) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ١٧٠/٢.

فعندما نرى حذف النون هنا نعرف أن هذا من الأحكام بوضع كل شيء موضعه الأخص الأشكل به، الأتم الأكمل له، وكذلك الشأن في الآية الثانية من نفس السورة ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَهُؤُلَاءِ...﴾.

أي اقطع أدنى شك في هذا، ولذلك ختمها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُؤْفُوهُمُ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾، ولو تأملنا سياق الآية الأولى رقم ١٧، لوجدنا أن قبلها ما يعضد هذا الحذف تناسبًا مع ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- من ضيق صدره بقولهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] كأن الحق يثبتته على ما نزل عليه، ويخبره بعدم ضيق صدره من كلامهم، بأدنى ما يكون الضيق، من قولهم ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا...﴾ أو قولهم بعد ذلك (افتراه...).

فكان الحذف دالًا دلالة قاطعة على دقة المعنى التي تصور حالة النفس، وتمحو منها أدنى مرية، ويستمر السياق بعد ذلك يحكي عن قوم نوح، وجدالهم، ويتكرر هناك قولهم بالافتراء ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ...﴾ [هود ٣٥].

وكذلك شأن هود مع قومه، وصالح مع قومه، ولوط، ومدين ... وهكذا كان السياق كله تسليية، وتثبيتًا للرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم يقول له -سبحانه-: ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَهُؤُلَاءِ...﴾ [هود: ١٠٩]. فكان الحذف هنا لتتقية النفس من أدنى تأثير بقولهم، واتهامهم، وتكذيبهم.

ويعلق الإسكافي على الحالتين الذكر (تكن) والحذف (تك) ببعض الشواهد، التي منها شاهدنا هذا، فيقول في بيان قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِٗ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

أتى بالنون في (تكن) وقال في سورة هود في موضعين (فلا تك) وكان حق ذلك أن يذكر هناك بغير نون ... ثم تكلم عن حركة النون وسكونها في (تكن) فقال: لما أشبهت بسكونها حروف المد واللين، ثم كثرت استجيز حذفها للسببين جميعًا، فإن

تحركت خرجت عن شبهها (أي بحروف المد واللين) نحو: لم يكن الرجل منطلقاً ... فلا يجوز لم يك الرجل.

فأما إذا سكنت وتحرك ما بعدها فلك أن تأتي بها، ولك أن تحذفها، كما جاء في الموضعين، والمختار فيها الحذف إذا تحرك ما بعدها متى تعلقت بالجمل الكثيرة، ويختار إثباتها إذا تعلقت بالقليلة؛ لأن الكثرة أحد سببي جواز حذفها ... فالمواضع التي حذفت فيها تقدمها جمل كثيرة، أما قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةِ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٣] لم يتقدمه ما ينقله من الجمل^(١).

اعتراض وتأمل:

لو تأملنا الشواهد التي جاءت بإثبات النون لوجدنا عكس ما يقوله الخطيب الإسكافي، فمثلاً ورد (لم تكن) بإثبات النون في آيات كثيرة مبنية على جمل كثيرة، وكل جملة منها تسلم للتي بعدها، والقرآن -كما نعلم- مترابط، وكل آية فيه تهيء للتي بعدها، فمثلاً قوله -تعالى-: ﴿وَلَيْنَ أَصْبَاحِكُمْ فَضُلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِغْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣] هذه هي الآية الثالثة والخمسون في السورة، وبعدها الآية ١٠٥ من السورة نفسها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، وبعدهما الآية مائة وثلاث عشرة: ﴿... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وغير ذلك كثير، وقد جاءت فيه النون (تكن) ومسبوقة بجمل كثيرة ... ومن ثم فذكر الجمل الكثيرة قبلها ليس هو الدليل على ذكرها، بل ذلك يرجع إلى تمام الأمر وكماله، وحذفها لمراعاة حال النفس بمنعها من الريبة، ولو كانت ضئيلة، أو صرف السوء عنها بحذافيره، بحيث لم يكن له إثبات أي أثر كما قالت مريم ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، أي ليس فيها أدنى شيء من هذا، فالقطع يدل على الحذف، وكما في قوله -تعالى-: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] ... ففيه دلالة على

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، ٢٧٤ باختصار.

العدم الذي خلق منه الإنسان، وقوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

في الحذف دليل قاطع على عدالة الحق -سبحانه- كما سبق في ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ وفيها يقول البقاعي: "وحذف نون (يكن) إرشادًا إلى أن هذه الموعظة خليقة بأن يوجد بها غاية الإيجاز، فيبادر إلى إلقائها؛ لما في حسن تلقيها من عظيم المنفعة؛ لأن من خالفها جدير بتعجيل الانتقام"^(١).

فالحذف هنا دليل التعجيل بالتوبة والرجوع إلى الله -سبحانه- والثبات على الحق وقطع كل باطل...

وقد اجتمعا الحذف والذكر في آية واحدة، مسبوقة بتوجيهات ونصائح كثيرة، والبدائية بحذف النون، والنهاية بذكرها، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

أي مهما تكن صغيرة لا ترى بالعين المجردة، فيكتمل اختفاؤها في أكبر الأماكن وأقساها وأوسعها ... يأت بها الله.

فكان الحذف في الأولى (تك) مناسبًا لقوله (مثقال حبة من خردل) وفيه دليل على صغرها صغرًا يتناهى حجمها به ... وهذا -بلا شك- يناسبه الحذف، ومع صغرها هذا لو كانت في صخرة صماء يصعب شقها، أو في السماوات على اتساعها، وتعدد طبقاتها أو في الأرض كذلك، بكل يسر وسهولة (يأت بها الله) وتذييل الآية يتآزر مع المعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي محيط بالدقائق وخبير بها ... ومع قوة إحاطته فهو لطيف، يقول ابن فارس: اللام والطاء والفاء أصل يدل على رفيق، ويدل على صغر في الشيء ...^(٢).

(١) نظم الدرر ج ٣/٢٣١.

(٢) مقاييس اللغة، لطف.

فالسِّيَاق يدل على أن عظمة الله تتناهى وتتعاظم، تتناهى في القوة، وتتعاظم في الرفق.

بيّن الرازي أنه -سبحانه- ذكر كل طرق الخفاء، كالصغر، والبُعد، والظلمة، ووراء حجاب، فقوله: (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلى الصغر، وقوله (فتكن في صخرة) إشارة إلى الحجاب، وقوله: (أو في السماوات) إشارة إلى البعد، وقوله: (أو في الأرض) إشارة إلى الظلمات، فإن جوف الأرض أظلم الأماكن، وقوله: (يأت بها الله) أبلغ من يعلمها الله ...^(١)، فعلمها هنا أمر مقطوع به، وهو أيسر من الإتيان بها، الذي هو دليل القدرة المتناسبة مع ما ختمت به الآية.

فحذف النون في الأول (إن تك) دليل على دقتها حتى لا تكاد تكون، وإثباتها في (فتكن) دليل على كمال القدرة وتمام أماكن اختفائها، كما نص عليه الرازي.

ويقول البقاعي: (إن تك) وأسقط النون لغرض الإيجاز في الإيحاء بما ينيل المفاز، والدلالة على أقل الكون وأصغره ... وأثبت النون في (فتكن) إشارة إلى ثباتها في مكانها، ويزداد تشوف النفس إلى محط الفائدة، ويذهب الوهم كل مذهب؛ لما علم من أن المقصد عظيم بحذف تلك النون وإثبات هذه ...^(٢).

والآن -من خلال الشواهد- حصص الحق بجمال دلالة السِّيَاق في كل مقام تحذف فيه النون ببيان حجم المتحدث عنه، ونفي الشك فيه، وقطع الظلم قطعاً، وبراعة العطاء الذي يرفع ما توسوس به النفس في الخير، أو في غيره، كما تُذكر النون لتدل على التوسع والعظم في فضل الله مثلاً، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَلَيْنَ أَصْبَابِكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلِيَّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣].

فعند ذكر نعم الله بالفوز والنصر واكتمالها يكتمل الفعل لبيان أن من فاته الجهاد في سبيل الله فاته كل شيء

(١) تفسيره باختصار ١٣٠/٢٥.

(٢) نظم الدرر ١٨/٦.

وقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥]، في ذكر النون دلالة على اكتمال الدعوة بالحق، وعدم الانصراف عنه لحظة، واكمال سمو نفس النبي -صلى الله عليه وسلم- وعدم أخذ البريء بذنب الخائن ...

وهكذا مع كل شواهدنا ينبجج جمال الدلالة من عطاء السياق؛ ليعبر عن خوالج الشعور، ويضع كل لفظ في المكان الأخص الأشكل به؛ لتكون دلالة جماله جامعة بين مقصد السورة ونظم السياق.

جمال الدلالة بذكر الهمزة وحذفها بين السياق:

قد يكون السياق واحدًا في مكانين مختلفين، ويأتي التعبير مرة بطريق الخبر في اللفظ، وإن كان المعنى إنشاء، وأخرى بطريق الإنشاء لفظًا ومعنى كقوله -تعالى-: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

وقوله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِن لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

بداية نلاحظ أن الآية الأولى لفظها خبر، والثانية لفظها إنشاء، وتختلف القراءة في ذلك، فقد قرأ "الحرميان وأبو جعفر وحفص: (إن لنا لأجرا) بهمزة مكسورة على الخبر، والباقون على الاستفهام ..."^(١).

فطريق الإخبار في آية الأعراف (إن لنا لأجرا) قائم على إثبات الأجر، واستحقاقه وإيجابه لهم، فهم لم يسألوا أجرا، بل أخبروا باستحقاقهم إياه نظير عملهم، فالخبر هنا يفيد التأكيد، وقوله لهم (نعم) تأكيد على تأكيد، ولذلك قال لهم (وإنكم لمن المقربين) وهذه زيادة في تعظيم الأجر، الذي جاء متكررا، لذلك قال الزمخشري:

(١) تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح، نشر دار الفرقان،

"وقرى: (إن لنا لأجرا) على الإخبار، وإثبات الأجر العظيم وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتكثير للتعظيم، كقول العرب: إن له لإبلا، وإن له لغنما، يقصدون الكثرة"^(١).

ولكن البقاعي يقول: "ومن أخبر أراد الاستفهام، وهم نافع، وابن كثير، وحفص عن عاصم (قال) أي فرعون (نعم) أي لكم أجر مؤكد الخبر به، وزاد بيان التأكيد بما زادهم به، رغبة في قولهم (وإنكم) أي زيادة على ذلك (لمن المقربين) أي عندي في الحضرة"^(٢).

فمجيء الكلام على لفظ الخبر أكد بيان حقهم نظير عملهم دون أن يكون طلباً منهم، وإن أشرب معنى الطلب، ورفع مكافأتهم بأن أعطاهم درجة القربى والأولوية ... وكون طلبهم خبراً لا طلباً، يتناسب مع نسيج السورة، ففي سياقها العام ومقصدها الأعظم: الإنذار وذلك جلي من فاتحتها ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وجل آياتها كذلك، إنذار، ووعيد سواء في خطاب الحق، أو في حوار إبليس لما قال: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾^(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ^(١٥) إلى آخر الآيات، ثم الحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم مبنية على ذلك حتى يصل الموضوع إلى السياق الخاص الذي ورد فيه هذا الشاهد، ودار الحوار بين موسى وفرعون، وألقى موسى عصاه، ونزع يده ... وتجلت المعجزات التي جاء بها، هنا أخبر الملأ بأن هذا سحر، يحتاج إلى دعوة جميع السحرة، ووجدوا العمل عظيماً، والخطب جليلاً، فاشترطوا الأجر إن حصلت لهم الغلبة، فكان الكلام إخباراً مخافة أن يكون جاء بهم هكذا دون أجر، وفي النهاية غلبوا وسجدوا، وآمنوا بالله رب العالمين، فكان جزاؤهم من فرعون الوعيد ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمُونَ ... ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

(١) الكشف ١٠٢/٢.

(٢) نظم الدرر ٨٢/٣.

والتعبير بلفظ الخبر، وإن جعل البعض المعنى على الإنشاء يدل دلالة قاطعة على تأكيد الاستحقاق إن حدثت الغلبة، وجمال الدلالة في الأسلوب الخبري يحقق القوة والتأكيد عليها، ووثاقة النفس فيما تقدم عليه، ولذلك لما طلبوا الأجر قالوا ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ والتعبير بـ (نحن) يدل على الاختصاص وتعظيم النفس التي جعلتهم يطلبون الأجر بثبات يناسب ثبات فرعون، وطمأنينة تحاكي طمأنينتهم؛ لأن الأمر كان متروكاً للملأ، ولكنه في سورة الشعراء كان هو المتحدث، وهو الذي يستشير القوم ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]. لذلك لما جاء السحرة سألوا ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

فالاستفهام هنا واضح لفظاً ومعنى، والزيادة بادية في قوله "إِذَا"، وأرجع الإسكافي الزيادة التي في الشعراء بذكر همزة الاستفهام، وزيادة "إِذَا"، ومجيء الكلام بالفاء في البداية "فلما جاء السحرة..." بخلاف الأعراف (وجاء السحرة) إلى أن القصة في الشعراء فيها تفصيل أكثر، قال: "لما تقدم في سورة الشعراء ما شرحه أكثر، وما في سورة الأعراف أوجز وأخصر، كان قوله في الأعراف: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، بمعنى ما كان بإزائه في سورة الشعراء ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ فلم يحتج في جواب "لما" إلى فاء، ولا واو، وكذلك هنا في سورة الأعراف، لما قصد هذا المعنى دل بحذف العاطف على هذا القصد، فكأنه قال: فلما جاء السحرة فرعون قالوا أئن لنا لأجراً...، واختص سورة الشعراء بـ "إِذَا"؛ لأنها موضع بني على فضل اقتصاص لما جرى لم يبين غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد" (١).

نظرات توضيحية:

لم يقصد بكثرة الاقتصاص وطول الشرح في سورة الشعراء كثرة عدد الآيات أو طول الموضوع، فالموضوع في سورة الشعراء أقل في عدد الآيات منه في سورة الأعراف، وكل سورة من السورتين فيها مجموعة من القصص للأنبياء السابقين مع

(١) درة التنزيل، ١٣١ بإيجاز.

أقوامهم تثبيتاً وتسلياً للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولم تتخلص واحدة منها لقصة موسى مع فرعون، ولكن مقصود سورة الشعراء "أن هذا الكتاب بين في نفسه بإعجازه أنه من عند الله مبين لكل ملتبس"^(١)، وهذا المقصود ينعكس على كل أحداث السورة في المبنى وفي المعنى، وإن قل عدد الآيات، ولذلك زاد هنا في آية الشعراء الاستقهام، وإن كان المعنى عليه عند بعض العلماء كما سبق، إلا أنه حذف الهمزة فصار الكلام خبراً في اللفظ إنشاءً في المعنى ... كما زاد "إذاً" هنا في آية الشعراء.

ومكمن القوة في سورة الشعراء أن الله -عز وجل- هو الذي أمر موسى بعد أن ناداه فقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْغَافِلِينَ ۗ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ لَا يَنْفُونَ...﴾ [الشعراء: ١٠، ١١].

ولكنه في الأعراف هو الذي تكلم من تلقاء نفسه تفعيلاً لرسالته التي بعثه الله بها: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤].

وحذفه في القوة والزيادة بين أن يكون السياق تفعيلاً للرسالة التي بعث بها، وبين أن يكون نداء بصريح اللفظ (نادى) وأمرًا بالإتيان، فهنا مكمن قوة الحدث في سورة الشعراء، وهذا يتناسب معه أن يتحدث فرعون بنفسه ﴿قَالَ لِمَلَأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، بخلافه هنا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وفي الأعراف: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ [١١٣]، وفي الشعراء: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ﴾ [٣٨، ٣٩]، فقوة الاستعداد في أحداث سورة الشعراء بادية جلية تتناسب مع بداية الحدث الذي سبق، من أن يتحدث موسى، أو ينادي ربك موسى أن انت القوم الظالمين قوم فرعون ... فهنا قوة الاقتصاص التي ذكرها الإسكافي، وطول الشرح، ظاهره في حبكتها حتى قال فرعون لقومه متهمًا موسى بالسحر ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعَامُونَ﴾، والفروق بين الحدث في السورتين كثيرة، ولكنه تجلّت دلالة قوة زيادة همزة الاستقهام

(١) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ٢/٢٣٤.

هنا في سورة الشعراء من قوة الحدث، وأن البداية بنداء، وأمر من الله - عز وجل -،
وأن أحداث النهاية في الشعراء إغراق فرعون وقومه ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ
﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦].

ولكن كانت النهاية في الأعراف ابتلاءات تسبق النهايات تتمثل في أخذ آل
فرعون بالسنين ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَكَّرُونَ ﴾ [١٣٠] ... ثم إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع، ثم حوارهم مع
موسى بأن يدعو الله لهم، ثم نقضهم العهد، ثم النهاية بعد طول بلاء ﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

فالسباق في الأعراف أطول، وفرصة التوبة أكبر، ولكنه كان في الشعراء مرحلة
ثانية فيها تأهب للقضاء عليهم بعد توضيح ما كان ملتبسًا عليهم مما جعل فرعون
يتهم موسى بالجنون، وذلك يتناسب مع المقصود الأعظم للسورة كما تبين.

المبحث الثاني

جمال الدلالة البلاغية في حذف همزة الاستفهام وبقاء معناها:

وقد يكون اللفظ مشربًا معنى الاستفهام، وليس فيه لفظه، ولكنه يفيد ملامحًا
بلاغيًا قد يكون في الاستهانة، والاستخفاف الذي يعظم في التعبير بحذف الاستفهام
وبقاء معناها أكثر مما يعظم بذكر لفظه، فبالحذف تعظم الاستهانة، وتقوى الحجة،
ومن ذلك حوار سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع قومه، وهم يحاجونه في الله، فأقام
عليهم الحجة، وأجمعهم بها بصورة مرئية تدحض افتراءهم، وتدل على يقينه ووثاقته
في الله ربه.

قال - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكًا مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام:
٧٥، ٧٦].

ومن خصائص همزة الاستفهام أنها تحذف ويبقى معناها، وأي حذف لا بد له من دليل لفظي أو معنوي... والسياق هنا يدل على معنى الاستفهام، والوقف على قوله (هذا ربي) يؤدي معنى الاستفهام، ولا يمكن أن يكون على طريق الخبر؛ لأن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- كان حنيفاً مسلماً، ومن ثم فطريق الاستفهام الإنكاري أخلق بالسياق إلا أنه أسقط حرف الاستفهام؛ أي أهذا ربي؟ استغناء عنه لدلالة الكلام عليه، وقد جاء هذا القول في سياق الاستدلال على قدرة الله عز وجل.

ولكن مجيء التعبير بهذه الطريقة؛ أي على لفظ الخبر وراءه دلائل يجليها المقام، يقول فيها الزمخشري: (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجي من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (لا أحب الآفلين)^(١).

ويتكرر هذا مع القمر، ومع الشمس كذلك، وكله باسم الإشارة (هذا) فهو وسيلة إقناع بأن هذا لا يصلح، وكذا الثاني، وكذا الثالث، وذلك كله كناية عما يعبد من دون الله، وهذه طريقة بليغة في إثبات الباطل، والوصول بهم إلى الحق بطريقة المسايرة معهم لإقناعهم بالحجة والدليل الواضح...

يقول البقاعي: فكأنه من بصره أن أتى بهذا الكلام الصالح لأن يكون خبراً واستفهاماً ليوهم أنه مخبر، فيكون ذلك أنفى للغرض، وأنجي من الشغب، فيكون أشد استجلاباً لهم إلى إنعام النظر، وتنبهياً على موضع الغلط وقبول الحجة... واستدل بالأقول؛ لأن دلالاته لزوال سلطانه وحقارة شأنه أتم، ولم يستدل بالطلوع؛ لأنه -وإن كان حركة دالة على الحدوث والنقصان- شرف في الجملة وسلطان، فالخواص يفهمون من الأقول الإمكان، والممكن لا بد له من موجد واجب الوجود، يكون منتهى الآمال ومحط الرجال "وأن إلى ربك المنتهى" [النجم ٤٢] والأوساط يفهمون منه الحدوث للحركة، والعوام يفهمون أن الغارب كالمعزول لزوال نوره وسلطانه، وأن ما كان كذلك لا يصلح للإلهية"^(٢).

(١) الكشف، ٣١/٢.

(٢) نظم الدرر ٦٥٩/٢ بإيجاز، وينظر: الكشف ٣١/٢.

فهذه طريقة الحجاج تتجلى بلاغتها في إجماع الخصم بالحجة، ومن ثم لم يأت التعبير بأسلوب الاستفهام المباشر؛ لأنه "قاله على سبيل الفرض جرياً على معتقد قومه؛ ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم، فأظهر أنه موافق لهم؛ ليهشوا إلى ذلك، ثم يكر عليهم بالإبطال؛ إظهاراً للإنصاف وطلب الحق"^(١)، وتلك طريقة من طرف الوصول إلى الحق بطريق الإقناع، وليس فيها أدنى شبهة في الموافقة على معتقدهم، وقد حكى عنه القرآن الكريم قبلها ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام ٧٥]

وهذا التعبير الذي قاله سيدنا إبراهيم -عليه السلام- احتجاجاً على قومه بالجري على طريقهم للوصول إلى بغيته، تعبير فريد، وموقف لم يتكرر في القرآن كله ..

وجمال الدلالة يتجلى في براعة التعبير بالوصول إلى الغرض وإجماع الخصم بالحجة، والوقوف على موضع الخطأ دون إظهار التعارض، أو التعصب.

جمال دلالة الاستفهام المضمّر في سياق التشبيه المنفي:

يتجلى ذلك في بيان قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنۢ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمُ اللَّهُ بِهِٓءَ ۖ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخٰلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

فهذا السياق فيه فرائد لم تتكرر في غيره من القرآن الكريم، تتمثل في صدر الآية، وهو التشبيه المنفي في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ فهذا نهى عن مماثلة من هذا حاله جنساً وصفة، وهو نهى يجمع بين الصفة ومقتضاها الذي هو اتخاذ الأيمان دخلاً بينكم؛ أي مفسدة وخداعاً ... ابتغاء الكثرة في المال.

(١) الكشف ٣١/٢.

وجملة التشبيه هذه استوفت المراد (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) المعنى هنا تمّ بالنهي عن مماثلة من هذا حاله، كما سبق نهياً عن التلاعب بالآيمان، ويكون قوله (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) أي بسبب أن تكون أمة أكثر من غيرها قوة وعدداً زيادة في النهي على سبيل الإنكار.

وفيه يقول فخر الدين الرازي: "فقوله (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) استتفهام على سبيل الإنكار، والمعنى: ألتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب أن أمة هي أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرى"^(١)، فكونه استتفهاماً إنكارياً أشد توافقاً مع جمال دلالة المعنى والسياق، وهو ما يوافق السياق قبلها وبعدها ...

وكثير من العلماء يجعل (تتخذون أيمانكم) حالاً من الضمير في (لا تكونوا) أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر، أو حال كونكم تتخذون عهدكم دخلا بينكم ...^(٢)، أي لا تكونوا كالتى نقضت غزلها حال عدم وفائكم بما عاهدتم عليه ...

وقفة تأمل:

هذا موقف العلماء، ولكن عند التدبر نجد تمام المعنى في نفي التشبيه عند قوله (أنكاثا) وأن جملة (تتخذون أيمانكم دخلا) كلام جديد متآزر مع هذا النهي، وينكر عليهم أن تكون أيمانهم قائمة على الغش، والخداع فتفسد، وهذا يتناسب مع الأمر السابق بالوفاء بالعهد، والتحذير من نقض الأيمان بعد توكيدها، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]، وهي الآية السابقة لموطن الشاهد، فكان قوله "ألتخذون ... " عتاب على صنيعهم، وإنكار لهم عليه، وخاصة أنه نهاهم عن التشبه بالحمقاء التي تغزل الصوف بقوة، ثم تنقضه بعد غزله، فكذلك هم وثقوا أيمانهم، وجعلوا الله كفيلاً عليهم، ثم نقضوها، فكان هذا الإنكار الذي تحمله

(١) تفسيره ١١١/٢٠

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي، ج ١٤/٢٢٢.

صورة اللفظ بعد حذف الهمزة منه -ليكون الإنكار أقوى- تماشيًا مع وثافتهم الأيمان بأنفسهم، ونقضها سرًا، فحذف الهمزة يحكي حالتهم، ولذلك جعلها بعض العلماء حالًا، إلا أن الاستفهام فيها أقوى مناسبة للسياق، وخاصة ما قبل هذه الآية، وتحقيقًا لما حكاه السياق بعدها بفاصل آية واحدة ﴿وَلَا تَنَحَّضُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قدم بعد بُوتها وتذوقوا السوء بما صدقتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾ [٩٤].

وبناء على ذلك فإن التشبيه المنفي تم، وجملة (تتخذون أيمانكم) بعده استفهام إنكاري أي لا تفعلوا ذلك، يؤكد تمام المعنى السابق، وجمال الدلالة والسياق يؤكد تمام المعنى قبلها، واستئناف النهي بعدها، والتحذير من نقض عهدهم مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك في المبايعة.

جمال دلالة حذف الهمزة في مقام الغرور:

ومن شواهد هذا الباب قوله -تعالى- حكاية عن طاعة الملائكة وعصيان إبليس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢].

أيضًا هذا النص فيه فرائد لم تتكرر في القرآن الكريم كله، هي: قوله "أرأيتك" وقوله "كرمت" وقوله "لأحتكن".

والشاهد في هذا السياق قوله "هذا الذي كرمت عليّ" تقدير الكلام: أهذا ... حذفت همزة الاستفهام لدلالة سابق الكلام عليها، وهذا يعني أن قول إبليس تكرر على طريق الاستفهام مرتين، الأولى "أسجد لمن خلقت طينا؟" والثاني "أرأيتك" كأنه يطلب الإجابة عن سؤاله الأول: أسجد لمن خلقت طينًا؟ يعني أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ وأمرتني بالسجود له، فلمّا لم يخبره ربنا استصغارًا لأمره واحتقارًا لشأنه ... قال: هذا الذي كرمت عليّ؟ يعني أهذا؟

وفيه يقول الرازي: فيه وجوه: الأول: معناه: أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ، لم فضلته عليّ وأنا خير منه؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهومًا.

والثاني: يمكن أن يقال: (هذا) مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام، و(الذي) مع صلته خبر، تقديره: أخبرني أن هذا الذي كرمته عليّ، وذلك على وجه الاستصغار، والاستحقار، وإنما حذف حرف الاستفهام؛ لأن حصوله في قوله (أرأيتك) أغنى عن تكراره.

والوجه الثالث: أن يكون (هذا) مفعول (أرأيت) لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها، كأنه قال على وجه التعجب والإنكار: أبصرت؟ أو علمت؟ هذا الذي كرمت عليّ، بمعنى لو أبصرت أو علمته لكان يجب ألا تكرمه عليّ^(١).

هذا بيان يغني عن كل بيان، وجمال الدلالة فيه يتجلى في بلوغ التأكيد مبلغاً عالياً في تكرار الاستفهام ثلاث مرات، ظاهراً مرتين، ومضمراً في الثالثة؛ لدلالة ما سبق عليه، وهذا التكرار يدل على التعالي، والتكبر على أمر الله، استهانة بآدم؛ لأنه من طين، وإبليس من نار، ومن منظوره أنه أفضل شأنًا وأكرم أصلًا، "لأن النار التي هي أصله أكرم من الطين، وذهب عليه إن الطين أنفع من النار فهو أكرم، وعلى تقدير التنزل فإن الجواهر كلها من جنس واحد، والله -تعالى- الذي أوجدها من العدم يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض"^(٢).

ثم هناك زيادة أخرى غير هذه الاستفهامات، وهي زيادة الكاف في قوله (أرأيتك) وفيها تبجح في مخاطبة الحق -سبحانه-، "قال البصريون: هذه الكاف زائدة زيدت لمعنى المخاطبة... وقال سيبويه: لا موضع لها، وقال السكاكي: موضعها نصب، وقال الفراء: رفع، ولها موضعان، أحدهما: أن تكون بمعنى أخبرني... والثاني أن تكون بمعنى انتبه، كقولك: أرأيت زيدًا فإنني أحبه، أي انتبه له فإنني أحبه... وقد يحذف الجواب للعلم به..."^(٣).

والمعنيان في أرأيتك محتملان من إبليس (لعنه الله) لأنه تجرأ على الله -عز وجل- وقد تجلى هذا التجرؤ في قوله عقب ذلك بطريق التوعد والتحدي: ﴿لَيْنَ أَخْرَتَيْنِ

(١) تفسيره، ٤/٢١، ٥.

(٢) نظم الدرر، ٤/٤٠٢.

(٣) البرهان للزركشي ٤/١٥٣ بإيجاز.

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتِنَاكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا... ﴿٦٥﴾ إِلَى أَنْ قَالَ رَبَّنَا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. [الإسراء: ٦٥]

فهذا قسم منه بالاستئصال الدال عليه التعبير بقوله (لأحتنكن) ولكنه استثنى (إلا قليلاً) وهذا دليل على خبرته بحياة بني آدم، فمنهم من لا يطيعه وهم القلة الشاكرة لله رب العالمين، كما قال ربنا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

و﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، والكثير يطيعه، والدليل جلي في الاستفهامات السابقة منه، وأعلاها بلاغة ما حذفته همزته ودل السياق والمقام عليها "هذا الذي كرمت علي؟" وهذا من الترقى في بناء الأسلوب الذي تتجلى دلالاته في الغرور والتكبر؛ حيث استنكر السجود، واستكبر على اعتبار أصله، وأصل آدم "أسجد لمن خلقت طينا؟"

ثم زاد هذا الإنكار قوة في المعارضة بقوله "أرأيتك؟" وكأنه يطلب جواباً عن استنكاره، فلما لم يجبه ربنا استصغاراً لشأنه قال: "هذا الذي كرمت علي؟"، مبالغة أخرى في الإنكار قدمت لهذا التحدي السافر، "لأحتنكن ذريته....".

وهكذا يتأزر السياق بمبناه ومعناه في إبراز جمال الدلالة، وإحاطتها بالمعنى المراد.

جمال دلالة حذف الهمزة في مقام الخصوص وإرادة العموم:

ومن فرائد هذا الباب التي تجلت في كتاب الله قوله -تعالى-: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ

فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

هذا التركيب بشقيه الحسنة، والسيئة لم يرد بصورته هذه إلا في هذه الآية، والآية بكاملها توضيح لموقفهم في الآية قبلها؛ حيث كانوا يتطرون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حدث أمر سيئ، وذلك قوله -تعالى- حكاية عنهم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فلما قالوا (هذه من عندك) تطييراً، كان الرد عليهم مبيئاً أن الخير من الله، بأن أعان عليه، وأن السيئة بسبب النفس حتى لو كانت من رسول الله، وهذا المعنى هو الذي جعل بعض العلماء يحمله على سبيل الاستفهام (فمن نفسك) أي أفمن نفسك؟ ليس إنكاراً على الرسول -صلى الله عليه وسلم-، بل إنكاراً عليهم تطيرهم من رسول الله حيث يصيبهم سوء أو بلاء ...

وجعلهُ على سبيل الإنكار يؤكد سببية النفس له، ويتجلى جمال الدلالة في هذا النص في إنكار تطيرهم، وتقرير الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن ما يصيب الإنسان من سوء إنما هو بسببه، وحذف ألف الاستفهام، حيث لم يقل أفمن نفسك؟ تتجلى بلاغته في قوة المعنى من جانب، وفي أن تذهب النفس في تقديره كل مذهب من جانب آخر؛ نفيًا لهذا التطير، وإقرارًا بحال النفس التي وصفها ربنا بقوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وذكر الفخر الرازي أن أبا عليًا الجبائي وفق بين نسبة السيئة في الآية قبلها إلى الله في قوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وإضافتها إلى النفس هنا بقوله: "ولما كانت السيئة بمعنى البلاء والشدة مضافة إلى الله، وجب أن تكون السيئة بمعنى المعصية مضافة إلى العبد حتى يزول التناقض بين هاتين الآيتين المتجاورتين، قال: وقد حمل المخالفون أنفسهم على تغيير الآية، وقرءوا (فمن تعسك) فغيروا القرآن وسلوكوا مثل طريقة الرافضة في ادعاء التغيير في القرآن.

وأضاف الرازي توضيحًا لكلام الجبائي بأن الحسنة أضيفت إلى الله هنا؛ لأنها وإن كانت من فعل العبد فإنما وصل إليها بتسهيله -تعالى- والطفاه، فصحت الإضافة إلى الله -تعالى- وأما السيئة التي هي فعل العبد فهي غير مضافة إلى الله -تعالى-، لا بأنه -تعالى- فعلها، ولا بأنه أرادها، ولا أمر بها، ولا رغب فيها، فلا جرم انقطعت هذه السيئة من جميع الوجوه إلى الله تعالى. (١)

(١) تفسيره، ١٩٥/١٠ باختصار وتصرف.

وبين أبو حيان أن ألف الاستفهام محذوفة من الكلام؛ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا

عَلَىٰ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وكذا بازغًا، قال: ﴿هَذَا رِئِي﴾ [الأنعام: ٧٧]، والعرب تحذف

ألف الاستفهام، قال أبو خراش:

رموني وقالوا يا خويلد لم تدع ★★ فقلت وأنكرت الوجوه هم هم؟

أي: أهم هم؟^(١).

وذكر الجبائي عن قتادة أن الخطاب هنا عام لكل من يقف عليه، لا للنبي -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كقوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ★★ وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ويدخل فيه المذكورون دخولًا أوليًا، وفي إجراء الكلام أولًا على لسان النبي -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وسوق البيان من جهته -تعالى- ثانيًا بطريق تلوين الخطاب،

والالتفات إيذان بمزيد الاعتناء به، والاهتمام برد اعتقادهم الباطل، وزعمهم الفاسد،

والإشعار بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة حرية بأن يتولى بيانها علام الغيوب

-عز وجل-^(٢).

ومعلوم أي خطاب في القرآن الكريم موجه للرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في

أمور تنطبق على كل من أرسل إليهم، إنما هو من الخاص الذي يراد به العام، جريًا

على كلام العرب، وهو جلي في أنه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مبلغ للناس كافة عن

الله -عز وجل- وأن ما وجه إليه من خطاب كهذا فيه بيان أن هذا إن كان للنبي

فهو من باب أولى لجميع من تصل إليهم رسالته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

أما الشاهد الذي استدل به أبو حيان وهو يوضح مكانة الاستفهام المحذوف

الأداة في الشاهد السابق، فيجري على هذه الوتيرة من التفرّد، ومن حذف أداة

الاستفهام مع وجود معناها.

جمال دلالة حذف همزة الاستفهام في مقام التبكيت:

(١) البحر المحيط ٣/٧٢٠.

(٢) روح المعاني ٣/٨٦.

وهو قوله -تعالى- حكاية عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- يحاور فرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

فقوله: "وتلك نعمة" وقوله: "أن عبدت" من التراكيب الفريدة في القرآن الكريم. ويقول الأخفش: هذا استفهام، كأنه قال: "أو تلك نعمة تمنها؟"، ثم فسر فقال: "أن عبدت بني إسرائيل"، وجعله بدلاً من النعمة^(١).

قال الفراء نفس الكلام، وبدأ أبو حيان بيان الاستفهام هنا بكلامهما فقال: "وقال الأخفش والفراء: قبل الواو همزة استفهام يراد به الإنكار، وحذفت لدلالة المعنى عليها، ورده النحاس بأنها لا تحذف؛ لأنها حرف يحدث معها معنى، إلا إن كان في الكلام "أم" لا خلاف في ذلك إلا شيئاً، قاله الفراء من أنه يجوز حذفها مع أفعال الشك... وقال الضحاك: الكلام إذا خرج مخرج التبيكيت يكون باستفهام وبغير استفهام، والمعنى: لو لم يقتل بني إسرائيل لرباني أبوي، فأني نعمة لك علي، فأنت تمن علي بما لا يجب أن تمن به..."^(٢).

ومن خصائص الهمزة أنها تدخل على حروف العطف، وتتميز بهذا من غيرها من أدوات الاستفهام الأخرى نحو قوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وتدخل على الفاء كقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩]، وعلى ثم نحو قوله -تعالى-: ﴿أَتُمَرِّدُوا مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنْكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١].

وحذفها في السياق الذي نتحدث فيه من حوار موسى مع فرعون أقوى دلالة على المراد من ذكرها؛ ولأن الحذف هنا فيه دلالة قوية على أن ما يقوله فرعون من المنّ والمعايرة يجب أن يحذف، وأنه لا معنى له؛ لأن السبب فيه هو فرعون نفسه، وهذا أنسب مع مفاد الاستفهام من التبيكيت والتوبيخ، واستنكار ما يقال؛ لإظهار ظلم

(١) معاني القرآن، ١٧/٣.

(٢) البحر المحيط، ١٤٨/٨.

فرعون، والتعبير عن صغاره وهوانه حينئذٍ؛ فلا يقول هذا جبار إلا وقد أصيب بالذلة والهوان، فبدأ يستخرج ما عنده مما يجده نعمة منه ... وموسى في حال قوته وسلطانه المستمد من الحق -سبحانه- يبطل ما يقول فرعون، ويجلي ذلك بقوله: أن عبّدت بني إسرائيل ... أي اتخذتهم عبيداً.

يقول الخازن في المراد من الكلام: "كيف تمنّ عليّ بالتربية، وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه فقد ذل، فتعبّد بني إسرائيل قد أحبط حسناتك إليّ، ولو لم تستعبدهم ولم تقتل أولادهم، لم أرفع إليك ... ولكان من أهلي من يربيني، ولم يلقوني في اليم" (١).

أي أنه ينكر عليه ذلك، وعليه فجملة (أن عبّدت) بدل من (نعمة) لأنها موضحة لها .. أو عطف بيان، يقول أبو السعود: "تلك" إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، وأن عبّدت عطف بيان لها، والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليّ، وتوحيد الخطاب في "تمنّها" وجمعه فيما قبله (أي قوله: ففررت منكم لما خفتكم ..) لأن المنة منه خاصة، والفرار منه ومن ملئه. (٢)

وبعض العلماء جعل الاستفهام على المن أي أتمنّها؟ يقول الطبري: "حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرازق، قال: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: "وتلك نعمة تمنّها عليّ"، قال: يقول موسى لفرعون: أتمنّ عليّ أن اتخذت أنت بني إسرائيل عبيداً؟

واختلف أهل العربية في ذلك، فقال بعض نحويّ البصرة: "وتلك نعمة تمنّها عليّ"، فيقال: هذا استفهام كأنه قال: أتمنّها عليّ، ثم فسّر فقال: "أن عبّدت بني إسرائيل"، وجعله بدلاً من النعمة. (٣)

وإن كان يجوز هذا، بمعنى أنه يستتكر عليه المن، إلا أن الأقوى دخول الهمزة على حروف العطف كما هو كثير في القرآن الكريم، وفيه دلالة استتكار ما يراه

(١) تفسيره تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ، ٣/٣٣٣.

(٢) تفسيره ١٣٣/٥، وسبق به الزمخشري كما نسبه إليه الرازي في تفسيره، ٤٩٧/٢٤.

(٣) تفسيره ٥٦١/١٧.

فرعون كبيراً وعظيماً، لأن (تلك) اسم إشارة للبعيد، والبعد هنا بُعد مكانة على حد ما يراه فرعون، ويستنكره موسى -عليه السلام- ففي هذا إنكار الكلام الذي يراه فرعون نعمة، واقتلعه من أصله، بخلاف إنكار المن فيه كأنه يعترف بالنعمة، وينكر المن فقط، وهذا ضعيف كما تبين.

دلالة حذف همزة الاستفهام على نفي البقاء:

بناء الكلام على طريق الخبر والمراد النفي أثبت في النفوس، وأمکن من جعله استفهاماً مباشراً؛ لأن جعله خبراً دليل على أنه كائن وواقع، وليس إنشاء حكم جديد، وكان القوم ينتظرون موت الرسول صلى الله عليه وسلم -ليشمتوا، فثبتته الله- عزو وجل وبين حكم الفناء المقضي به من عنده، ومجيء اللفظ بطريق الخبر، والمعنى إنشاء فيه هدم لفكر القوم، وزلزلة لبنيان استقر في نفوسهم، وذلك قوله -تعالى-:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِإِشْرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهْمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

أيضاً هو تركيب فريد في الذكر الحكيم، والتقدير أفهم الخالدون إن مت؟ أيستقيم هذا؟ فهو استفهام إنكار، وقال الفراء: جاء بالفاء ليدل على الشرط... ويجوز أن يكون جيء بها لأن التقدير فيها: أفهم الخالدون إن مت؟ ... هذا وجه، والوجه الآخر: أن تريد الفاء فتضمها؛ لأنها لا تغير (هم) عن رفعها، فهناك يصلح الإضمار^(١).

وحذف همزة الاستفهام هنا أيضاً تتجلى دلالاته في انقطاع الحياة عن كل أحد، وإن كان ذكرها يؤدي ذلك المعنى، إلا أن الحذف أحكم وأصح، ولذلك جاء عليه هذا القول الكريم وأمثاله.

وذكر البقاعي أن المنكر هو تقدير خلودهم على تقدير موته الموجب لإنكار تمنيه لموته، فحق همزة دخولها على الجزاء، وهو: فهم، وإنما قارنت الشرط لأن الاستفهام له الصدر^(٢).

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخران، الدار المصرية للتأليف، ١٩٧/٢.

(٢) نظم الدرر، ج ٨٢/٥.

وهذا القول بالموجب الذي ذكره، شرحه ابن عاشور بقوله: أي أنك تموت كما قالوا، ولكنهم لا يرون ذلك، وهم بحال من يزعمون أنهم مخلدون، فأيقنوا أنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم، فالتفريع كان على ما في الجملة الأولى من القول بالموجب، أي ما هم بخالدين حتى يوقنوا أنهم يرون موتك، وفي الإنكار الذي هو في معنى النفي إنذار لهم بأنهم لا يرى موته منهم أحد" (١).

والقول بالموجب هو الذي حده البلاغيون بأنه: إثبات صفة لشيء وترتيب حكم عليها، فينقل السامع تلك الصفة إلى غير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتقائه عنه. (٢)

ويساعد على إحكام هذا المعنى: حذف همزة الاستفهام من (فهم الخالدون)؛ لأنه أثبت الموت لهم من غير تعرض بذكره لا نفيًا ولا إثباتًا من نقل صفة الموت إليهم، وحذف الهمزة أحكم هذا المعنى، وأنكر عليهم ما يجري في نفوسهم من انتظار موته ليشتمتوا فيه ... وهذا مناسب لمقصود السورة الأعظم الذي هو: "الاستدلال على تحقق الساعة، وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير" (٣).

وهكذا تجلت دلالة الحذف في إثبات ما هو واقع لا محالة ... وكل هذه الشواهد التي وقفت عندها من هذا الباب عبارات فريدة لم تتكرر، وهذا من باب قوة الجمال التي دل عليها السياق العام، والنص الخاص في مكانها ومقامها.

دلالة حذف همزة الاستفهام في مقام الاستعظام:

ومن هذه الشواهد الفريدة، أي التي لم يذكر التعبير محل الشاهد في غيرها أيضًا: قوله -تعالى-: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۗ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَّائِدِيهِ إِلَّا أَنَّ تَعْصُوا فِيهِ ۗ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١٧.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٣٥٢

(٣) مصاعد النظر ٢/٢٨٥.

موطن الشاهد في قوله -تعالى-: ﴿مَنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ تقديره: أمنه تنفقون؟ لأن المقصود منه النهي تم بيانه في العبارة السابقة لذلك: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ﴾ حيث تم عندها بناء المعنى؛ أي لا تقصدوه وتجعلوا منه ما تنفقونه.

ثم يأتي هذا السؤال الذي يقرر المعنى ويؤكد، ويوظف النفس من حب الدنيا، ومخالفة أمور الدين، فيقول: (منه تنفقون)؛ أي أمنه تنفقون؟، وحذف الهمزة أعطى الإنكار المطلوب قوة، وأعطى التحذير مهابة؛ لأن حذفها يدل على عدم فعله.

وذكر أبو حيان أن الجملة بشقيها مؤكدة للأمر؛ لأن مفهومها جلي في قوله (أنفقوا من طيبات ما كسبتم).^(١)

وذكر أبو السعود أن تقديم الجار (منه) على (تنفقون) يفيد التخصيص، والجملة حال من فاعل تيمموا؛ أي لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه .. وأما كان فالتخصيص لتوبيخهم ... فهو كلام مستأنف توبيخاً وتقريعاً لهم^(٢).

وبناء على ذلك فيترجح أن جملة (منه تنفقون) مستأنفة، ويتجلى جمال الدلالة على التوبيخ والإنكار فيها على تقدير الاستفهام بحذف همزته تعصيماً للمعنى المطلوب إثباته، وهو عدم قصد الخبيث للإنفاق منه، ولستم بأخذيه إلا مع التعاضي، لو كنتم مكان هؤلاء، وفيه ردع وتهذيب، وحث على الالتزام بالأمر السابق: "أنفقوا من طيبات ما كسبتم".

ومما سبق تجلت دلالة الكلمة، وتجلي جمالها، من خلال فهم السياق، وبيان ما فيه من علائق بيرزها جمال نظمه، وسياق لفظه الذي يعبر عن جمال المعنى، وبلاغة التعبير، والكلمة لها دور عظيم في هذا البناء، ولكنها بمفردها لا تقوم بشيء من ذلك؛ لذلك درستها بين سياقها رابطاً بين السياق العام، والنص الخاص الذي جاءت فيه، مبرزاً مقامها، وعلاقة دلالتها بالمقصود العام للسورة، وسيتم فيما يأتي

(١) ينظر: البحر المحيط، ٣١٥/٢.

(٢) تفسيره، باختصار وتصرف، ٣٦١/١.

تطبيق ذلك على الجملة، والجمل التي تآزرت معها في جمال الدلالة باعتبار الأحوال
والمقامات.

الفصل الرابع

الدلالة البلاغية للجملة في السياق القرآني

المبحث الأول

مدخل إلى دراسة الجملة

ما سبق كان دراسة -موجزة- في جمال دلالة الحرف، والكلمة، في السياق القرآني، والحرف كانت دراسته دائرة بين حروف المباني المقطعة التي وقعت استهلالاً لبعض سور القرآن الكريم، وحروف المباني التي نسجت منها بعض الكلمات، وذكرت فيها هذه الحروف أو حذفت منها؛ أي ذكرت في مواضع، وحذفت من أخرى، وكان ذلك بهدف استخراج دلالة الذكر، ودلالة الحذف، كل في سياقه الأخص الأشكل به باعتبار تناسبه لسياقه، ومقامه الذي ذكر فيه، وعلاقة ذلك بمقصود السورة التي ورد فيها ذكرًا أو حذفًا ... وكذا حروف المعاني في بعض شواهدا كأن تذكر الواو في سياق كلمة، وتحذف من نظيرتها، كما سبق في مثل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ و﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالنسبة لأهل الجنة أهل الخير والزيادة، ذكرت معهم الواو لحسن الاستقبال والتهيؤ والاستعداد لهم، وحذفت من الحديث عن أهل النار تناسبًا مع ما يحدث لهم فيها من نقض في أجزاءهم المتمثلة مثلًا في قول ربنا - سبحانه -: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وهكذا دارت دراسة الحرف والكلمة، وتجلت جماليات الدلالة في كل منهما من خلال السياق القرآني.

ذكرت ذلك للربط بين خط سير هذه الدراسة، والتذكير ببنائها؛ لأنني هنا سأبحث بابًا آخر في جمال دلالة الجملة، في السياق القرآني، وهنا لا بد أن أحدد مسار البحث؛ لأقف على جمال دلالة الجملة، وأحاول تحديد جمال حسنها ودقة براعتها في بناء كلام ليس كمثلها كلام؛ لأنه كلام من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وذلك بقصد محاولة فهم المعنى القرآني، وأن أستخرج من تركيبه بعض أسرار، ومن الحسن الذي فيه بعض علله وأسبابه.

ولتحديد مسار البحث في الجملة وسياقها؛ استكمالاً لمعالمه، أردت أن يكون في نص معين، وسياق معين يحدد مجالاً من مجالات جمال الدلالة البلاغية في بناء الجملة، فاخترت من ذلك الجملة التي استهلكت بها كل سورة من سور القرآن الكريم أيًا كان نوعها، خبرية أو إنشائية، اسمية أو فعلية، وذلك فيما بعد الحروف المقطعة في السور المستهله بذلك؛ حيث سبق النظر في هذه الأحرف المقطعة، ولكنه لا يحول دون الوقوف على جمال ما بعد هذه الحروف في السور المستهله بها.... وذلك لأن مقصود كل سورة من سور القرآن الكريم ينبج من فاتحة السورة، وينشر ظلالة على جميع مقاطع السورة، والبحث الدقيق يثبت ذلك؛ لأن المقصود الأعظم للسورة يشتمل على جميع دوائرها الداخلية، والسورة -كما تعلمنا- دائرة كبرى، بينها دوائر صغرى، هي مجالات بنائها، وهي المحددة لأغراضها المترابطة، والدائرة في فلك الدائرة الكبرى لكل سورة، فمثلاً سورة البقرة مقصدها الأعظم: الدلالة على أن القرآن هدي لاتباع، لو تأملنا في كل القصص التي وردت فيها لوجدنا هذا السبيل يجري في كل قصة، أو موضوع منها، فبدايتها أنه هدى، وقصة بقرة بني إسرائيل فيها هذه الدلالة أيضاً، وآيات تحويل القبلة دليل من دلائل الهدى أيضاً، والحديث عن الأهله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ٱلَّتِي هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] من دلائل الهدى، وسؤال إبراهيم "رب أرني كيف تحيي الموتى" من دلائل الهدى أيضاً... والحديث عن الدين وكتابته من دلائل الهدى، وختام السورة كذلك... هذا كله على سبيل المثال من أن المقصود الأعظم لكل سورة ينشر ظلالة عليها... وهذا من الدلائل على أن كلام الله ليس كمثله كلام.

ودراسة الجملة التي تكونت من كلمات، قد تكون بعض الكلمات في نسيجها جملة تتألف من فعل وفاعل ومفعول، أو مسند ومسند إليه، ولكنه مع ذلك ركن في جملة لها معنى متكامل، ولها دلالة مترابطة مع نصها، ولها نور يتجلى من سياقها، ولها مقام يحدده وقْعها، وموقعها، والمعنى المستفاد منها يحتاج إلى النظر في كل ذلك، وجمال الدلالة هو أعلى ما يؤخذ منها غير منقطعة عن سياقها...

والجملة لها في الدراسات النحوية مجالات كثيرة، نحو: كونها اسمية، أو فعلية، أو ظرفية، حين تبدأ بظرف، أو شرطية، جمع ذلك أبو علي الفارسي في قوله: "وأما الجملة التي تكون خبراً فعلى أربعة أضرب، بيانها كما يأتي:

الأول: أن تكون جملة مركبة من فعل وفاعل، والثاني: أن تكون مركبة من ابتداء وخبر، والثالث: أن تكون شرطاً وجزاءً، والرابع: أن تكون ظرفاً"^(١).

وفيه يقول عبد القاهر معلّقاً: "فقد حصل لك أربعة أضرب من الجمل، وهي في الأصل اثنتان: الجملة من الفعل والفاعل، والجملة من المبتدأ والخبر"^(٢).

وزاد ابن هشام بأن الجملة قد تكون صغرى وكبرى، والكبرى هي الاسمية التي خبرها جملة نحو: زيد قائم أبوه، وزيد أبوه قائم، والصغرى هي المبنية على المبتدأ كالجملة المخبر بها في المثالين ... ثم تحدث ابن هشام بعد ذلك عن انقسام الجملة الكبرى إلى ذات وجه، وإلى ذات وجهين، وعرف ذات الوجه بأنها: اسمية الصدر، وفعلية العجز، نحو: "زيد يقوم أبوه" كذا قالوا، وينبغي أن يراد عكس ذلك في نحو "ظننت زيدا أبوه قائم" يعني فعلية الصدر اسمية العجز ... وذات الوجه نحو "زيد أبوه قائم" فهذه اسمية الصدر والعجز، وقد تكون فعلية الصدر والعجز، نحو "ظننت زيدا يقوم أبوه" ..."^(٣).

ثم تحدث ابن هشام بعد ذلك عن الجمل التي لا محل لها من الإعراب وسأوجزها فقط لتكون مرآة للناظرين، وكذلك التي لها محل، وبين أن التي لا محل لها من الإعراب سبع، وهي التي لا محل المفرد وذلك هو الأصل في الجمل.

الجملة الأولى: الابتدائية، وتسمى أيضاً المستأنفة، وهو أوضح؛ لأن الابتدائية تطلق أيضاً على الجملة المصدرة بالمبتدأ، ولو كان لها محل، وأما المستأنفة فتطلق على الجملة المفتوح بها النطق، ومنه الجمل المفتوح بها السور، وتطلق على

(١) المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم المرجان، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٥م، ٢٧٣/١.

(٢) المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني، ٢٧٧/١.

(٣) ينظر: مغني اللبيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٣٨٠/٢.

المنقطعة عما قبلها كقوله -تعالى-: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۗ ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكْنَانٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٣، ٨٤]، ويخص البيانين الاستئناف بما كان جوابًا لسؤال مقدر كقوله -تعالى-: ﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثٌ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۗ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]، كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال سلام... الجملة الثانية: المعترضة بين شيئين لإفادة الكلام تقوية وتسديدًا أو تحسینًا، كالمعترضة بين الشرط وجوابه في مثل قول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١].

الجملة الثالثة: التفسيرية، وهي الفصلة الكاشفة لحقيقة ما تليه، كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمِثِّلْ عَيْسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فخلقه، وما بعده تفسير لمثل آدم.

الجملة الرابعة: المجاب بها القسم كقوله -تعالى-: ﴿وَأَلْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ۗ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢، ٣].

الجملة الخامسة: الواقعة جوابًا لشرط غير جازم مطلقًا، أو جازم ولم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفجائية، فالأول جواب لو ولولا ولما وكيف، والثاني نحو: إن تقم أقم. الجملة السادسة: الواقعة صلة لاسم أو حرف، كقوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ آضَلْنَا﴾ [فصلت: ٢٩]، ونحو قولهم: أعجبنى أن ما قُمت.

الجملة السابعة: الجملة التابعة لما لا محل له، نحو: "قام زيد ولم يقم عمرو" إذا قدرت الواو عاطفة، لا واو الحال.

أما الجمل التي لها محل من الإعراب فهي أيضًا سبع:

الأولى: الواقعة خبرًا.

والثانية: الواقعة حالًا، وموضعها نصب، كقوله -تعالى-: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ

وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

والثالثة: الواقعة مفعولاً، ومحلها النصب إن لم تنب عن فاعل، وهذه النياية مختصة بباب القول، كقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧].

الرابعة: المضاف إليها، ومحلها الجر، كقوله -تعالى-: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

والخامسة: الواقعة بعد الفاء، أو إذا جواباً لشرط جازم؛ لأنها لم تصدر بمفرد يقبل الجزم لفظاً، كما في قوله -تعالى-: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ لَهْدٍ لَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمَتِ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].
السادسة: التابعة لمفرد، كقوله -تعالى-: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

السابعة: التابعة لجملة لها محل، ويقع ذلك في بابي النسق والبدل خاصة^(١).
أوجزت أنواع الجمل ليكون -كما سبق- مرآة فقط تذكر القارئ بأنواعها، ولكن ليس من وكذ هذه الدراسة البحث في كلام النحاة؛ لأن البلاغة تدرس معاني النحو، وليس النحو الخالص، بل ما يفاد من معانيه، ومعانيه تتجلى في بلاغة دلالة الجملة بين سياقها خبرية كانت أو إنشائية.

وكما قلت تحديداً لمسار البحث، وليكون له ضابط في دراسة الجملة بأنواعها اسمية أو فعلية، خبرية أو إنشائية، ليكون مساره دراسة الجملة، وما ترتب عليها، من الجمل التي استهلكت بها كل سورة من سور القرآن الكريم، مع ضم النظائر، وجمع المتشابهات، وعقد مقارنة بينها تجلى أسرار البداية في كل سورة، مع الوقوف عند السور التي جاء مفتاحها واحداً كالسور المستهلة بلفظ "الحمد" مثلاً.

والجملة الخبرية عند العلماء نسبة إلى الخبر، وهو الكلام الذي له واقع يطابقه، أو لا يطابقه، وتحتمل الصدق والكذب، ويستثنى من ذلك الأخبار القرآنية والإنشائية،

(١) مغني اللبيب، ج ٢/٤١٠: ٤٢٦ باختصار.

نسبة إلى الإنشاء، وهو الإيجاد؛ أي إنشاء المعنى إنشاءً وليست لها نسبة خارجية، ولا تحتل الصدق أو الكذب، وبناءً على ذلك فهي مرتبطة بأمر معنوي، وتستخدم كل منهما في موضع الأخرى، فقد يكون الكلام خبراً في اللفظ، إنشاءً في المعنى، وقد تكون إنشائية في اللفظ خبرية في المعنى؛ مما يدل على أن اللفظ يدل على المعنى المراد، وأنه هو مفتاحه الذي يكشف عن خباياه..

ويكفي هذا في الجانب النظري؛ لأن مجاله لا ينتهي، وأنتقل إلى الجانب التطبيقي جامعاً النظائر متى وجدت، مبيّناً -على قدر الاستطاعة- جمال الدلالة في كل منها ... وأسباب تكرارها في مفتاح أكثر من سورة.

وستكون الدراسة بترتيب سور المصحف الشريف، بادئةً بالجمل الخبرية، ثم الإنشائية.

المبحث الثاني

الجمل الخبرية ودلالاتها في مقدمات سور القرآن الكريم

أولاً: الاستهلال بالثناء:

أول سورة تطالعنا (أم الكتاب) استهلّت بـ "الحمد لله" ومعلوم أن الجملة تتكون من كلمات يشد بعضها بعضاً، أو يخبر ببعضها عن بعض، فـ"الحمد لله" جملة أدت معنى هو إسناد الحمد لله على الإطلاق، ولا حمد على الإطلاق إلا لله -سبحانه وتعالى- ووقعت هذه الجملة استهلالاً لخمس سور من سور القرآن الكريم، ولكن اختلفت الأوصاف التي بعدها في كل سورة عن الأخرى، وذلك يرجع إلى المقصد، والسياق، والمقام، والترتيب الذي جاءت عليه هذه السور.

فجاءت فاتحة الكتاب بـ "الحمد لله رب العالمين"، والحمد لله جملة مكونة من: مبتدأ خبره الجار والمجرور المتعلق بمحذوف، ورب صفة لاسم الجلالة، وتصلح بدلاً منه، والعالمين مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

وجاءت بعدها سورة الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

جمال الدلالة مجموع في الجملة الأولى، وتفصيله يتخلل السياق كله، وبراعة الاستهلال مؤشر لما بني عليه السياق، وفيه دلالة على معانيها، ومفتاح كل شيء يدل عليه، وفي السور الخمس المستهلة بالحمد تختلف الصفة التي جاءت بعد اسم الجلالة، بما يتناسب مع مقصود السورة، ويدل على جمال الدلالة في مقدمتها، ثم في أغراض بنائها، وجملة مضمونها، ففي الفاتحة جاءت الصفة "رب" صفة لاسم الجلالة، وهنا جاءت صفة اسم الجلالة اسماً موصولاً "الذي".

وفيه أسرار جمّة -كما يقول الشيخ عبد القاهر- سنقف عندها مع الدراسة ...
وجملة "خلق السماوات والأرض" صلة الموصول.

وكذلك الشأن في السورة الثالثة التي استهلّت بـ "الحمد لله" سورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ جاء نعت اسم الجلالة باسم الموصول كما هو في الأنعام، ولكن الصلة اختلفت عنها هنا، وكذلك الشأن في سورة سبأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ جاء نعت اسم الجلالة أيضاً باسم الموصول، أما سورة فاطر فجاء نعت اسم الجلالة اسم فاعل "فاطر" قال -تعالى-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

جمال دلالة جملة "الحمد لله" في السور الخمس المستهلة بها:

وأول ما يطالعنا من جمال دلالة جملة "الحمد لله" هو بحث العلاقة بين السور الخمس التي استهلّت بهذه الجملة، مع تباعد ما بينها باعتبار ترتيب سور المصحف الشريف؛ أي لم تتجاوز كما تجاورت بعض السور التي اتحد مفتاحها كبعض السور المستهلة بـ "الم" أو "طس" وما يشق منها، أو "حم"، فقد وقعت سورة الفاتحة افتتاحاً للقرآن، كما هو مسماها الغالب عليها إضافة إلى المسميات الأخرى، نحو "أم القرآن؛ لاشتماله على معاني القرآن إجمالاً بما فيه من عقيدة وشريعة، وفي ذلك حديث للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وتسمى أيضاً "الوافية"؛

لوفائها بالمعاني القرآنية و"الكافية"؛ لكفايتها المؤمن وإمداده بكل خير، و"الكنز"؛ لما قال ربنا في الحديث القدسي: "الفاتحة كنز من كنوز عرشي"، و"الشفاء"؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السام" أي الموت، و"السبع المثاني"؛ لأنها تثنى في الصلاة، وتسمى بـ"الصلاة"، و"الحمد"، و"الواقية"، و"الراقية"، و"الكنز" ... وغير ذلك مما جمعه بعض المفسرين...^(١).

وقيل: إنها أول سورة نزلت كاملة، ولذلك بدئ بها المصحف الشريف، وقيل إنها نزلت بمكة بعد سورة المدثر، وهو قول أكثر العلماء، وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول مجاهد، وقيل: نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، وسبب ذلك: التنبيه على شرفها، وفضلها، وإذا كانت قد نزلت بعد سورة المدثر فهي خامسة سور القرآن نزولاً ... وهي من القرآن بمنزلة المقدمة للكتاب؛ لأنها تبين الغرض منه؛ ليكون القارئ على بصيرة قبل الشروع فيه...^(٢).

وبين هذه السورة المفتحة بـ"الحمد لله" ونظيرتها المكية أيضًا المفتحة بنفس الافتتاح، وهي سورة الأنعام، بينهما أربع سور، وبين الأنعام والكهف -ثلاثة السور المستهلة بالحمد- إحدى عشرة سورة، وبين الكهف وسبأ خمس عشرة سورة، وختمت السور الخمس بسورة فاطر ولم يكن بينها وبين سبأ فاصل.

وتقارب الفواتح يدل على رباط وثيق، لم يتوقف عند مقصودها، فكل سورة مقصد تستظل به معانيها، فمقصود سورة الفاتحة -كما قال البقاعي-: "مراقبة العباد لربهم" وأسمائها دالة على ذلك، واسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تلحظ المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال بالإجمال على تفصيل ما فيه .. وعلى قدر المقصود من كل سورة تكون عظمتها...^(٣).

والتكامل بين السور الخمس يوضحه فخر الدين الرازي، وهو يتحدث عن آخر السور المستهلة بالحمد لله، وجمعه سعد الدين التفنازاني، وشرحه برهان الدين

(١) ينظر في ذلك: البحر المحيط لأبي حيان، ٣٢/١، مصاعد النظر ٢٠٩/١.

(٢) ينظر: النظم الفني في القرآن، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ص ٤٢.

(٣) مصاعد النظر، ٢٠٩/٢ باختصار.

البقاعي، ويتلخص ذلك في أن الحمد في الفاتحة إشارة إلى جميع النعم، وفي الأنعام إشارة إلى الإيجاد أولاً، وفي الكهف إشارة إلى الإبقاء أولاً، وفي سبأ إشارة إلى الإيجاد ثانياً، وفي فاطر إشارة إلى الإبقاء ثانياً، فهذه نعم تترايط، وتتقارب، وتتكامل، وهنا يبرز جمال دلالة الاستدلال بالحمد في خمس سور، كأنها في القرآن الكريم أعمدة توصل عموم الحمد، ثم يتفرع عنها الحمد على نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، أي الإيجاد الدنيوي، والإبقاء الأخروي، ولا بد من ذكر كلام الرازي لتجلى المسألة، ويعظم جمال دلالة الاستهلال بالحمد خمس مرات في كتاب الله، بالإضافة إلى جمال البناء وتغير الوصف -كما سيأتي- وفي بيان ترابط النعم يقول الرازي: "قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، وجود، وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة، وإبقاء أخرى، وقوله -تعالى-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، وأسند للفاعلية بقوله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ وقوله في الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء، والصالح، بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس، ولا يفضل بينهم، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل، والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحرش، وأسند للفاعلية بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الأجسام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأرواح، ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾، وقول الكافرين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، وهنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله -تعالى-: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله...^(١).

وهذا كله مجموع في أم الكتاب، يقول سعد الدين التفتازاني: "نعمة الله على كثرتها ترجع إلى إيجاد وإبقاء أولاً، وإيجاد وإبقاء ثانياً، فيحمده على القسمين، تأسياً

(١) تفسيره، ج ٢/٢٦.

بالسور المفتحة بالتحميد؛ حيث أشير في الفاتحة إلى الجميع، وفي الأنعام إلى الإيجاد، وفي الكهف إلى الإبقاء أولاً، وفي السبأ إلى الإيجاد، وفي الملائكة إلى الإبقاء...^(١).

والذي يقصده بأن الجميع في الفاتحة لشمولها لمطلق الحمد؛ بالإضافة إلى أن معنى "رب العالمين" أي مُوجدهم، ومالكهم، وهذا هو الإيجاد الأول، وقوله "مالك يوم الدين" هو الإيجاد الثاني، و"الرحمن الرحيم" هو المنعم بجلائل النعم، ودقائقها، وهذا هو الإبقاء الأول، والإبقاء الثاني في التخصيص بالعبادة والاستعانة "إياك نعبد وإياك نستعين"، ومن ثم كانت أم الكتاب بكل ما فيه من دقائق وجلائل... فجمال الدلالة في هذا الاستهلال بالجملة الخبرية "الحمد لله" في السور الخمس هو عموم الحمد، وشموله للإيجاد والإبقاء أولاً وآخرًا، ويضاف إلى ذلك من جمال الدلالة براعة الاستهلال، وجمال الابتداء في ما يخص وما يعم من أمور النعم التي تشمل فضل الله في الأولى والآخرة، وعلى ذلك ففاتحة الكتاب تجمع استهلالين؛ أولهما: الاستهلال للكتاب كله لشمولها عموم مقاصده، وجمال معانيه، بالإضافة إلى ما فيها من معالم البلاغة نحو عموم الحمد وإطلاقه؛ لأنه بذلك يستغرق جميع المحامد؛ لأن "ال" فيه للاستغراق والعموم... وما في معنى "الحمد" من الأمر؛ أي قولوا: الحمد لله، والاختصاص في اسم الجلالة "الله" فهذا اختصاص باللام، وفيه الاختصاص بالإضافة في "مالك يوم الدين" وبلاغة التقديم في "إياك نعبد وإياك نستعين" والالتفات من الغيبة إلى الخطاب فيه قمة الدلالة على خلوص العبادة لله - عز وجل - والالتفات هنا - كما قال شيخنا أبو موسى - يشير إلى تصاعد الإحساس بالجدل حتى تخلص النفس في مراحل عروجها من شئونها الأرضية، فتشافه الحق، وتعلن هناك غاية العبودية والاستسلام^(٢).

(١) شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط١٩٩٦م، ٦/١.

(٢) خصائص التراكيب، ٢٠١.

فإذا كانت جملة "الحمد لله" على إطلاقها، ففي السورة كذلك بلاغة القرآن مع إيجازها وإجمالها، جمعها السيوطي في قوله: "فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة، وأنواع البلاغة"^(١).

ويكفي جمال دلالة هذه الجملة سر التعبير بها دون الشكر ونظائره، وفيه يقول أبو هلال: "الفرق بين الشكر والحمد أن الشكر: هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، والحمد: الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به، ويصح على النعمة وغيرها، والشكر لا يصح إلا على النعمة..."^(٢).

فالحمد فيه اختصاص برب العالمين؛ لذا قال "الله" لغاية جلاله وإنعامه، ويقول الرازي: "كل ما كان حمدًا وثناءً فهو لله وحقه، وملكه"^(٣).

وكل سورة استهلّت بالحمد لله، فيها من الدلائل والجلائل الدالة على عظمة الله ما يناسب هذا الاستهلال، وقد تجلّى ما بين السور الخمس من رباط، يكفي في جمال الدلالة وبراعة السياق الذي تقيده الجملة وحدها؛ وهو مفصل في بناء سورها.

جمال الدلالة في اختلاف الوصف في السور الخمس:

ويبقى من جمال الدلالة على إطلاق الحمد لله في كل الأمور، وعلى كل الأحوال، ووجوب ذلك له خاصة، يبقى الفرق بين ما وصف به في كل سورة، فهو كما تبين وصف بـ"رب العالمين" في الفاتحة، وبـ"فاطر" في سورة فاطر، واتفق الوصف باسم الموصول "الذي" في الثلاثة التي بين ذلك: الأنعام، الكهف، سبأ، ففي الأنعام: الذي خلق السماوات والأرض.. وهذا هو الإيجاد الأول، وفي سبأ: الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة، وهذا هو الإيجاد الثاني، وفي الكهف: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وهذا هو الإبقاء الأول، وفي فاطر: الحمد لله فاطر السماوات والأرض... وهذا هو الإبقاء الثاني... و"رب العالمين"

(١) معترك الأقران، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الحرم، ٧٥/١.

(٢) الفروق اللغوية، تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب، ١٩٨١م، ٣٥ باختصار.

(٣) تفسيره، ٢٢٥/١.

في الفاتحة يجمع كل ذلك، فاسم الموصول في الأنعام، والكهف إشارة إلى إيجاد وإبقاء أولاً، واسم الموصول في سبأ وفاطر إيجاد وإبقاء ثانيًا، وهذا يدل على أن اسم الموصول "يشير إلى خفايا وجلائل، كما قال الشيخ عبد القاهر: "اعلم أن لك في "الذي" علمًا كثيرًا، وأسرارًا جمّة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتتلج الصدر بما يفضي بك إلى اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين"، وذكر من ذلك قولهم: إن "الذي" اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل"^(١).

وهذا خير دليل على أن اسم الموصول "الذي" الذي جاء في سور: الأنعام، والكهف، وسبأ، كان مقدمة لأوصاف وحقائق بنيت عليها كل سورة من هذه السور من دلائل الإيجاد في الأنعام، والإبقاء في الكهف، والإيجاد الثاني في سبأ، ويضاهيه الوصف بـ"فاطر" في سورة الملائكة؛ لأن الذي فطر قادر على الإبقاء ثانيًا، وفي كل سورة منها ما لو تأملناها أو درسناها لوجدنا لكل وصف دائل وشواهد، فلو تأملنا في نسيج بناء هذه السور لألفينا الدلالة القاطعة على وحدانية الله من بداية اختصاص الحمد "الحمد لله" ونعمة الخلق المقتضية لذلك، وكذا نعمة إنزال الكتاب في الكهف وما فيها من دلائل باهرة وقوى قاطعة، والملكية في سبأ "له ما في السماوات...". و"قالق" في الأنعام تضاهي "فاطر" في فاطر، لتجلي القدرة على الجمع بين إيجاد أول وإبقاء آخر.. ومعالج كل سورة تشهد بما فيها من نعم تستدعي عموم الحمد على كل نعمة، وإطلاقه كذلك، ثم خصوصه بهذا الإطلاق؛ أي لا يستحقه على كل حال سواه؛ لأن كل ما جاء من عند الله خير للإنسان، علمه الإنسان، أو لم يعلمه.. فكل ما جاء في حيز الصلة معضد لمضمونها، ومبرز لما فيها من أسرار جمّة، وخفايا تؤنس النفس وتتلج الصدر، وهذا يحتاج إلى دراسة بناء كل سورة، وليس هنا مجاله.. فيكفي هنا استخلاص جمال الدلالة من النص الخاص، والسياق العام.

ونخلص من ذلك إلى أن هذه السور الخمس تمثل حلقة متكاملة في بيان دلائل نعم الله ووحدانيته، وبالغ قدرته، وكل ما جاء صلة للموصول، وما بني عليه في

(١) دلائل الإعجاز، ١٩٩.

الأنعام والكهف وسبأ دليل قاطع على ذلك، ويبقى عندنا الوصف بـ"رب العالمين" في الفاتحة، والوصف "فاطر السماوات والأرض" في سورة الملائكة، التي كان الوصف فيها "فاطر، وجاعل" الدالان على طلاقة القدرة، وثبات الدلالة على عظمة الله - سبحانه- في الدنيا والآخرة.

ويبين الراغب أن "جاعل" من جعل عام في الأفعال كلها ... وهذا يدل على قدرة الحق على الإبقاء ثانيًا، كأحسن ما كان في الإبقاء أولًا، وجاء التعبير بـ"فاطر" للتدليل على أن الإبقاء الثاني لا يقل إبداعًا عن الإبقاء الأول، والحديث عن نعم الله في السورة دليل على أن دار الجزاء أتم وأكمل في بيان نعم الله وعطائه.

ومع كل ذلك فالوصف بـ"رب العالمين" في أول سورة من السور الخمس يجمع كل ما تم تفصيله فيها، فاسم الجلالة "الله" فيه من القوة والهيمنة ما لا يُحدّ ولا يُعدّ، ولا يستطيع جمعه بشر، وكلمة "رب" أضيفت للعالمين، فكان لا بد منها حينئذٍ؛ لما في مدلولها من الشفقة والرحمة، ثم إن هذا في فاتحة الكتاب، فلا بد من الجمع بين الترهيب والترغيب، والقرآن مشتمل عليهما، وكما سبق فاتحة الكتاب جامعة لما جاء به الكتاب الذي تجلى منه أن: "لكل نوع من المعنى نوعًا من اللفظ، هو به أخص وأولى، وضروبًا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذًا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل..."^(١).

ومن هذا القبيل كانت السور الخمس المستهلة بالحمد دائرة كبرى تحيط بعظمة الله رحمةً وقدرةً، سواء في نعمة الإيجاد، أو نعمة الإبقاء، فهي أصول كبيرة توزعت بين ثنايا الكتاب العزيز، واستهلالها بـ"الحمد لله" فيه دلالة على أن كل ما يجري في غيرها من سور القرآن الكريم قائم عليها ومبني على دعائهما، وكأنها أقطاب تدور عليها معالم استحقاق الحمد وإطلاقه لله، واختصاصه به، وليس هناك في البيان أجمل دلالة على قدرة الله، وإحاطة علمه، وطلاقة عظمته، وبراعة رحمته، من هذا الذي رأيناه في سور خمس استهلالها واحد، وجامعة للحياتين والبقاءين، وأول أوصاف الله فيها "رب العالمين".

(١) دلائل الإعجاز، ٥٧٥.

ثانياً: الاستهلال باسم الإشارة بعد حروف التهجي:

جمال الدلالة في التعبير باسم الإشارة:

ومن جمال الدلالة في سياق الجملة الخبرية أيضاً الإشارة إلى الكتاب، والإشارة إلى آيات الكتاب، مع اختلاف اسم الإشارة بين "ذلك" و"تلك" والأولى هي الوحيدة التي دخلت على الكتاب في القرآن كله، سواء في فاتحة السور أو في داخلها... وهي قوله -تعالى- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَازِبٌ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، أما الإخبار بـ"تلك" فجاء عن آيات الكتاب، وفرق بين الإشارة إلى الكتاب مباشرة، والإشارة إلى آياته، وجاء ذلك في سبع فواتح من سور القرآن الكريم بعد الحروف المقطعة التي استهلّت بها كل سورة من هذه السور، ولكن اختلف وصف الكتاب بين "حكيم" و"مبين"، والقسم، فجاء "حكيم" وصفاً للكتاب مرتين بعد الحروف المقطعة أيضاً ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١، ولقمان: ٢]، وجاء "مبين" وصفاً للكتاب في ثلاث آيات هي: قوله -تعالى-: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١، والشعراء: ١، والقصاص: ٢]، وجاء العطف عليها مرتين، مرة باسم الموصول ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١] ومرة بـ"القرآن" ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

فهذه جمل ابتدائية لا محل لها من الإعراب، أي لا تقع موقع المفرد، ووراء كل واحدة منها دلالة، يبين السياق جمالها؛ لتكون نصّاً في غرض معين.

ونبدأ بالجملة الخبرية الأولى التي لا مثيل لها في الكتاب كله، وهي قوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، وموقف الجمل التي بعدها منها، كما يأتي:

جملة ذلك الكتاب، جملة خبرية، فاسم الإشارة (ذا) مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف للخطاب، و"الكتاب" خبر عن اسم الإشارة "ذلك"، ويصلح أن يكون بدلا من ذا، أو عطف بيان، والخبر جملة "لا ريب فيه" واسم الإشارة "ذلك" في كلام البلاغيين يفيد التعبير به: كمال العناية بتمييزه أكمل تمييز، وهنا نلاحظ في "ذلك الكتاب" التوسل ببعده إلى التعظيم، وعلو الدرجة، كما أن تعريف

الخبر باللام يدل على الحصر، وبناء عليه يكون معنى الجملة: ذلك الكتاب الذي يستأهل أن يسمى كتابًا، وهذا من التحدي الذي يدفع ويدحض حجج المشككين، ولذلك جاءت جملة "لا ريب فيه" توكيدًا معنويًا لجملة "ذلك الكتاب" والتوكيد المعنوي في الجمل هو: أن تختلف الجملتان لفظًا ومفهومًا، ولكن يلزم من ثبوت معنى إحداهما ثبوت معنى الأخرى، وجاء ذلك هنا بين جملة "ذلك الكتاب" وجملة "لا ريب فيه"؛ لأنه لما بولغ في وصف الكتاب ببلوغه الدرجة القصوى في الكمال بجعل المبتدأ "ذلك" الدال على التمييز، والرفعة، وعلو المكانة بما لا يدرك كنهها، ثم تعريف الخبر باللام "الكتاب" وكان عند السامع -قبل أن يدقق النظر فيه- مظنة أن يرمى به جزأً دون تحقيق، أتبعه "لا ريب فيه" نفيًا لذلك التوهم، وهنا لا يصح العطف بين التوكيد المعنوي ومتبوعه؛ لكمال الاتصال بينهما، وهو الذي سماه الشيخ عبد القاهر: الاتصال إلى الغاية، وذكر أن جملة "لا ريب فيه" بيان، وتوكيد، وتحقيق لقوله "ذلك الكتاب" وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية لتثبته، وليس يثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضم يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه"^(١).

وهذا بخلاف جملة "هدى للمتقين" فإنها توكيد لفظي لجملة "ذلك الكتاب"، والتوكيد اللفظي في الجمل هو: أن تخلف الجملتان لفظًا ومفهومًا، ولكن يلزم من ثبوت معنى إحداهما ثبوت معنى الأخرى، ومعنى "هدى للمتقين" أنه بلغ في الهداية درجة لا يدرك كنهها؛ لما في تنكير "هدى" من الإبهام والتفخيم، حتى كأنه هداية محضة، حيث قال "هدى" ولم يقل "هاد" لاشتماله على البيئات التي لوضوحها، ونصوح دلالتها يهتدي بها المنصف بأدنى لمحة، وتضمنل معه الشبه فلا يتوهم لها صحة، وهذا المعنى ذاته هو المجمل في قوله: "ذلك الكتاب" أي الذي بلغ من الكمال درجة لا تحد ولا تعد، وهذا هو التحدي لمن قالوا عنه: سحرًا، وشعرًا ..

وهنا ناسب التعبير باسم الإشارة "ذلك" الدال على علو المنزلة، وارتفاع المكانة بما لا يصلح معها وصف آخر يقلل من شأنه، فجمال الدلالة هاهنا هو التمييز

(١) دلائل الإعجاز، ٢٢٧، وينظر: ٢٤٣.

الأكمل، والعلو الأمثل، وذلك يتجلى من الجملة بأكملها، وتؤكد الجملة بعدها مرتين توكيداً معنوياً في جملة "لا ريب فيه"، ولفظياً في جملة "هدى للمتقين"، وقد جمع التعبير بـ"ذلك" هنا مع معالم القوة والرفعة قمة الإيجاز، فجملة "ذلك الكتاب" في صدر القرآن الكريم، وعدم تكرارها في أي موطن آخر منه بهذا البناء المحكم، دلت دلالة قاطعة على قطع كل كلام يعكس ذلك، ودحض كل افتراء بحجة بالغة، غاية في الإيجاز الذي هو سمت البلاغة، ورأس الأمر وعموده، وذروة سنامه فيها ..

وأرى أن اسم الإشارة "ذلك" الدال على البعد، والعلو، والتميز، فيه العلم الكثير، والأسرار الجمة، والخفايا التي تؤنس النفس وتثلج الصدر، بما يفضي به إلى اليقين، ويؤديه من حسن التبيين ... وغير ذلك من الأوصاف التي ذكرها عبد القاهر في اسم الموصول "الذي" كما سبق، فإذا كان اسم الموصول "الذي" فيه هذه الأوصاف واجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمال، فإنني أرى هذه المنزلة بنمط أبلغ في التعبير باسم الإشارة "ذلك" في مقامه الذي ورد فيه، وسياقه الذي يُجلي أسمى معانيه ... ومن ثم وقع في صدارة القرآن الكريم، بعد سورة الفاتحة التي أجملت معاني القرآن الكريم، وهنا بداية التفصيل بعد الحروف المقطعة التي من معانيها: التحدي، يأتي التعبير بـ"ذلك الكتاب" ليقطع قول كل خطيب، ويدحض كل افتراء، ويقتل كل شبهة، وهكذا يتجلى جمال الدلالة في النص باسم الإشارة "ذلك الكتاب"، والسياق يشد أزرها ويقوى عضدها تفصيلاً وتبيانياً ..

وقفة تأمل:

وهذا جمال الدلالة في ثلاث جمل خبرية في مقدمة السورة، الأولى منها دليل الرفعة والسمو، والثانية تؤكد ذلك بنفي كل ريب، والثالثة تؤكد الأولى أيضاً مع بيان أسباب العلو والرفعة، وثالثتها فريدة في فواتح القرآن الكريم متصلة على ما هي عليه في صدر سورة البقرة، أو منفصلة كل واحدة لحالها، ولكن جملة: "لا ريب فيه" وردت في سياق بعض السور عن يوم القيامة، كقوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وجملة "لا ريب فيه" جاءت خبراً عن الكتاب في سياق

سورة يونس، وليس في أولها، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧].

وورد في القرآن "تنزيل الكتاب" وسأتحدث بعد الانتهاء من جمال الدلالة في الآيات المستهله باسم الإشارة في مقدمات السور السبع كما سبق ليتجلى الفرق بين البداية بـ"ذلك الكتاب" جملة خبرية، وبين "تلك آيات الكتاب" جملة خبرية أخرى لها دلالة، فلماذا في البقرة قال "ذلك الكتاب" وهنا "تلك آيات الكتاب" مع اختلاف وصف الكتاب في بعض السور، واتفاقه في بعضها ...

فهناك قال: "ذلك الكتاب" مؤدياً معنى تاماً له دلالة كما تبين، وهنا قال: "تلك آيات الكتاب" في سبع سور، أولها يونس، والفرق بين ذلك وتلك: أن الأولى للمذكر والثانية للمؤنث، وكل منهما يفيد البعد، والبُعد يقدر حسب المقام والسياق، إن كان للزمان، أو المكان، أو بعد المنزلة، فكل من ذا، وتاء، اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعيد، والكاف للخطاب، ولما كان الحديث هناك عن الكتاب جاء التعبير بـ "ذلك الكتاب" ولما كان الحديث هنا عن آيات الكتاب قال: "تلك آيات الكتاب"، والكتاب في الأولى خبر "ذلك الكتاب" تمّ به المطلوب إثباته، والجمل بعده براهين قاطعة بدلالة التعبير به، وهنا "آيات الكتاب" خبر عن "تلك" والكتاب مضاف إليه، وهناك في أول البقرة عبر بـ"الكتاب" إجمالاً؛ لبيان مكانته، وإثبات رفعتة، وبراءته من كل ريب، وليتناسب مع التحدي الواضح في السورة في قوله -تعالى-: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ... ﴾ [البقرة: ٢٣]، ونظائره في غيرها من السور "آيات التحدي".

ولكن لماذا جاء التعبير بعد ذلك بـ"آيات الكتاب" كما في سورة يونس ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [الآية ١]، وفيه يقول الزمخشري: "تلك آيات الكتاب إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات.

والكتاب هو: السورة، والحكيم ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثة، قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة ★★ قد قلتها ليقال من ذا قالها^(١)

وأضاف الرازي سؤالاً مرداه: أن "تلك" يشار بها إلى الغائب، وآيات هذه السورة حاضرة، فكيف يحسن أن يشار إليه بلفظ "تلك"؟

وأحال إلى ما ذكره في سورة البقرة إجابة عن ذلك، وخلصته: لا نسلم أن المشار إليه حاضر؛ لأن الله أنزل الكتاب بعضه بعد بعض، وهناك سور كثيرة نزلت بعد سورة البقرة... وقد يُسمى بعض القرآن قرآناً، كما أن الله وعد رسوله عند مبعثه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماحي، وقد أخبر الرسول أمته بذلك، ويؤيده قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وأفضل ما جاء في جوابه عن ذلك قوله: إن القرآن لما اشتمل على حكم عظيمة، وعلوم كثيرة، يتعسر اطلاع القوة البشرية عليها بأسرها -والقرآن وإن كان حاضراً نظراً إلى صورته، لكنه غائب نظراً إلى أسراره وحقائقه- فجاز أن يشار إليه كما يشار إلى البعيد الغائب^(٢).

وأضاف الغرناطي: أن المقصود بالآيات: "الدلائل والبراهين لمن وُفق، وسبقت له الحسنی، وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد"^(٣).

مناقشة بيان الرازي:

وليس الأمر على ما قال الرازي من أن الآيات حاضرة فكيف يشار إليها بـ"تلك" وهي للغائب؛ لأنه ليس المقصود الإشارة المحسوسة وأنها حاضرة أو غائبة، بل هي إشارة إلى بُعد المنزلة، تنبه إلى مكانة هذه الآيات، ويشار إلى الجزء ويراد به الكل، كما كانت تفعل العرب في ذكر الجزء والمراد الكل، وهو من تعبيرات القرآن الكريم أيضاً؛ كقوله -تعالى-: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، والمراد

(١) الكشف، ٢٢٦/٢.

(٢) تفسيره، ١٧/١٨٣، ٢/١٤ بتصرف واختصار.

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٩٩٠م، ٢٧٥.

بالوجه هنا جملة الإنسان؛ لأنه عندما يستقبل القبلة يتوجه إليها بجميع جسده، وليس بالوجه فقط، فهنا ذكر الآيات "تلك آيات الكتاب" في بعض السور، والمقصود كل الآيات التي اشتمل عليها الكتاب الكريم؛ لدلالة البعض على الجميع، كما يسمى بعض القرآن قرآناً ..

ومن ثم يتجلى جمال الدلالة في هذه الجملة الخبرية "تلك آيات الكتاب" ونظائرها في سور: يوسف، والرعد، والحجر، والشعراء، والقصاص، ولقمان، بعد الفواتح التي بدأت بها كل سورة.

ويتلخص جمال الدلالة في بيان منزلة الآيات التي تضمنها هذا الكتاب، وما فيها من نفع ظاهر وباطن يتناسب مع نعم الله التي قال فيها ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠]، وهذه الآيات بما فيها من: حكم، ومواعظ، وأسرار، وحقائق تهدي للتي هي أقوم، جديرة بأن يعبر عنها بما يفيد علو المكانة وشرف المنزلة.

دلالة اختلاف الوصف:

ولكن إتماماً لبلاغة هذه الجملة، وعلو دلالتها يبقى السؤال: لماذا اختلف وصف الكتاب فجاء "الحكيم" في بعضها و"المبين" في بعضها الآخر؟

جاء الوصف بـ"الحكيم" في آيتي يونس، ولقمان، وهما أول سورة جاء التعبير في جملتها هذه بـ"تلك"، وآخر سورة كذلك، ثم جاء الوصف بـ"المبين" في: يوسف، والشعراء، والقصاص.

وعند التأمل نجد الفرق اللغوي بين: حكيم ومبين يتجلى في: أن: الحاء والكاف والميم أصل واحد وهو المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، والباء والياء والنون أصل واحد وهو بُعد الشيء وانكشافه^(١).

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: حكم، بين.

فالحكيم يدل على الحكمة والإحكام في كل الحقائق والأسرار، والكتاب - كما قال الشيخ محمد رشيد رضا - يوصف بالحكمة في معانيه، والأحكام في مبانيه، وهو حقيق بهداية متدبره وواعيه. (١)

والمبين هو البين الواضح في دلائله وغاياته لكل شيء، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيِّنًا، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ حَكِيمًا، وَلِذَلِكَ قِيلَ التَّقْدِيرُ: حَكِيمٌ قَائِلُهُ مِنْ بَابِ التَّجَوُّزِ فِي الْإِسْنَادِ، وَهُوَ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ، وَيَبَيِّنُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ رَشِيدُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] قائلًا: "فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بـ"المبين" هنا، وبـ"الحكيم" هنالك، وهما في أعلى ذروة من البيان وأقصى مدى من الحكمة والإحكام، اختير في كل من السورتين ما يناسبهما، فسورة يونس موضوعها: أصل الدين، وهو توحيد الألوهية والربوبية، وإثبات الوحي والرسالة بإعجاز القرآن والبعث والجزاء، وهي من الحكمة، وهذه - أي سورة يوسف - موضوعها: قصة نبي كريم، تقلب في أطوار كثيرة، كان قدوة خير، وأسوة حسنة فيها كلها، فالبيان بها أخص" (٢).

وفي بناء سورة يونس ما يدل على اشتماله على الحكمة؛ لأنها تتحدث عن إبطال شبههم، وتحديهم، ودعوتهم إلى تصديقه ...

أما سورة يوسف فمقصودها وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى لما ثبت فيما مضى ... وقصة يوسف وخاصة بيان الرؤيا - أي تأويلها - خير دليل على ذلك، فناسب هناك الوصف بـ(الحكيم) وهنا بـ(المبين) وسورة لقمان مقصودها: إثبات الحكمة، وقصة لقمان فيها خير دليل على ذلك، ويقصد منها: بيان الموافقة بين ما جاء به القرآن من الحكمة المنزلة، وما جاءه به لقمان الحكيم من الحكمة المأثورة عنه؛ إذ كان يدعو إلى الإيمان بالله، ويأمر بمكارم الأخلاق ... (٣).

(١) ينظر: تفسير المنار، ١١/١١٨.

(٢) السابق ١٢/٢٠٧.

(٣) ينظر: النظم الفني في القرآن، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ١٣٧، ١٤٩، ٢٣٩.

وكذا كل من الشعراء والقصاص تنوه بشأن القرآن وحس بيانه، وما فيه من القصص، وهذا يناسبه وصف الكتاب بـ"المبين".

ومقصود الشعراء: أنه بيّن في نفسه، مبين لكل ملتبس.

ومقصود القصص: التواضع لله المستلزم لرد الأمر كله إليه ... المظهر للخفايا على لسان من لم يتعظ قط ...^(١)، وهذا مما يتناسب معه الإبانة ... ومن هنا تجلّى أن كل وصف كان في موضعه الأخص به؛ بحيث لا يصلح أحدهما في موضع الآخر؛ لأنه كلام من ليس كمثلته شيء.

وجمال الدلالة يعبر عن هذا الإحكام الذي تم تفصيله في السورة التي صُدّر بها، كما أنه يعبر عن هذا البيان الذي تجلّى في سياق السور التي صُدّر بها، ولكل سورة مفتاح يناسبها ويتواءم مع موضوعاتها المفصلة لمقصودها الأعظم، فالحكيم من الإحكام، والمبين من الإبانة، وكل ذلك ينطبق على بيان الله، ولكن بعض السور غلب عليها ما يتعلق بالأحكام كأمر العقيدة والشريعة، وبعضها يكون قائماً على موضوعات تحتاج إبانة وتوضيحاً، فكان لكل ما يناسبه، وتلك دلالة كل وصف تنبثق من سياقه وتجتمع جملة في وصف يوافق التفصيل الذي أقيمت عليه السورة.

أما أول الرعد فلم يوصف الكتاب بشيء، ولكن عطف عليه جملة أخرى تعضد رفعة آياته، وعلو شأنها، وأنها الجديرة بأن تسمى الآيات لا غيرها، والوقف على قوله "الكتاب" فيه هز لأوتار القلوب؛ لأن السورة مملوءة بالآيات الساطعة، والبراهين القاطعة، ففيها الحديث عن: رفع السماوات بغير عمد ترونها، وفيها الحديث عن الأرض يختلف إخراجها مع تجاورها وسقيها بماء واحد ﴿وَنُفِضَ لَهَا بِعَضْوَانٍ مِّنْ سَحَابٍ مِّمَّا تَمِيدُ بِهَا وَاللَّهُ عَالِمُ غَيْبَاتِهَا وَنُفِضَ لَهَا بِعَضْوَانٍ مِّنْ سَحَابٍ مِّمَّا تَمِيدُ بِهَا﴾، وفيها ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ إلى آخر العجائب التي أقيمت عليها السورة، فالكتاب في صدر هذه السورة لا يحتاج وصفاً، وعدم وجود الوصف فيه دل على أن فيه كل الأوصاف من الحكمة والإبانة، وجميع أوصاف الكمال التي لا تحد بوصف واحد، لذلك عطف عليه جملة أخرى تثبت أنه الحق لا غيره، ويتجلّى جمال

(١) ينظر: مصاعد النظر ٢/٢٢٤، ٣٢٦.

الدلالة على عدم الوصف هنا بقمة الكمال، وأنه لا حق إلا ما أنزله الله، وفي هذا دحض لافتراءهم، وتقنيد لضلالهم.

وكذلك الشأن في آية الحجر، لم يوصف فيها الكتاب بشيء بل عطف عليه قوله -تعالى-: ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾، فالقرآن هو الذي تم وصفه، والكتاب بقي على إطلاقه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾.

فالوقف على الكتاب وعدم وصفه هنا يدل على الكمال المطلق، ووصف القرآن بالمبين، وتكثيره "وقرآن" فيه معنى الرفعة والتفخيم، والبيان في آيات السورة جلي، وأعلاه في السورة قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] ... وكذلك الحديث عن الرياح وعن خلق الإنسان وخلق الجان ... إلى أن قال - سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والأمر بالجهر بالدعوة: ﴿فَأصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وختام السورة كله إلى أن قال: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

فالوقف على الكتاب فيه السمو والرفعة، والكمال المطلق، ثم يعطف عليه "وقرآن مبين" بهذا الوصف؛ ليتناسب مع سياق السورة الذي دل عليه مقصودها، وفيه يقول البقاعي: "وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الموضحة للحق من غير اختلاف أصلاً..."^(١).

لكن جاء عكس ذلك في فاتحة سورة النمل، فقدم القرآن وأخر الكتاب، قال - تعالى-: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

وهي الآية الوحيدة التي بنيت بهذا الشكل "تلك آيات القرآن"، فالإشارة هنا أيضًا فيها العلو والرفع، وأنها الآيات التي ليس فوقها آيات، ولكن لماذا قال بعدها هنا "وكتاب مبين" عكس ما سبق في الحجر؟ نلاحظ في الحجر أنه من عطف العام على

(١) مساعد النظر، ٢/٢٠٥.

الخاص؛ لأن الآيات المشار إليها آيات السورة على أرجح الأقوال، وهنا في النمل من عطف العام على الخاص أيضًا بطريقة أخرى، فالكتاب المبين هنا عام؛ لأنه القرآن كله، أما آيات القرآن فخاص لأن المقصود التي بنيت عليها هذه السورة.

وافترض الزمخشري هذا السؤال الذي نبحت عنه فقال: فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله ﴿الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، قلت: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر، وذلك على ضربين: ضرب جاري مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح، فالأول نحو قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف ١٦١]، ومنه ما نحن بصدد، والثاني نحو قوله -تعالى-: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران ١٨] (١).

أي أن الواو لمجرد الجمع بين المتعاطفين، لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، فهما جملتان كل منهما لها دلالة، والجمع بينهما تعظيم لتلك الدلالة، فلما تقدم الكتاب هناك كان معرفًا "تلك آيات الكتاب"، ولما تقدم القرآن هنا كان أيضًا معرفًا "تلك آيات القرآن"، فالمقدم منهما على أي وضع معرف، وتعريفه يدل على كماله المطلق، والمؤخر منهما، والمنكر منهما منون، وهذا تقخيم أيضًا.

وبعض العلماء يرى: أن تقديم الكتاب؛ لأنه ذكر في السورة أكثر، وتقديم القرآن هنا؛ لأنه ذكر في هذه السورة أكثر (٢).

اعتراض وبيان:

ولكن أراها ناحية شكلية لا يبني عليها حكم، ومعلوم أن التقديم فيه أسرار جمّة، وفوائد تؤنس النفس، والعرب إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم، فلا بد من سبب يبين تقديم ما قدم، وأرى أن تقديم القرآن في آية النمل لاتصالها بخاتمة الشعراء قبلها، ودحض افتراءهم، وبيان أن هذا

(١) الكشف، ٣/٣٤٦.

(٢) ينظر: لمسات بيانية، فاضل السمرائي، ١/٩٥٣.

قرآن لا تنطبق عليه أوصاف الشعر الذي تزعمونه فيه، فنفي في الشعراء كونه شعراً بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، فتقدم القرآن هنا بوصفه، ومسماه هذا "قرآن" حتم واجب لإبطال مزاعمهم نحوه، ثم يأتي قوله "وكتاب مبين" تعضيذاً لهذه الفخامة، وهذا الفرق بينه وبين ما يزعمونه، وهذا من تناسب السور وترابط معانيها ...

أما في الحجر فقدم "الكتاب" على القرآن لمناسبة الآيات الباهرات في السورة قبلها، ومناسبة ختامها بقوله -سبحانه-: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُ بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكِّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وآيات الكتاب تتناسب مع هذا الإنذار، وآيات القرآن هناك تتناسب مع الفرق بينه وبين الشعر؛ لأنهم كانوا يذكرونه باسم القرآن، وليس الكتاب.

فجمال دلالة التقديم في كل من السورتين للتناسب مع السورة قبلها، والعطف بينهما يدل على خصوص الكمال في آيات كل سورة، وعمومه للكتاب كله. وهذه نماذج من الجمل الخبرية في السور التي استهلكت بحروف التهجي ... وكلها جمل ابتدائية اسمية.

ثالثاً: جمال الدلالة في الاستهلال بجمل خبرية متنوعة:

وفي فواتح القرآن الكريم جمل خبرية أخرى كثيرة، غير ماسيق، بعضها اسمية وبعضها فعلية، وكلها قائمة على دلالة يفيدتها السياق، جمعها السيوطي في بيان الأقسام العشرة التي افتتح الله -عز وجل- بها سور القرآن الكريم، وسبق أن ذكرنا منها سور الثناء على الله بما هو أهله، وهي السور الخمس التي استهلكت بالحمد، ومن هذه الأنواع: الجمل الخبرية، جاءت في ثلاث وعشرين سورة، هي: يسألونك عن الأنفال، براءة من الله، أتى أمر الله، اقترب للناس حسابهم، قد أفلح المؤمنون، سورة أنزلناها، تنزيل الكتاب، الذين كفروا، إنا فتحنا، اقتربت الساعة، الرحمن علم، قد سمع

الله، الحاققة، سأل سائل، إنا أرسلنا نوحا، لا أقسم في موضعين، عبس، إنا أنزلناه، لم يكن، القارعة، ألهاكم، إنا أعطيناك. فتلك ثلاث وعشرون سورة^(١).

والجمل في هذا الفواتح بعضها اسم وبعضها فعل، أما وقد بدأت بالجمل الاسمية في سورة الحمد، والإشارة إلى الكتاب، واختلاف أوصافه، وتقديم بعض الجمل على بعض، فإني أكمل بعض الفواتح الخبرية بالجمل الاسمية؛ حيث لم يتبق منها سوى اثنتي عشرة جملة في فواتح اثنتي عشرة سورة، بعضها يشبه بعضاً ويمكن الاكتفاء بواحدة منه.

جمال الدلالة في الاستهلال بالمصدر:

ورد الاستهلال بالخبر وهو اسم نكرة في سورتين من سور القرآن الكريم وهما: راءة من الله ورسوله، وسورة أنزلناها وفرضناها؛ حيث جاءت كل منهما خبراً لمبتدأ محذوف، وحده أدل من ذكره على تمكين الخبر في النفس، ومعالم بناء كل سورة منهما بما فيها من أخبار، وأحكام تقتضي ذلك، كما سيأتي.

ولنتأمل قوله -تعالى-: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

كلمة "براءة" لم تذكر في القرآن سوى مرتين، إحداها في شاهدنا هذا، فس استهلال السورة، والثانية في الثلث الأخير من سورة القمر، في قوله -تعالى-: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

والوقوف على جمال دلالة هذه الجملة الخبرية الابتدائية التي لا محل لها من الإعراب يستدعي بحث جوانبها مبناها، ومعناها.

فهي من جهة المبنى "مصدر سماعي لفعل برأ بيراً من باب فرح، بمعنى قطع العصمة، ولم يُبق ثمة علاقة أو صلة، أو بمعنى التباعد، وزنه (فعالة) بفتح الفاء

وتعرب: خبراً لمبتدأ محذوف، أي هذه براءة و(من) لابتداء الغاية متعلق بمحذوف، وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين^(١).

ومن جهة المعنى: هذه براءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، ويجوز أن تكون: براءة مبتدأ لتخصيصها بصفاتها، والخبر: إلى الذين عاهدتم ... والمعنى: إن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذ إليهم ...^(٢).

والتعبير بالمصدر يعطي المعنى قوة وتأصيلاً، ويجعل هذا الاسم للسورة (براءة) محيطاً بالمسميات الأخرى التي أطلقت عليها، وكأنها شرح لها.

جمع كثيراً منها الزمخشري، فقال: "لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدممة، سورة العذاب؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي نقش من النفاق، أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين؛ أي تبحت عنها، وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتقدم عليهم ...^(٣)

فهذه المعاني كامنة فيما صدرت به السورة، والأعظم من ذلك أنها "من الله ورسوله" فهذا قمة الخزي لهؤلاء المتبرئ منهم، وتسمى براءة استهلال أيضاً؛ لأن براءة الاستهلال تعني أن يكون الاستهلال جامعاً لقضايا السورة، ومؤلفاً لها في كلمة أو عبارة، ولا يشترط أن تكون البراعة في الأمور الحسنة، أو الثناء والمدح فقط، بل ينطبق على كل ما يجمع أصول المعاني ويحيط بمعالم السياق.

وجملة خبرية بدأت بالمصدر، وتخلو من ضروب التأكيد، ويدل مضمونها، وموقعها، والسياق الذي تصدرته، والموضوعات التي هيمنت عليها ... يدل هذا على جمال الدلالة فيما هو مراد إثباته بطريق الخبر المعبر عن الواقع؛ حيث تحكي واقعهم في نبذ العهود، وتثبت لهم على أن وعد الله حق، لذلك جاء التعبير بلفظ الهيمنة،

(١) الجدول في إعراب القرآن، ٢٧٧/١٠.

(٢) الكشف، ١٧٢/٢ بقدر من الاختصار.

(٣) السابق ١٧١/١.

والقوة، والسلطان (الله) في قوله سبحانه: (براءة من الله ورسوله) فالمصدر أصل الأسماء، وهذا التخلي يظهر أقوى دلالة في التأكيد على قوة عهد الله، وخزي من نقضه؛ لذلك أعطاهم الله فرصة الأمان أربعة أشهر مبينا قدرته سبحانه، وضعفهم، عسى أن يؤبوا، ولا يتولوا، وإلا فبشارتهم عذاب أليم كما حكاه ربنا في قوله سبحانه: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِّمُوا أَنْتُمْ عَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنْتُمْ عَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾] سورة براءة ٢-٣]

وإذا كان مقصودها -كما قال البقاعي-: معادة من أعرض^(١) فإن المعادة لله ورسوله، خزي، ونكال، وما يترتب عليها من فضائح الدنيا والآخرة، ومن ثم خلت مقدمتها من البسمة، وعلل العلماء ذلك بأن اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، وقيل إنها هي والأنفال قبلها سورة واحدة من الطوال؛ لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطوال؛ لأن في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود... (٢).

فهي جملة تامة، أدت معنى يجمع معالم السورة، ويدل دلالة قاطعة على قوة عهد الله، وقوة الخزي لمن نقضه، واستهان به، كما حدث ممن نبذوا عهودهم فتنبرأ الله منهم، وبراءة الله خزي، ونكال.. فكل ما في السورة من: زجر، ووعيد، وتهديد يقتضي التوبة إلى الله، والرجوع إليه، والصدق معه... ونبذ العهد كان سبباً في إعلام التبرؤ الذي لا وصال بعده.

ويجري في هذا الباب من جهة اللغة قوله -تعالى-: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١].

(١) نظم الدرر، ٣/٢٥٥.

(٢) ينظر: الكشاف، ٢/١٧١.

فـ"سورة" مرفوعة أيضًا بإضمار هذه سورة أنزلناها، ولا ترفعها براجع ذكرها؛ لأن النكرات لا يبتدأ بها قبل أخبارها إلا أن يكون ذلك جوابًا، ألا ترى أنك لا تقول: رجل قام، وإنما الكلام أن تقول: قام رجل، وقُبِح تقديم النكرة قبل خبرها أنها توصل ثم يخبر عنها بخبر سوى الصلة... (١).

فهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه سورة، وجملة: أنزلناها في محل رفع نعت لها، وهذا ضرب من إيجاز القول، وبلاغة التعبير، وتكثيرها يدل على اتساعها، وشمولها لكل ما فيها من آيات بينات، وأمور واضحة، من: الحدود، والأحكام، والآداب، والمواعظ، والأخلاق التي حثت عليها، ودعت إليها، وكلها أمور عالية؛ لأنها عظيمة من العظيم الذي قال: ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

ففيها عظمة العظيم، وقوة الحكيم، ولو قال: هذه سورة (بذكر المبتدأ) لكانت إشارة محدودة لا عظمة فيها ولا علو... وخلوها من أدوات التأكيد يجعلها ضربًا من ضروب الخبر الابتدائية، التي تلقى إلى خالي الذهن، وهي بذلك أعلى وأمكن لدى النفوس من أن تؤكد، أو أن يشار إليها...

وفي ذلك يقول السرخسي: "سورة أنزلناها وفرضناها" أي قطعنا الأحكام قطعًا، وفي هذا الاسم -يقصد الفرض- ما ينبئ عن شدة الرعاية في الحفظ؛ لأنه مقطوع به، وما ينبئ عن التخفيف؛ لأنه مقدر متناه كيلا يصعب علينا أدائه (٢)، فما فيها: إيجاب والزام يتناسب مع فخامة البداية، وعظمة التكرير، التي يجلي السياق رفعتها، ويبرز مكانتها.

جمال الدلالة في الاستهلال باسم الموصول:

ومن الجمل الخبرية التي جمعت معالم لا حد لها، وأحاطت بأبرز معالم فريق الكفر وفريق الإيمان، وأصدرت في مقدمة السورة حكمًا لكل من الفريقين ثم فصلته في سياق السورة بالأدلة والبراهين، الجملة التي استهلّت بها سورة محمد -صلى الله

(١) معاني القرآن للفراء، ٢/٢٤٤.

(٢) أصول السرخسي، ١/١١٠.

عليه وسلّم -وهي قوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿
[محمد: ١، ٢].

فـ"الذين" مبتدأ، وجملة "كفروا" صلة "وصدوا" عطف على "كفروا" و"عن سبيل
الله" متعلقان بـ"صدوا" و"أضل أعمالهم" فعل وفاعل مستتر يعود على الله -تعالى-،
ومفعول به، والجملة خبر الذين^(١)، وجملة "كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم" خبر
"الذين" الثانية ..

لم تستهل سورة في القرآن الكريم بمثل ما استهلته به سورة محمد بالحديث عن
الذين كفروا، ولكن ورد الحديث عنهم بمثل هذا الوصف "كفروا وصدوا عن سبيل الله"
في سياق السورة مرتين، أخبر عنهم في الأولى بأنهم "لن يضرروا الله شيئاً وسيحبط
أعمالهم"، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢]، وأخبر عنهم في
الثانية بقطع نفي الغفران، فقال -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

فكل آية من هذه الآيات الثلاث تخبر عنهم بخبر يناسب صنيعهم، وتسمية
السورة بهذا الاسم "محمد" يتناسب مع وجوب جهادهم، وهو -صلى الله عليه وسلّم-
سيد المجاهدين المدافعين عن دين الله، كيف لا، وهو المسند إليه البلاغ، والمأمور
به، كما قال ربنا: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾
[المائدة: ٦٧] وتسمى أيضاً سورة القتال؛ لأن الحديث فيها عن أهل الضلال،
ومقصودها الأعظم: إدامة الجهاد، حفاظاً على دين الله، ولكن معظم مقصودها
الشكائية من الكفار في إعراضهم عن الحق، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم،
والأمر بالنصرة للإيمان ..^(٢)، وهذا ونحوه مما بنيت عليه السورة يتناسب مع اسميها،

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة، حلب، ط٩، ٢٠٠٥م، ١٨٩/٧.

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي، ٢٩٩/١، ومساعد النظر، ٤٨٥/٢.

ولا سيما الاسم الأول "محمد" فهو خير من يجاهد، وخير من يحافظ على الحقوق، وخير من يعامل الأسرى، فلما كانت السورة مجلية لذلك سميت بذلك؛ لأنها أخلاق القرآن التي كان ملتزماً بها، والتي قالت فيها السيدة عائشة- رضي الله عنها- "كان خلقه القرآن".

والبداية في أول السورة بـ"الذين كفروا" جاءت خالية من التأكيد بخلاف الموقفين داخل السورة، فقد صدرت الجملة بـ"إن الذين كفروا .." وخلوها من التأكيد في فاتحة السورة دليل على إلقاء الخبر على خالي الذهن؛ لأن حرص النبي كان جلياً في هداية القوم، وكانت تذهب نفسه عليهم حسرات، ولم يكن يتمنى لهم ضلال الأعمال، ولم يكن ينتظر منهم الصد عن سبيل الله.

والتعبير باسم الموصول هنا يدل على معرفته بالقوم، وفيه تشويق إلى وجه بناء الخبرة، ومن ثم يكمن جمال دلالة الجملة بمساعدة السياق كله، وقريبه، وبعيده في هذا التشويق، ثم ارتقى هذا المعنى في سياق السورة، تارة يتحدث عنهم ويخبر عن أحوالهم، كما هنا في أول السورة "أضل أعمالهم"، وزاد هذا المعنى في الآية الثامنة في قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [٨]، ثم بين بعدها أنهم لا مولى لهم، وأن النار مثوى لهم، وأنهم لا ناصر لهم، وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم، حتى جاءت الآية الثانية والثلاثون التي نص فيها عليهم وحكم بأنهم ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكانت هذه خبراً عن إحباط الأعمال، وأكدت بـ"إن" لأنه وعيد "سيحبط أعمالهم" وأخبر بعدها بأن من مات منهم على الكفر "فلن يغفر الله لهم"، وهي الآية الثانية التي جاء ذكر الكفار فيها بعد فاتحة السورة بمثل ما جاءت به فاتحة السورة من الكفر والصد عن سبيل الله، أي في الجمع بين الوصفين.

وفي مقابل كل ذلك كان الحديث عن المؤمنين بما يناسبهم؛ لأن فاتحة السورة فيها تقابل بين أهل الباطل، وأهل الحق، فأهل الباطل كفروا وصدوا، وأهل الحق آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم، فالأولون أضل أعمالهم، وهؤلاء كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ... وبدأ بالكفار؛ لأنهم المعنيون ببيان هذه الأحكام في بداية السورة، وخلال سياقها، وشرع القتال والجهاد من أجلهم،

ومن ثم فهذه براعة استهلال تتجلى دلالتها في مناسبة الغرض المقصود الذي استجمع معالمه في فاتحة السورة وصدرت الأحكام فيها على فريق الكفار بما يناسب أعمالهم، وفريق المؤمنين بما يناسب صبرهم وجهادهم.

فكما ذكر في حق الكفار "أضل أعمالهم" قابله في حق المؤمنين بقوله ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [٤] بينما تكرر ضلال الأعمال في حق الكفار مرتين في السورة في الآية الأولى وكذا الثانية مع زيادة فتعسًا لهم، كما قال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، والتعس هو الهلاك والشقاء، أو كما قال الراغب: "التعس: ألا ينتعش من العثرة وأن ينكسر في سفال .. قال -تعالى-: فتعسًا لهم" (١)، وتلك زيادة في النكال، ومن خلال سياق السورة يتجلى أنه كلما ارتقت أحوال المؤمنين في النصر والغفران ومعية الله، ارتقت أحوال الكافرين أضعافها في الهلاك وإحباط الأعمال، وجاء الحديث عن إحباط أعمالهم في السورة ثلاث مرات، مرتين بالماضي، الأولى في قوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الآية ٩]، والثانية ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الآية ٢٨]، والثالثة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبِّطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الآية ٣٢]، وهنا عبر بالسين الدالة على الاستقبال؛ لأن صدهم يتجدد، ولن يتوقف؛ لأنهم شاقوا الرسول، وقطعوا بمشقتهم أي بمخالفتهم، فلن يهتدوا إذا أبدًا لذلك وعد الله بأنه سيحبط أعمالهم كلما صدرت.

ويقول الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور: "وحرف الاستقبال هنا لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدل على أن الله محبط أعمالهم من الآن؛ إذ لا يعجزه ذلك حتى يترصد به المستقبل... (٢)".

وهنا رباط بين إضلال أعمال في أول السورة، وإحباط أعمالهم المتكرر في سياق السورة، فالإضلال إبطال، والإحباط إبطال أيضًا، ولكنه إبطال لا يتحمل الإصلاح

(١) المفردات: "تعس".

(٢) التحرير والتنوير، ١٢٦/٢٦.

بعد ذلك، والوعد الأخير يتناسب مع تجدد أعمالهم الفاسدة، وفيه يقول البقاعي: "وسيحبط؛ أي يفسد فيبطل -بوعد لا خلف فيه- أعمالهم من: المحاسن؛ لبنائها من المنافق على غير أساس ثابت، فهو إنما يرائي بها، ومن المجاهر على غير أساس أصلاً، فلا ينفعهم شيء منها، ومن المكائد التي يريدون بها توهين الإسلام، ويجعل تدميرهم بها في تدبيرهم، وإن تناهوا في إحكامها، فلا تثمر لهم إلا عكس مرادهم" (١). ومن ثم يتجلى جمال دلالة التشويق إلى بناء الخبر في الحكم على هؤلاء، من خلال ترابط السياق في السورة كلها، وما جاء في هذه السورة إنما هو تفصيل للإجمال الذي ختمت به سورة الأحقاف قبلها، وهكذا تترايط سور القرآن وآياته، بحيث تكون كل آية مقدمة للتي بعدها، ومهيئة لها، كما هو بيّن من خلال الشواهد التي وقفت عندها.

جمال الدلالة في الاستهلال بضمير العظمة:

وفي القرآن الكريم أربع فواتح مستهلة بضمير العظمة "إنا"، وهي قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وجملة "إنا أرسلنا"، و"إنا أنزلنا" وإن ذكرت في سياق سور أخرى، إلا أنني معني الآن بما جاء في فواتح السور، وعلاقته بها؛ لتكون دلالة الجملة جامعة لمعالم السياق ...

أما "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" فلم تأت إلا في صدر سورة الفتح، وأكتفي بدراستها جملة خبرية مؤكدة بضمير العظمة؛ لأن هذا الحدث عمل عظيم لا يكون إلا بقدرة العليم الخبير، وفيه يقول الغرناطي: "فعرف -تعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- بعظيم صنعه له، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين العامة، فقال -تعالى-: "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين .." والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وحكم المخلفين من الأعراب، والحض على الجهاد، وبيان حال ذوي الأعدار، وعظيم نعمته - سبحانه - على أهل بيعته ...^(١) فناسب ذلك أن تكون البداية بضمير العظمة، وهذا يتناسب مع نتائج الجهاد في سورة محمد السابقة لها، فهذه ثمرة من ثماره العظيمة، وأعلى ثمرة فيها "الفتح الأعظم" وفي ذلك يقول البقاعي: "فافتتح هذه بقوله على طريق النتيجة لذلك، بقوله مؤكداً إعلماً بأنه لا بد منه، وأنه مما ينبغي أن يؤكد لابتهاج النفوس الفاضلة به، وتكذيب من في قلبه مرض، وهم أغلب الناس في ذلك الوقت: "إنا" بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال "فتحنا" أي أوقعنا الفتح المناسب لعظمتنا لكل متعلق بالأسباب المنتجة له من غير شك، ولذلك عبر عنه بالماضي"^(٢).

وهذا الخبر المؤكد بضمير العظمة يتناسب مع عظمة الجهاد، ودرجة المؤمنين ومنزلتهم عند ربهم، ودركة الكافرين، وإحباط أعمالهم في السورة السابقة، ومكانة الفتح الأعظم في هذه السورة، فالتأكيد هنا يدل على عظمة الخبر، وتجلي عظمة المخبر، والمخبر له ...

ولما كانت أعمال الجهاد والذب عن الدعوة وإعلاء شأنها في مواجهة الصادين عن سبيل الله، لما كان الأمر كذلك جعله علة للمغفرة الكاملة: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً"، وقوله -تعالى- "لك" يفيد التخصيص بهذه البشارة وإن كانت اللام للتعليل لأنها منحة، ودائماً تأتي المنح بعد المحن ... والمحن سبقت في سورة القتال قبلها، والتعبير بالماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وهذا يتناسب مع عظمة الحق القائل "إنا" أي بما لنا من العظمة، ويقول الرازي: "أخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع له، واقع لا رافع له"^(٣).

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ٣٠٨.

(٢) نظم الدرر، ١٨٤/٧.

(٣) تفسيره، ٧٧/٢٨.

وفيه دلالة على النصر والظفر، وإن لم يتحقق بعد، وفي لغة العرب: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي سائغ مشهور، وفي القرآن منه كثير، وتتجلى دلالاته هنا في تحقيق البشارة تعضيذاً، وتقوية، وتثبيتاً بأن نصر الله وعد لا خلف فيه ... وتقديم "لك" على المفعول المطلق يشعر بمكانة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وجمال الدلالة في الجملة الأولى من فاتحة السورة، بهذا البناء الذي بنيت عليه ينسحب على تكوين السورة بما اشتملت عليه من أمور عظام، يحقق المقصود من "وعده -صلى الله عليه وسلم- بالفتح والغفران، وإنزال السكينة على أهل الإيمان، وإبعاد المنافقين بعذاب الجحيم، ووعد المؤمنين بنعيم الجنات، والثناء على سيد المرسلين، وذكر العهد، وبيعة الرضوان، وذكر ما للمنافقين من الخذلان، وبيان عذر المعذورين، والمنة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذوي الطغيان، وصدق رؤيا سيد المرسلين على حقية الرسالة، وشهادة الملك الديان، وتمثيل حال النبي والصحابة بالزرع والزرع في البهجة والنضارة وحسن الشأن"^(١).

كل هذه دلائل في السورة الكريمة، وكل موقف منها له سياقه وجماله الذي يحقق دلالاته، ويتناسب مع عظمة البداية "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً" والتصريح باسمه -صلى الله عليه وسلم- في النهاية ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٣٩]، وبها ختمت السورة الكريمة ليدور أولها على آخرها، ويلتقي آخرها مفصلاً عما بشر به أولها، وما بين ذلك دلائل على هذه البداية العظيمة، والخاتمة الجليلة ... وأسرار التعبير خير شاهد على جمال الدلالة، والسياق في زوايا النص القرآني، مع استهلال السورة بالخبر العظيم مؤكداً بضمير العظمة، وختامها بالتصريح باسم النبي الكريم تحقيقاً لكل وعد فيها، ولعظمة البداية التي استهلته بها

....

دلالة الاستهلال باسم من أسماء يوم القيامة:

(١) بصائر ذوي التمييز، ١/٣٠٠.

وأيضًا التعبير بالجملة الخبرية الاسمية في مقام التعظيم والتفخيم، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وإنصاف الخلائق، والتأكيد بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن وعد الله حق، في قوله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ ﴾ الحاقّة: ٤ وهو تعبير فريد في القرآن الكريم في هذه السورة، فيه من التفخيم ما فيه، وهي تواصل مسيرة الإنذار الذي تجلى في السورة السابقة، ولكن الوقع الصوتي لها هنا يصور الواقع بكل ما فيه من قوة وحكمة، ولذلك "روى أحمد بن حنبل أن عمر بن الخطاب قال: خرجت يومًا بمكة أتعرض لرسول الله قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقّة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر -أي قلت في خاطري- فقرأ: "وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون" قلت: كاهن، فقرأ: "ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين" إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع" (١).

فوقعها الصوتي حرك قلبًا كانت عاتية، وجعلها تلين وتتشعر بمجرد وقع الصوت قبل وقوع الحدث، وبهذه القوة ثبت تنزيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- مما قالوا، بل إنه نفسه لا يدري ما كنهها، فهي فوق طاقة البشر، ولو علم شدة وقعها أحد لعلمه المعصوم -صلى الله عليه وسلم- فهي كما قال الطبري: "الساعة التي تحق فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء على الأعمال ... والحاقّة الأولى مرفوعة بالثانية؛ لأن الثانية بمنزلة الكناية عنها، كأنه عجب منها، فقال: الحاقّة: ما هي؟ ... والحاقّة الثانية مرفوعة بما، وما بمعنى أي، وما رفع بالحاقّة الثانية ... ومثله "القارعة ما القارعة" ... (٢).

أي أنها جملة ابتدائية لا محل لها، وجمال الدلالة فيها يكمن في التعظيم والتفخيم، وتصوير الخفي الغامض الذي لم يُر بعد في صورة الواقع، ويحقق ذلك تكرار الاستفهام الدال على التعظيم في قوله -سبحانه-: "وما أدراك ما الحاقّة" وفيها

(١) التحرير والتنوير، ١١٠/٢٩.

(٢) تفسيره، دار هجر، ط١، ٢٣/٢٠٥ باختصار.

إسناد الفعل إلى الزمان؛ لأنها زمن الأحداث وليست هي الأحداث، وهذا قول الطبري السابق وغيره من العلماء بأنها: الساعة التي تحق فيها الأمور، ومثلها: الواقعة، والطامة، والصاخة... قال هذا كله يوم القيامة الساعة^(١)، وازدادت درجة التهويل والتفخيم بوضع الظاهر موضع المضمرة، فلم يقل ما هي، بل أعاد اللفظ بقوته وشدة حركته... وفي هذا تصريح بكمال التفخيم وعظمة التهويل لهذا اليوم، وتمييزه أكمل تمييز على حد قول البلاغيين في التعبير بالإشارة والموصول...

وما من شيء يُعاد بهذه الطريقة إلا وكان المقصود تجلية عظمتها، وشدة وقعها، وبيان قوته.. وقيل: سميت بذلك باعتبار أن كل إنسان حقيق بجزء عمله، وقال الزهري: يقال: حاqqته فحقqqته أحqqه، أي: غالبته فغلبته، فالقيامة حاqqة لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل.^(٢)

وعلى هذا المعنى لا تكون من باب الإسناد المجازي إلى الزمان، بل سميت بحدثها، وأحداثها من باب أن كلا يأخذ ما يستحق جزء ما قدم.

وسياق السورة يشهد بكل ذلك على اختلاف وجوهه، فكل آياتها تصور عظمة هذا اليوم، وتجلي من الواقع كثيرا كما حدث لبعض الأقسام من إهلاك بالطاغية، أي بالصيحة الشديدة، أو بريح سامة، ولصوتها وقع عاتٍ.. إلى أن ختمت السورة ببيان وقع هذا اليوم على الكافرين، في قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿[الحاقة: ٢٠-٥٢].

جمال الدلالة في الاستهلال بالجملة الفعلية:

أما إذا كانت الجملة الخبرية في فاتحة السورة مصدرة بحرف يختص بالدخول على الفعل نحو(قد) في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، و﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾، أو

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٣/٢٠٦.

(٢) تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البرذوني، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٤م، ١٨/٢٥٧.

مصدرة بفعل كقوله -تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، وقوله -تعالى-: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾، و﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، و﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، أو و﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾، ونحو ذلك، فإنها تفيد معنى يتناسب مع السياق والمقام الذي تصدرته ويتجلى ذلك من خلال التطبيق، كما سيأتي:

جمال الدلالة في الاستهلال بحرف التحقيق:

جاءت (قد) استهلالاً لسورتين من سور القرآن الكريم، إحداهما في الحكم بفلاح المؤمن، والثانية في إغاثة الله-سبحانه-لخولة بنت ثعلبة، وهي تجأ إلى الله بالشكوى إلى رسوله-صلى الله عليه وسلم-من مظاهرة زوجها لها، كما سيتبين.

جاء الحكم بفلاح في الاستهلال بقوله -تعالى-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

وهذه العبارة "قد أفلح" جاءت حكماً على النفس في تزكيتها مرتين، إحداهما في سورة الأعلى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، أي تطهر، وذلك يكون بتطهير نفسه من المعاصي .. وفي سورة الشمس صريحة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [١] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكل منهما ترغيب في الخير وترهيب من الشر، ولكنه في بناء السورة التي ورد فيها، وليس في صدرها، بخلاف هذا الحكم العام بفلاح كل من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ونفسه مطمئنة بالإيمان، وخليقته مستقيمة به، ولكن وهذا هو الذي وقع في صدر سورة: (المؤمنون) التي استهلّت بهذا الحكم القاطع بفلاح المؤمنين الذين تحققت فيهم جمل البيان بعد هذه البداية، والتي لا يكون النص إلا بها، وسياقها سياق ترغيب وترهيب أيضاً، والترغيب سيطر على سياق العشر آيات الأولى، ثم تجلّت بعده نعم الله تنرى من جميع أصناف النعم، ثم قصّت أخبار بعض الرسل، بما فيها من ترغيب وترهيب، ترغيب ببيان فلاح المؤمنين، وترهيب بذكر الصيحة، وإهلاكها من كذب، وتأتي النهاية مقابلة للبداية ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١١٨] ختام السورة.

والجملة الأولى محققة بقد، والأخيرة مؤكدة — إن وضمير الشأن: "إنه لا يفلح الكافرون" أي أن الكافرين لا يفلحون، فهم بأفعالهم أساس هذا الحكم الإلهي، وهذا يؤكد أن الفلاح ليس إلا للمؤمنين، وهو ما بدأت به السورة، قبل أن تبين إمهال من كفر، وارتقاء من أطاع، ومن ثم كان جمال الدلالة متأزراً مع السياق في الحكم بفلاح المؤمنين إجمالاً في مقابلة نفي هذا عن الكافرين في نهاية السورة، والحكم بالفلاح ورد في القرآن كما سبق للنفس، وكذلك لمن استعلى في قوله -تعالى-: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤]، أي فاز وغلب، وهذا في موقف سيدنا موسى مع سحرة فرعون، كما كثر في القرآن الكريم بعدم الفلاح مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١، ١٣٥، والقصاص، ٣٧]، و﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٣٧]، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، و﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصاص، ٨٢].

وعليه فدلالة الاستهلال بـ(قد) في الحكم بفلاح المؤمنين الذين تحققت فيهم الخصال الست التي ذكرتها السورة الكريمة، عقب هذا الحكم، تتجلى في الترغيب في القيام بهذه الأعمال على خيرو وجه، والالتزام بها، وتتبع آثارها، والترهيب من مخالفتها، ولما كانت هذه الأمور هي أساس فلاح الحياة، واستقرارها، وهي التي يتحقق بها الحكم الآتي في قوله تعالى: "أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون" لما كان ذلك كذلك، كانت جديرة بهذا الحكم "قد أفلح المؤمنون".

والسورة الثانية والأخيرة التي استهلت بـ"قد" في القرآن الكريم سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

إذا جاءت "قد" في فاتحة سور القرآن مرتين فقط، إحداهما في الحكم بفلاح المؤمنين، كما سبق، والثانية في إغاثة الملهوفين، كما هنا.

ومعلوم أن "قد" حرف تحقيق، وهي هنا داخلة على الماضي "سمع" ولكن المقام هنا والكلام مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي معنى غير التحقيق، فسمع الله أمر محقق؛ لأنه يعلم السر وأخفى، فكيف بالجهر، والشكوى، والمجادلة؟

لذلك قال العلماء: "قد" معناه: التوقع؛ لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها^(١)، فحقق الله توقعهما وكفاهما هم ما هم فيه، فالتحقيق ثابت في "قد" ومع ذلك حكم السياق بتنزيل غير المتردد منزلة المتردد؛ حيث استشرفت له نفسه، والرسول كان يجيبها بعلمه حتى نزل علم الله، فكان التوقع الذي خرجت إليه "قد" موافقاً للمقام؛ لأن الحوار مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو لا يصيبه شك في سمع الله، وعلمه، كيف؟ وقد قالت السيدة عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتحاور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليّ بعضه، إذ أنزل الله: "قد سمع الله..." كما حكته كتب التفسير.

فالجملية خبرية محققة أمراً محققاً، وليس المقصود بها تحقيق سمع الله، فذلك أمر معلوم لكل "من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" ولكنه بين تحقق إجابة من لجأ إلى الله بصدق، وليس له إلا الله... ومن ثم دل جمال الدلالة هنا على قدرة الله الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن التحقيق قد يأتي دلالة على هذه القدرة من باب الكناية، كما جاء صريحاً في إغاثة من لجأ إلى الله بصدق.

يقول الزركشي: "واعلم أنه ليس من الوجه الابتداء بها -أي قد- إلا أن تكون جواباً لمتوقع، كقوله -تعالى-: "قد افلح المؤمنون"؛ لأن القوم توقعوا علم حالهم عند الله، وكذلك قوله: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها"؛ لأنها كانت تتوقع إجابة الله لدعائها^(٢)، وقضية هذه المرأة أساس في بناء السورة، ولها القدح المعلى فيها، ولكنها عمّت في بيان حكم الظهار، وتحدثت عن التناجي بما يغضب الله، وحذرت منه، ووجهت وأرشدت فيما ينفع، وحذرت من محاربة الله ورسوله.

(١) تفسير الرازي، ٢٥١/٣٠.

(٢) البرهان، ٣٠٦/٤.

وكل هذا السياق يساعد في تحديد جمال الدلالة والسياق في بيان قدرة الله من جانب، ورحمته ولطفه بمن لجأ إليه من جانب آخر، وهكذا يتجلى جمال الدلالة، والسياق من واقع الجمل الخبرية المصدرة بحرف يختص بالدخول لى الأفعال، في استهلال سور القرآن الكريم.

دلالة التعبير بجملة السؤال الحقيقي:

أولاً: السؤال بالفعل المضارع:

ورد ذلك في قوله -تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وردت جملة "يسألونك" و"يسألونك" بالواو وبغيرها في القرآن الكريم كثيراً، ولكن لم تستهل سورة أخرى بها غير سورة الأنفال، "والأنفال هي غنائم بدر، والمال المأخوذ من أهل الحرب قهراً، وأصلها في اللغة الزيادة، وقد فضل بها المسلمون على سائر الأمم" (١).

والمقام مقام منازعة -حكته كتب التفسير- ومن ثم حسم ربنا القضية، بما يبين مقصود السورة الذي ينشر ظلاله على السورة كلها، وأثره جلي فيها لمن تدبر آياتها، والموضوعات التي أقيمت عليها من النزاع الذي دار حول الغنائم، وجدالهم في الحق بعد ما تبين، واستجابة الله لاستغاثتهم، وتثبيت الملائكة لهم، وتوليه الدفاع عنهم، وتوهينه كيد الكافرين، وتذكيرهم بنعمه، وقد كانوا قليلاً مستضعفين، وعدم تعذيب المستغفرين منهم، وتصوير الكفار قلة في أعينهم؛ تثبيتاً لقلوبهم، وتصويرهم قلة في أعين الكفار؛ ليقضي الله وعداً كان مفعولاً، والتحريض على القتال مشفوعاً بالتعزيد، والتأييد ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾، [الأنفال ٦٥] وهذا كله، ونحوه مما ورد في سياق السورة يحيط به مقصدها الذي قال فيه البقاعي: "تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله، واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده... (٢)".

(١) نظم الدرر، ٣/١٨٣.

(٢) مساعد النظر، ٢/١٤٤.

ونلاحظ أن مقام النزاع ليس في السؤال عن الأنفال فقط، وإنما في أمور أخرى كجدالهم في الحق بعد ما تبين، وخوفهم وكأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون ... وهذا السؤال كان سبباً لربط السورة بما قبلها؛ ليظل التعلق بالله - سبحانه - وتظل درجة العندية، لله الذي ختمت به سورة الأعراف قائمة كما قالها ربنا مبيئاً مكانتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ولأن مثار النزاع تردد وتكرر جاءت البداية بالفعل المضارع الدال على التجدد، فقال: "يسألونك" وهي جملة فعلية، يقصد بها السؤال عن حكمها والمصرف لها والمستحق لها، فكان الجواب أنها لمن كان سبباً فيها بمدده ولطفه "قل الأنفال لله والرسول"، ولما كانت قلوبهم قد أصابها ما أصابها في أمر الغنائم قال: "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم"؛ لأن الحكم الذي تسألون عنه صدر، فارضوا به، ولا تنازعوا فتقشروا ... وأصلحوا ما بينكم من الأحوال لتكون أحوال ألفة، ومحبة، واتفاق بينكم، وقيل لها ذات البين؛ لأنها كانت واقعة في البين، كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدر قيل لها ذات الصدور^(١).

فجمال الدلالة يكمن في: التعليم، والتوجيه إلى الآداب التي يكون بها الحال مع الله ورسوله في أمر الغنائم، بالإضافة إلى ما أورده السياق من نعم الله التي أحاطت بمعالم السورة، والتي يكمن منها دلالة التسليم المطلق للمنع - سبحانه -؛ لأن النصر كله من عنده.

ثانياً: السؤال بالفعل الماضي:

ومن الجمل الخبرية التي دلت على سياق السورة جملة، وأحاطت به دفعة، قوله -تعالى-: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

هذه المادة وقعت في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة، ولكن لم تُرسم بهذا الشكل، ولم تأت بهذه الصياغة إلا في هذه السورة التي قصدت: "إثبات القيامة،

(١) ينظر: تفسير الرازي، ١٢٠/١٥، وإعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، ١٠٠/٣.

وإنذار من كفر بها، وتصوير عظمها بعظمة ملكها وطول يومها، وتسليية المنذر بها لمن كذبه، بما له من الصغار، والذل، والتبار...^(١).

وجمال الدلالة في سياقها يجري في هذا القبيل من شدة الإنذار المناسبة لعظمة الحق، المناسبة لقوة التسليية للرسول -صلى الله عليه وسلم-، وكأنها مكملة لسورة الحاقة قبلها، أو امتداد لها، وهذا يعني أن الجملة الاسمية -كما في الحاقة- يتجلى فيها الإنذار، كما هو في الجملة الفعلية، ولكن تقدّمت الحاقة لإثباته، وجاءت الجملة الخبرية الفعلية هنا؛ ردًا على من تعجّل العذاب تهكمًا، واستتكارًا، وتوبيخًا لمن سأله، ويأت المضارع الذي يجدد الإنذار في قلوبهم، ويجعله لا يفارقهم، في قول الله - تعالى-: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [الآية: ٦، ٧].

فالذي يقرأ "الحاقة ما الحاقة" يظن أنه لا تحقيق لوقوع الساعة أكبر من ذلك، وليس هناك إنذار أبلغ من الإنذار الذي انتهى بتحقيق وعيد الله فيها؛ حيث قال في نهايتها: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، "فقد انطوت السورة على أشد وعيد، وأعظمه" وأتبعنها هذه "بجواب من استبطأ ذلك واستبعده؛ إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن، فقال -تعالى-: "سأل سائل بعذاب واقع" إلى قوله -تعالى-: "إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا"^(٢)، وقيل: إنها جاءت جوابًا لقول النضر بن الحرث -كما حكاه القرآن الكريم- ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْوَأَلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، والباء في "بعذاب واقع" للتأكيد، أو لما كان سأل بمعنى دعا عُدي تعديته كأنه قال: دعا بعذاب من الله...^(٣).

فجمال الدلالة هنا يتجلى في تحقيق القرب، وتأكيد الإنذار في مقام الرد على المنكرين خلال سياق يتقابل فيه الإنذار، وتحقيق الوعيد بين فاتحة السورة وخاتمتها، ففي فاتحتها "ليس له دافع"، و"نراه قريبًا"، وفي خاتمتها جمع ذلك في قوله: ﴿يَوْمَ

(١) مساعد النظر ١١٨/٣.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، ٣٤٦.

(٣) ينظر: تفسير الرازي، ١٠٧/٣٠.

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾ أي كأنهم يسارعون إلى أصنامهم كما كانوا يفعلون في الدنيا ... ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [٤٤]، فأخر السورة يتناغم مع أولها في تحقيق الوعد وتأکید الإنذار، فهو يوم مكين محقق، غايته عظيمة، وعظمة أحداثه من عظمة محدثه، ولشدة وقع العذاب على سائله، والمتعجل به؛ سخرية جاء التعبير عن مقدار اليوم بقوله -تعالى-: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وفي سورة السجدة قال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥].

فالتعبير هنا بخمسين لما فيه من شدة وقع على من سأل سخرية وإنكارًا، وفيه دليل الشدة التي تتناسب الإنكار، كما أن هذا حكاية عن عروج الملائكة، فهو بالنسبة لقدرتهم يقدر بخمسين ألف سنة، أما في سورة السجدة فكان قياسًا على قدرته - سبحانه-، لذلك لم يذكر الملائكة في سورة السجدة بل قال: "ثم يعرج إليه" أي بإذنه دون واسطة ملك، بخلاف آية سأل التي نص فيها على الملائكة "تعرج الملائكة ...". ويرى بعض العلماء أنها عبارة عن الشدة، واستطالة أهلها إياها .. المقابل لاستقصار أيام الراحة والسرور، وخصت سورة السجدة بقوله "ألف سنة" لما قبله، وهو قوله "في ستة أيام" وتلك الأيام من جنس ذلك اليوم، وخصت سورة المعارج بقوله "خمسين ألف سنة" لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها، فكان هو اللائق بها ... وهذا يتناسب مع جرأة الكافر في استعجال العذاب ... وذل الكافرين الذي ختمت به السورة: ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(١).

وجمال الدلالة هنا يحكيه مقام الحال، ووقع الزمان إما كناية عن الشدة الماثلة في طوله على الكافرين؛ موافقة لاستبعادهم إياه، وكونه على المؤمنين بمقدار صلاة؛ لإيمانهم وتسليمهم الأمر إليه، وإما تناسبًا لسياق كل سورة كما تبين.

جمال الدلالة في التعبير بالماضي مكان المستقبل:

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز، ٢٦٢/١، وينظر: درة التنزيل، ٢٧٢.

يأتي التعبير بالماضي مكان المضارع في الجملة الخبرية؛ ليدل على تحقق الوقوع كما في قوله -تعالى-: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

وهذا ما يسميه البلاغيون: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وبعضهم يعدّه من باب الالتفات؛ لأنه عدول من أسلوب إلى أسلوب آخر مخالف للظاهر، فهنا مثلاً لما كان يوم القيامة آتياً لا محالة جاء التعبير بلفظ الماضي والمعنى مستقبل؛ وذلك لأن المقام يستدعي استحضر الصورة للمبالغة في "إنذار المشركين بالعذاب، وإبطال شركهم، ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث، وهي أمور متشابكة متلازمة، وقد افتتحت بآيتين أجملت فيهما تلك الأغراض، وقصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيها"^(١).

وهكذا دلت الجملة على تنزيه الله -سبحانه- وإبطال شركهم، ودحض افتراءهم، سواء في أمر البعث أو أمر النبوة، وحققت ذلك بضرب الأمثال؛ ليكون الإنذار يقيناً لا شك فيه، والبعث آت لا ريب فيه.

ولو جاء التعبير بـ"يأتي" أو سيأتي لضعفت درجة الإنذار المطلوب إبلاغهم بها، واختل تناسب الجملة مع سياق السورة المذكّر بعظم نعم الله، وفي خلالها تتجلى قدرته كقوله -تعالى- مثلاً: ﴿لَا جُرْمَ أَلَيْسَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وجاءت كلمة "أتى" مرة ثانية في السورة بعد خمس وعشرين آية تحمل قمة التهديد بالتذكير بحالة من كانوا قبلهم؛ عقاباً على مكرهم، يقول -تعالى-: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٦]، فالأولى "أتى أمر الله"، وهنا "فأتى الله بنيانهم"، "وأتاهم العذاب"، والتعبير بمادة "أتى" يدل على سهولة الأمر ويسره، والله يستوي عنده هذا وذاك، ولكن المراد أن يتبين لهم أن ما يظنونه بعيداً سهل قريب، ثم تأتي مادة "أتى" للمرة الثالثة في سياق السورة في قوله -تعالى-

(١) النظم الفني في القرآن، ١٦٧.

: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ [٢٣، ٢٤]، والجملة الأولى بما لها من العظمة الدالة على قدرة الله، وسعة علمه، وتنزيهه عما يقولون تتأزر مع ختام سورة الحجر قبلها ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ نجد هنا قمة التثبيت وبث الطمأنينة، يقابله في أول النحل قمة الوعيد، والتهديد الساري في عروق السورة كلها، كما تبين من بعض الشواهد الدالة على علم الله، وحكمه عليهم، وبيان عاقبة من كانوا مثلهم في المكر من الأمم السابقة ..

ولكن كان الحديث في نهاية سورة الحجر مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- بلفظ "ربك" الدال على الإنسان واللفظ، وكذا الإضافة إلى كاف الخطاب الدالة على منزلة الحب ودرجة القرب، بخلاف القوة، والهيمنة هنا في التعبير باسم الجلالة "أتى أمر الله" ففيه في جانب الرسول -صلى الله عليه وسلم- بيان أن يقين الله قريب، وفيه هنا مع التهديد قمة المبالغة في إنذار هؤلاء المتشككين في قدرة الله على البعث، وكانت أول ثمرة من ثمار الجملة الخبرية بلفظ الماضي الدال على تحقق الوقوع، وأن هذا أمر لا مفر منه، كانت أول ثمرة: النهي عن الاستعجال "فلا تستعجلوه"، وهذا النهي يحمل في طيه الوعيد؛ لأن الاستعجال صفة نقص، والله منزه عن كل ذلك، ومن ثم قال: "فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون" ... جامعاً بين التنزيه والتعالي عن سفاهة عقولهم، وقصر نظرهم، وضيق أفقهم، وضالة فكرهم، مع أنهم كانوا أهل لسان وبيان، ولكن غرهم ذلك، فاستكبروا، وأخبر الله -سبحانه-: أنه لا يحب المستكبرين، وهكذا تحكي دلالة الجملة، والسياق أمراً واقعاً لا محالة، والبدائية أهون من الإعادة، كما قال -تعالى-: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، ولذا لم يكتف

بعض العلماء بعبارة "تحقق الوقوع" فقط في مثل هذا، بل رأى فيه "التنبيه على قرب الوقوع والمبالغة في تأكيده"^(١).

وعلى هذه الشاكلة قوله -تعالى-: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، قال النيسابوري: "قيل: اللام بمعنى من، أي اقترب من الناس حسابهم [أي] محاسبة الله إياهم على أعمالهم، وهم، واو الحال، في غفلة عنه معرضون عن التفكير فيه والتأهب له، نزلت في منكري البعث"^(٢).

وقال الزمخشري: "هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب، أو تكييداً لإضافة الحساب إليهم"^(٣)، والسورة كلها تدل على تحقق وقوع أمر الله، وهو القيامة، وكل شواهد السورة تدل على علو قدرة الله عز وجل، وفي سياق السورة ما يدل على إنكارهم، وتشكيكهم في وعد الله، قال -تعالى- حاكياً عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء ٣٨] ثم يرد عليهم بقوله -تعالى-: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء ٤٠]، وهذا يتناسب مع لهو قلوبهم، وغفلة إعراضهم ... والبدائية بكلمة "اقترب" مبالغة في تحقق الوعيد، كما هي مبالغة في تحقق الوقوع؛ لأنه قال اقترب للناس حسابهم، فالتهديد من الغفلة التي يعيشونها، وقد اقترب الحساب، والصيغة "اقترب" فيها دلالة على افتعالهم، وتكلفهم في سوء أقوالهم وأعمالهم؛ لأنهم يعلمون صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولكنهم يكذبون، ويجحدون، ويستكبرون، فهذه الصيغة جمعت ما بنيت عليه السورة من: تحقق وقوع البعث، واقترب ساعة الحساب التي يستعجلونها استهزاء، وتذكيرهم بقدرة الله في خلقهم، وفتق السماوات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٠]، وغير ذلك من دلائل القدرة والنعم، وأخبار بعض الرسل في السورة، وكل ما فيها تنبئ، وتسليية

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٢٦٨/٦.

(٢) السابق ٢٦٨/٦.

(٣) الكشف ١٠٠/٣.

للمرسول -صلى الله عليه وسلم- إعانة له على تبليغ رسالته، وألا تأخذه نفسه حسرات عليهم ..

وفي هذه الصياغة "اقترب" الجامعة لمعالم السورة بما فيها من تذكير بالنعمة من جانب، وبالقدرة من جانب آخر، يقول البقاعي: "وأشار بصيغة الافتعال إلى مزيد القرب؛ لأنه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها، وأخر الفعل "حسابهم" تهويلاً لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب" (١).

ولذلك لم تذكر كلمة "اقترب" في القرآن كله إلا في هذه البداية، وفي قوله - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٨٥] أي اقترب إهلاكهم، فهو -سبحانه- هنا ينكر عليهم عدم النظر والاعتبار ويشفق عليهم من اقتراب الأجل، وهم على هذه الحالة من الغفلة ..، وعسى تكون لما هو خليق وجدير بأن يكون، وإذا كان التعبير بـ"عسى" يطمعهم في النظر، والتأمل، والاعتبار؛ إشفاقاً عليهم، فإن فيها تنبيهاً لهم، وإيقاظاً من عفلة مفتعلة، والتنبيه هنا بـ"عسى" مع الصياغة بـ"اقترب" يجمع بين التنبيه، والتحقيق، والتخويف، ومن ثم لاحقة بإنكار بعد إنكار، فقال: "فبأي حديث بعده يؤمنون"؟ ليكون أدعى لزجرهم وردعهم عما هم فيه. ... " (٢).

فهذان هما الشاهدان اللذان ذكرت فيهما صيغة الافتعال "اقترب" كل منهما يحيطه سياق من الإنكار، والإنذار، وتحقيق الوعد، وهذا هو الذي يرنو إليه جمال الدلالة، والسياق في النص القرآني من خلال الجملة الخبرية الدالة على تحقق الوقوع؛ للتعبير بالماضي مكان المستقبل، مع العلم بأن بعض الشواهد يخرج عن تحقق الوقوع في التعبير بلفظ الماضي؛ ليؤدي دلالة أخرى حسب سياقها ومقامها كما هو الشأن في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، ففي التعبير

(١) نظم الدرر، ٦٤/٥.

(٢) ينظر: مقامات عسى في القرآن الكريم، دراسة بلاغية مقارنة لكاتب هذا البحث، دار السعادة بالقاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص ٦٩.

بالماضي هنا دلالة على المكانة والشرف، والاستحقاق تحقيق السعادة الأبدية، والرفعة الدنيوية والأخروية، فجمال دلالاته يكمن في الإجلال والتعظيم قبل تحقق الوقوع، وهكذا يكون المقام متآزرًا مع الغرض من التعبير.

وعلى شاکلة قوله -تعالى-: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قوله -سبحانه- ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وسياقها أيضًا سياق تحقق وإنذار، والتحقق في فاتحتها يتلاءم مع قمة الإنذار في نهاية سورة النجم قبلها، وآخر آية في النجم فيها توجيهه للأنفع، وبداية القمر ليس تحقيق وقوع الساعة، بل تحقيق اقتراب وقوعها، ويقدر التهديد في بدايتها تأتي الأدلة الداعمة له في سياقها نحو: خبر الطوفان، وهلاك الأمم، والوعيد في نحو قوله -تعالى-: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ﴾ [٢٦]، والتعبير بـ"غداً" و"بكرة" في قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ [٣٨]، ونحو ذلك مما يحقق لفظ البداية في السورة "اقتربت" ويقدر كل هذا في اقتراب الساعة، وتحقيق الوعيد، والمبالغة في الإنذار نجد مكانة أهل التقوى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [٥٥]، فهذا وعد يقابل الوعيد ويضاعف وزنه .. ويختتم أخبار السورة.

دلالة الإخبار بالماضي على قسّمات الوجه:

وقد تستهل السورة بجملة خبرية تحكي واقعا، وتعاتب عليه بتلطف للعلم بما يُكنه صدر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن سياقها يدل على قدرة الله، ونعمه الدالة على قيام الساعة، وهذه الجملة هي قوله -تعالى-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، لا ريب أنه سياق عتاب بإقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه كان إذا قابل عبد الله بن أم مكتوم صاحب هذه الواقعة قال: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي"، ولكن العتاب جاء بطريق الغيبة تلتطفًا من قبل الحق -سبحانه-؛ لأن النبي كان مشغولًا بكبار من القوم وهمّه أن يسلموا، فلما جاء ابن أم مكتوم يسأله تغير وجهه بسبب

مقاطعته إياه، فنزلت تحت على المساواة بين الناس، وتحقق ختام السورة قبلها في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

لذلك قال البقاعي: "مقصودها: شرح: "إنما أنت منذر من يخشاها" بأن المراد الأعظم تركية القابل للخشية بالتخويف بالقيامه التي قام الدليل على القدرة عليها بابتداء الخلق من الإنسان"^(١).

ويؤخذ من كل هذا جمال الدلالة، والسياق في الجمع بين: التوجيه في صورة عتاب؛ لتتجلى قوة التوجيه فتفضي إلى عدم التفرقة بين الناس بسبب الحرص على إيمانهم، والانشغال عن هو ألين قلباً بسببهم ... وعلى ذلك تكون جملة فاتحة السورة شعاعاً يضيء جل معانيها ويحمل الدلالة على قدرة الله بدءاً ونهاية.

وهذه الجملة "عبس وتولى" ليس لها في القرآن نظير، وكذلك جملة البداية في سورة البينة، وهي قوله -تعالى-: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] ليس لها نظير في القرآن الكريم .. و"لم" حرف نفي وجزم وقلب، و"يكن" فعل مضارع ناقص مجزوم ب"لم" وحرك لالتقاء الساكنين، و"الذين" اسم "يكن" في محل رفع.

وجملة "كفروا" صلة الموصول، و"منفكين" خبر يكن، والجملة ابتدائية لا محل لها؛ أي لا تقع موقع المفرد، والمعنى: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله -تعالى- وقدرته، ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة، وتتم على من آمن النعمة، فكأنه قال: ما قال: ما كانوا ليتركوا سدى ..."^(٢) أي من غير تكاليف ومجازاة؛ لذا كان المقصود من السورة بيان أن القرآن نور وهدى لقوم، ووقر، وعمى لآخرين، فيقود فريقاً إلى الجنة، ويسوق فريقاً إلى السعير ...

(١) نظم الدرر، ٣٢٣/٨.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١،

فجمال الدلالة والسياق في نص هذه الجملة كامن في أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- والبيان الذي جاء به هو الذي فك القوم عن دينهم وما كانوا يعبدون من دون الله، ويرتقي هذا الجمال في سياق السورة لإثبات مقام هذا الرسول ومكانة هذا الكتاب؛ لينتهي الحكم ببيان أن أهل الكفر هم شر البرية، وأن أهل الإيمان هم خير البرية.

وهذه نماذج متنوعة تثبت جمال الدلالة والسياق في النص القرآني من خلال دراسة الجملة الخبرية اسمية كانت أو فعلية، ماثلة في فواتح السور القرآنية، وننتقل بعد ذلك إلى جملة الشرط من خلال فواتح السور أيضاً.

المبحث الثالث

دلالة الجملة المتضمنة معنى الشرط في استهلال سور القرآن

ما سبق الحديث عنه كان في الجملة الخبرية التي وقعت في فاتحة السور القرآنية تجلى فيها جمال الدلالة، والسياق باعتبار المقام والأحوال، واختلاف أنواع السياق من مقصد السورة، وأثره في بنائها على اختلاف موضوعاتها، والحديث هنا - قبل الانتقال إلى الجملة الإنشائية المقابلة للخبرية في دراسة البلاغة- سيكون - بمشيئة رب العالمين- عن جمال الدلالة في السياق القرآني من خلال افتتاح السور القرآنية بالجملة الشرطية.

والجملة الشرطية أحد الافتتاحات العشرة التي لم يخرج الافتتاح في كتاب الله عنها، وهي -كما سبق- الافتتاح بالثناء، وتحدثت فيه عن الافتتاح بالحمد في السور الخمس ووجه الربط بينها، وسيأتي الافتتاح بـ(سبح) في سياق أساليب الأمر بعد ذلك.

والافتتاح بحروف التهجي سبق في بدايات البحث، ومنها الافتتاح بالنداء، والقسم، والاستفهام، والدعاء، وهذا سيأتي في الجملة الإنشائية، ويبقى الاستفتاح بالتعليل نحو ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾، وهنا سيكون الحديث عن الاستفتاح بالشرط، وقد

جاء ذلك في سبع سور معروفة، وهي: الواقعة، والمنافقون، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والزلزلة، والنصر.

وكلها بأداة شرط واحدة وهي "إذا" أربع سور منها داخلة على الأفعال وثلاث سور دخلت فيها على الاسم، وسيتجلى ذلك بعد بيان معنى الشرط وأهميته في بناء الأسلوب، وقد درسه البلاغيون في تقييد المسند بأدوات الشرط، وهو مما يثري الأسلوب، ويُنمي فائدته، وبه تُغزر معانيه، وتختلف دلالاته وتتنوع؛ لأن التقييد يتنوع بتنوع أدواته.

ومادة شرط -كما يقول ابن فارس-: الشين، والراء، والطاء، أصل يدل على تحكم وعلامة، وما قارب ذلك من تحكم، من ذلك الشرط: العلامة، وأشراط الساعة علاماتها، وسُمي الشرط؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، ويقال: إن أشراط الساعة أوائلها. (١)

والافتتاحات السبع بالشرط في سور القرآن، جاءت خمسة منها في الحديث عن الساعة، وبناء عليه فإن الشرط في بناء الكلام هو: كل حكم معلوم يتعلق بأمر يقع وقوعه، وذلك الأمر كالعلامة له .. قال -تعالى-: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (٢)، أي علاماتها، ويقول الفيروزآبادي: إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه .. (٣).

فهو (أي الشرط) علامة والتزام، وقامت على ذلك معانيه عند الأصوليين، فقد درسوا الشرط لحاجتهم إليه في معرفة الأحكام والقضايا، وطرق الاستدلال، وهكذا تكون الحاجة إلى اللغة في فهم الأصول الشرعية وغيرها، ولهم أيضًا دراسات لغوية وبلاغية، خلاف القضايا النحوية، ولكن الشرط عندهم يختلف تعريفه عن تعريف علماء اللغة والبلاغة، فقد قسموه إلى: عقلي، وشرعي، ولغوي، وعادي، ومثلوا للعقلي بالحياة للعلم، وللشرعي بالوضوء للصلاة، وللعادي بالسلم لطلوع السطح، واللغوي بالزيارة لوقوع الإكرام، نحو إن زرتني أكرمتك ..

(١) مقياس اللغة، (شرط).

(٢) المفردات للراغب، (شرط).

(٣) القاموس المحيط، باب الطاء، فصل الشين.

وقالوا: "الشرط هو: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، وهو كالاتثناء اتصالاً، وهو أولى بالعود إلى الكل على الأصح، ويجوز إخراج الأكثر به وفقاً... وذكر القرافي: إنه أجود الحدود"^(١).

وأهل اللغة وضعوا مثل هذا التعريف والتركيب؛ ليدل على أن الجزء الثاني منه وجوده موقوف ومعلق على الجزء الأول.^(٢)

والشرط اللغوي عند البلاغيين: هو المذكور بعد "إن" وأخواتها معلقاً عليه حصول مضمون الجملة بأن يحصل مضمون الجملة عند حصول الشرط... فالجزاء معلق عليه، ولا يحصل إلا بحصوله... وعلّة تقييده عندهم تعود إلى تربية الفائدة... كما سيأتي..

وأداة الشرط (إذا) التي جاءت كل شواهدنا هنا قائمة عليها، من أدوات الشرط غير الجازمة، مثلها في ذلك مثل: كيف، ولو، ولولا، ولوما، ولما، وأماً.

وجملة الشرط لها دلالة بلاغية تنبثق من الدلالة النحوية القائمة في بناء الجملة على أداة الشرط وفعل الشرط وجوابه، ولكن البلاغة لا تكرر دراسة النحو، بل تدرس معاني النحو، كما هو معلوم لدى البلاغيين.

لذلك قال الشيخ عبد القاهر: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت،

(١) ينظر: الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، لأبي زرعة العراقي، ت ٨٢٦هـ، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٣١٩.

(٢) ينظر: الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع، شهاب الدين الكوراني، ت ٨٩٣هـ، تحقيق: سعيد بن غالب الحميدي، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٨م، ج ٢/٣٥٣.

وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت ... وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم يفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ(ما) في نفي الحال، وبـ(لا) إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ(إن) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن، وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل .. ويتصرف في التعريف والتكثير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة، وعلى ما ينبغي له، هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه ...^(١).

فقد وضع بذلك الأساس الذي تبنى عليه دراسة البلاغة بكل ما فيها، ومن ذلك: جملة الشرط والجزاء، كما نص عليها هنا، وعلى الفرق بين "إن" و"إذا"، ومقام الكلام وسياقه هو الذي يرسم خطته، ويحكم جمال دلالاته، ولذلك قال السكاكي: لكل كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتقاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق، وهو الذي نسميه مقتضى الحال ...^(٢).

ولما كان ذلك كذلك جاءت الشواهد السبعة بجملة الشرط في فواتح السور السبع بـ(إذا) لتطابق المقام الذي فيه، وتحقق الواقع الذي لا ريب فيه؛ لأن الله قضى به، ولا راد لقضائه..

وقبل أن أقف مع الشواهد، لا بد أن أبين ضوابط التعبير بـ(إذا) عند النحاة والبلاغيين؛ لتكون دراسة الشواهد قائمة على أصولهم وبيانهم؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولم يحدث في لغة العرب تطور وارتقاء إلا بنزوله؛ حيث أثر فيها أثراً بيئياً، وضع لكل شيء قدرًا، وتجلت أسس كل تعبير وبلاغة كل قول ...

(١) دلائل الإعجاز، ٨٢، ٨٣.

(٢) مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م، ١٦٨.

فمن المعلوم للدارسين أنها -أي (إذا)- ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وعليه فجملة فعل الشرط في محل جر بإضافة إذا إليها، وإذا متعلقة بالجواب، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية، ويكثر دخولها على الماضي نظراً لطبيعة عملها؛ لأنها لتحقق الوقوع، وتلك طبيعة الفعل الماضي، وخاصة إذا وضع موضع المستقبل، كما سبق في نحو ﴿أَقْرَبَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل ١]، و﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء ١]

وإذا دخلت على اسم مرفوع أعرب فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذي بعده، كما سيأتي في قوله -تعالى-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق ١].

وهذا إيجاز لما ذكره النحاة، وأغلبهم على أنها تستعمل في المقطوع بوقوعه، الذي لا شك فيه، ولا ظن، فهي ظرفية عند سيبويه تدخل على المجزوم به؛ أي المقطوع بوقوعه، يقول سيبويه: "وأما إذا فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهي ظرف، وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك: مررت فإذا زيد قائم، وتكون "إذ" مثلها أيضاً، ولا يليها إلا الفعل الواجب..."^(١).

ويقول أيضاً: "وسألته -أي الخليل- عن "إذا" ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في إذا بمنزلة في إذ؛ إذا قلت: أتذكر إذ تقول؟ فإذا فيما يستقبل بمنزلة إذ فيما مضى، ويبين هذا أن: إذا تجيء وقتاً معلوماً، ألا ترى أنك لو قلت: آتيتك إذا احمر البسر كان حسناً، ولو قلت: آتيتك إن احمر البسر كان قبيحاً، فـ(إن) أبداً مبهمة، وكذلك حروف الجزاء، و(إذا) تُوصل بالفعل، فالفعل في إذا بمنزلة في حين، كأنك قلت: الحين الذي تأتيني فيه آتيتك فيه، وقال ذو الرمة:

تُصغي إذا شدها بالرحل جانحة ★★ حتى إذا ما استوى في غرزا تثب

وقد جاوزوا بها في الشعر مضطرين، شبهوها بإن؛ حيث رأوها لما يستقبل، وأنها لا بد لها من جواب.

وقال قيس بن الخطيم الأنصاري:

(١) الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٩٨٨م، ٤/٢٣٢.

إذا قصرْتُ أسيافنا كان وصلها ★★ خطانا إلى أعدائنا فنضارب

... فهذا اضطرار، وهو في الكلام خطأ، ولكن الجيد قول كعب بن زهير:

وإذا ما تشاء تبعث منها ★★ مغرب الشمس ناشطاً مذعوراً^(١)

وسلك سبيله كثير من النحاة، فالمبرد يقول: "وإنما منع (إذا) من أن يجازى لأنها مؤقّته، وحروف الجزاء مبهمة، فلو قلت: إن تأتيني آتك، فأنت لا تدري أيقع الإتيان أم لا، وإذا قلت: إذا أتيتني وجب أن تكون الإتيان معلوماً، واستدل بقوله - تعالى -: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾، و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وأن هذا واقع لا محالة، ولا يجوز وضع (إن) موضعها؛ لأن الله عز وجل يعلم و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر كقوله -تعالى-: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأن هذا راجع إليهم...^(٢).

وكذلك الشأن عند البلاغيين، فقد سبق نص عبد القاهر: أنه يؤتى ب(إن) فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون، وب(إذا) فيما علم أنه كائن.

وكذا قال السكاكي: أما (إن) فهي للشرط في الاستقبال، والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط.. وإذا للشرط في الاستقبال.. والأصل فيها القطع بوقوع الشرط إما تحقيقاً، أو باعتبار ما خطابي، وهو النكته في تغليب لفظ الماضي معه على المستقبل^(٣).

وكذلك قال الخطيب: والأصل في إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه... وهكذا قال نحوه العلوي صاحب الطراز، وسعد الدين التفتازاني في المختصر، والزرکشي في البرهان، والبهاء السبكي في عروس الأفراح...

ولكن أشار الإنبائي إلى جزئية تحتاج نظراً؛ حيث يقول: "الجزم بالوقوع بحسب الاعتقاد، والتعليق بحسب نفس الأمر، وحينئذ لا منافاة بين الجزم بالوقوع وفرضه في

(١) السابق، ٦٠/٣ بقدر من الاختصار.

(٢) المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، نشر عالم الكتب، بيروت، ٥٦/٢.

(٣) مفتاح العلوم، ٢٤٠.

المستقبل، من حيث إنه يستدعي القول على وجه الاحتمال، ولذلك لا يكذب بانتقاء القيد والمقيد"^(١).

فهو ينظر هنا لاعتقاد المخاطب، ولكن ذلك لا يصلح في الوقائع القرآنية المقطوع بها كوقوع الواقعة في ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، وتكوير الشمس في: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فلا احتمال هنا، وإنما يمكن ذلك في كلام البشر بخلاف القرآن، حتى لو أنكر المنكرون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. [التوبة ٣٢].

فهي تدل على الزمن المستقبل باعتبار أصل وضعها، وهذا هو الأصل فيها، حتى لو خرجت عنه على قلة من وجهة نظر بعض النحاة.

ولكن اعتبروها من أدوات الشرط لبناء الكلام معها على جملتين بينهما تعلق، فيتعلق الجزاء على حصول الشرط نحو إذا ذاكرت نجحت.

كما أنها مختصة بالأفعال شأنها في ذلك شأن أدوات الشرط، هكذا قال النحاة ... "ومن شبهها بأدوات الشرط اختصاصها بالدخول على الأفعال، والشرط لا يكون إلا بالأفعال ... ولذلك تحتاج إلى جواب، فهي متضمنة معنى الشرط، ولكن يتعين وقت جوابها بشرطها كما سبق في كلام سيبويه ..."^(٢).

وخلاصة القول أن (إذا) يُعبر بها فيما هو مقطوع به، بخلاف (إن)، ولا يصلح أحدهما في موضع الآخر، والقرائن خير دليل يجلي ذلك ...

وشواهدنا في هذا البحث من الأمور الغيبية المقطوع بها، آمن بها من آمن، وكفر بها من كفر، وهي استهلال سبع سور متنوعة، فواحدة منها مستهلة باسم من أسماء يوم القيامة، واثنين بخطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حضورا، وغيبية، وثلاثة بالكونيات، وواحدة بإحدى علامات الساعة.

دلالة جملة الشرط في الاستهلال باسم من أسماء القيامة:

(١) تقرير الإنبائي، ٣٦٥/٢.

(٢) ينظر: الكتاب، ٦١/٣، والمقتضب، ١٧٧/٣، وغيرهما من كتب النحو القديمة.

جاء ذلك الاستهلال بالجملة الشرطية في سورة واحدة، وهي: قوله -تعالى-:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ (١) لَيْسَ لَوْفَعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۗ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۗ﴾ [الواقعة: ١-٣].

مادة وقع تدل على السقوط، يقول ابن فارس: الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شيء، والواقعة القيامة، ويقول الراغب: ولا تقال الواقعة إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقع) جاء في العذاب والشدائد، كقوله -تعالى-: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ﴾ [الواقعة ١] و﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۗ﴾ [سأل ١]، و﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ﴾ [الحاقة ١٥] وكذلك الوقوع، كقوله تعالى ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ۗ﴾ [النمل ٨٥] أي وجب العذاب وقوله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۗ﴾ [النمل: ٨٢] أي ظهرت أمارات القيامة وقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: اْعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعِظٌ مُّطَّأْتَجِدِلُونِي فِي سَمَاءٍ سَمِيَّتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۗ﴾ [الأعراف: ٧١] وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ؕ ءَأَلْكَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِء تَسْتَعْجِلُونَ ۗ﴾ [يونس: ٥١] واستعمال لفظة الوقوع تأكيد للوجوب (١).

قال أبو جعفر الطبري: يعني: إذا نزلت صيحة القيامة... (٢).

ولفظ الواقعة أدل على الشدة من لفظ القيامة، وفيه تصوير الحدث وبيان قوته على منكري البعث، ويقول الزمخشري: (وقعت الواقعة) كقولك: كانت الكائنة، وحدثت الحادثة، والمراد القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة، فكأنه قيل: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله... (٣).

ولما كان مقصودها بيان جزاء من آمن، وعقوبة من كفر، ترغيباً وترهيباً، وبيان نعم الله، والتقرير بها.. وبيان حال خروج الروح، وما فيه من شدة، ناسب أن تكون

(١) مقاييس اللغة، والمفردات (وقع) باختصار.

(٢) ينظر: تفسيره، ٢٢/٢٧٩.

(٣) الكشف، ٤/٥١.

هذه بدايتها، ثم إن قوله -تعالى-: (خافضة رافعة) بيان جلي لحال الفريقين، فهي تخفض فريقاً، وترفع فريقاً، كما قال ربنا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى ٧] فمن تخفضهم تخفضهم بشدة، ومن ترفعهم ترفعهم بما يناسب مكانتهم، وتلك دلالة التعبير باسم الفاعل فيهما، وهي ثبات المعنى، واستقراره، من غير أن يقتضي التجدد، ومن ثم لا يستقيم الفعل هنا بحال من الأحوال، ولذلك ذكرت ثلاثة أصناف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقين، وهذا هو قول ربنا ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧-١١]، فالوقع الصوتي لها يصور ذلك كله، ومعنى هذا أن كل فريق له ما يناسبه على حسب درجة قربه التي حققها بعمله؛ لأن الفاصلة القرآنية ليست مجرد توافق ألفاظ، إنما هي تصوير حقائق، وبيان أحوال، وأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيداً لها، قال الرماني: الفواصل: حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجيه الحكمة في الدلالة؛ إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة...^(١).

وهذه الجملة (إذا وقعت الواقعة) تدل دلالة قاطعة بوقعها، وما فيها من شدة على أحوال الأصناف الثلاثة التي نصت السورة عليهم، بالإضافة إلى تناسبها لما قبلها، وتفصيله من أول جملة فيها.

يقول الغرناطي: "لما تقدم الإعدار في السورتين المتقدمتين، والتقرير على عظم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فيقضائه -سبحانه- وقدره ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٤٩] و﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر ٥٢]، وأعلمهم -سبحانه- بالواقعة في انقسامهم الأخرى، فافتتح بذكر الساعة ﴿إِذَا وَقَعَتِ

(١) النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: د. محمد خلف الله، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر،

الْوَاقِعَةُ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية، وُضِدَّتْ بذلك عما جَرَّدَ في سورتين قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في السور الثلاث جاريًا على غير هذا الأسلوب، فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفًا بالعباد ورحمة...^(١).

فإذا كانت السورة توضح ما قبلها، وتفصل ما أجمل فيه... فإن هذا الوقع في فاتحتها دليل عليه، ونتيجة له، كما أنه مقدمة لما بعده؛ مما تم مع موضوعاتها، وتاء التأنيث فيها تشير إلى شدة الأمر الواقع وهوله، كما قال العلماء...

واختلف العلماء في العامل في "إذا" فقال بعضهم: إذا ظرفية متعلقة بالجواب المقدر، أي حصل كيت وكيت، وقيل: العامل فيها مقدر، أي: انكر، وقيل: العامل فيها الفعل بعدها (وقعت)؛ لأنها قد يجازى بها، فعمل فيها الفعل الذي بعدها، كما يعمل في "ما" و"من" اللتين للشرط في قولك: ما تفعل أفعل، ومن تكرم أكرم... ف(من وما) في موضع نصب بالفعل الذي بعدها بلا اختلاف... نكره مكي بن أبي طالب القيسي.

وقيل: إنها مبتدأ، و"إذا رجت" خبرها، وهذا على القول أنها تتصرف، وقيل: إن جواب الشرط "فأصحاب الميمنة"...^(٢).

والذي نخلص إليه بعد كل ذلك هو: أن جمال الدلالة، والسياق كامن في هذه الجملة التي تصدرت السورة ببراعة استهلال تشرح واقعا مضى بإيجاز في سورتين القمر والرحمن قبلها، وتهيئ لأحوال بنيت عليها السورة بعد هذا الاستهلال الذي يحقق المبالغة بذكر تاء التأنيث ولام التعريف؛ ليكون معبرا عن واقع الناس وأحوالهم حين ذلك، أي وقعت الساعة المعبر عنها بقوله -تعالى-: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾.

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ٣٢٨.

(٢) ينظر: مشكل إعراب القرآن، تحقيق: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ، ٧٠٩/٢.

وينظر: إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، ٣٩٢/٧.

ويكمن الجمال كله في أن الافتتاح بهذه الجملة، فيه تشويق بالغ، ولفت قوي لمعرفة ما بعدها، فهي مثار تنبيه وتحريك، وإيقاظ لقلوب كانت لاهية، يلفتها هذا التهويل، ويجذبها لترقب الموقف بعد أن تذهب في تقديره كل مذهب.

ولم تأت كلمة الواقعة فاعلاً لفعل من جنسها في القرآن كله إلا في هذه الآية، وفي قوله -تعالى-: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ٢٥]، بعد قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥].

وسورة الحاقة سبق الحديث عنها في الجمل الاسمية، والفاء هنا في (فيومئذ) رابطة لجواب الشرط "إذا" ولحقت هذه الفاء الجواب، وهي في الأصل لا تلحقه؛ لاتصالها بالظرف المتعلق بالجواب "وقعت" وهذا الظرف بدل من "إذا" وقد جاز قوله "وقعت الواقعة"؛ لأن الواقعة علم بالغلبة على القيامة .. و"إذ" مضاف إليه، والتتوين فيه عوض من جملة: أي يوم إذ نفخ في الصور^(١).

والآية هنا مسبوقة بالنفخ في الصور الذي هو دليل القيامة؛ أي إذا نفخ في الصور تحقق الوقوع، والتعبير بالماضي يحقق ذلك وينبه إليه ..

جمال الدلالة في الفرق بين التعبير في صدر السورة، والتعبير في سياقها:

وفرقت بين أن تأتي الجملة في صدر السورة، وبين أن تأتي في سياقها، فالدلالة تختلف، فهي في صدر السورة تفصل ما مضى، وتتهيئ لما بعدها؛ تأكيداً لمقصودها، وتحققاً لموضوعاتها، ولكنها في سياق السورة، تؤكد معنى النفخ المذكور قبلها، فدلالاتها محدودة؛ لأنها آية ضمن آيات، وليس صدرًا لآيات، وفرقت بين أن يكون في الشيء معنى الشيء، وبين أن يكون الشيء الشيء، أو تأكيداً له، فالأخيرة في آية الحاقة "فيومئذ وقعت الواقعة" والأولى في صدر سورة الواقعة؛ لأن الجملة "إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة" .. إجمال للمعاني المرادة في السورة، وبيان وتقصيل

(١) مشكل إعراب القرآن للخرائط، ٥٦٧ باختصار.

للمعاني القائمة على الترغيب والترهيب في السورة قبلها؛ مما يجعل القرآن الكريم خطأ مترابطاً لا يمكن فصله، سواء سوره أو آياته.

دلالة استهلال السورة بجملة متضمنة الشرط في خطاب النبي ﷺ.

ورد ذلك في سورتين من سور القرآن الكريم، الأولى إخبار عن المنافقين، والثانية إخبار بنصر الله، والخبران محققان؛ لأن التعبير فيهما بلفظ الماضي الدال على تحقق المجيء، والتعبير فيهما بلفظ (جاء) مع إذا المتضمنة معنى الشرط، الأول منهما خطاب مباشر للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والثانية إخبار مطلق بمجيء النصر، ثم تقييد الخطاب (ورأيت الناس) للدلالة على أن نصر الله لكل من نصره، كما قال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۗ﴾ محمد: ٧.

الأول في قوله -تعالى-: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

لِرَسُولِهِ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ لَكَذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

العامل في (إذا) قوله "جاءك"؛ لأن فيها معنى الشرط كما سبق ... وجواب الشرط قوله: "قالوا نشهد ...". وجملة "إنك لرسول الله" جواب القسم؛ لأن "شهد" جرى مجرى القسم، ولذلك تُلقيت بما يتلقى به القسم في قوله "إنك لرسول الله"، وكسرة همزة (إن) لوجود اللام في الخبر ... (١).

فجمال الدلالة هنا يكمن في تكذيب المنافقين والتأكيد على ذلك، والمبالغة فيه لنفي كل خديعة يصنعونها؛ لأنهم شُهِرُوا بالخداع، وإظهار الشيء، وإضمار ضده، فظاهرهم يغاير باطنهم، والتحذير منهم بأبلغ وسائل التوكيد، وهو القسم، ظاهراً كان، أو خفياً، مصرحاً به أو يؤديه مضمون السياق ... ويحقق هذه الدلالة ويجليها النظر في مقصود السورة ومحتواها، فهي كما قال الفيروزآبادي: "معظم مقصود السورة: تفرغ المنافقين، وتبكيتهم، وبيان ذلهم وكذبهم، وذكر تشریف المؤمنين، وتبجيلهم، وبيان عزهم وشرفهم، والنهي عن نسيان ذكر الحق -تعالى- والغفلة عنه، والإخبار عن

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن للقيسي، ٧٣٥/٢، والخراط ٥٥٤.

ندامة الكفار بعد الموت، وبيان أنه لا تأخير ولا إمهال بعد حلول الأجل في قوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ (١).

فالمبالغة في التحذير من خداعهم حكته الجملة الأولى في فاتحة السورة ببيان محكم، ثم فصلته السورة بتدبير متقن، كما قال ربنا - سبحانه - ﴿كَتَبْنَا لَهُ آيَاتِنَا ثُمَّ فَضَّلْنَا مَنْ لَدُنَّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ٢]، ومخالفة الظاهر للباطن أجمل ما تجليه دلالة هذه الجملة وهي ملبدة بمجموعة من أساليب التأكيد، متنوعة بتنوع قلوبهم .. ومن ثم أراها دلالة كشف وتحذير، وافتضاح أمر، وتنبية، وتصوير هيأتهم بين ذلك في أجسادهم، وتحريك رؤوسهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ مُخَسَّبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون ٤] وتلوية رؤوسهم كما حكاها القرآن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأرُءُوسُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون ٥].

والثاني في قوله - تعالى -: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وهذه السورة تسمى سورة النصر، واسمها يعبر عن مقصودها، ومقصودها يوجه جمال الدلالة فيها؛ لأنه كما قال البقاعي: "الإعلام بتمام الدين اللازم عن مدلول اسمها (النصر) اللازم عنه موت النبي - صلى الله عليه وسلم - اللازم عنه العلم بأنه ما برز إلى عالم الكون والفساد إلا لإعلاء كلمة الله - تعالى -، وإدحاض كلمة الشيطان اللازم منه أنه - صلى الله عليه وسلم - خلاصة الوجود، وأعظم عبد للمولى الودود، وعلى ذلك أيضًا دل اسمها التوديع، وحال نزولها وهو أيام التشريق من سنة حجة الوداع" (٢)، يعني هذا أنها نزلت في حجة الوداع بعد أن أتم النبي - صلى الله عليه وسلم - دعوته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا ... فهي دالة على تحقيق وعد الله بالنصر، كما قال ربنا - سبحانه -: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، بعد أن دلت سورة الكافرون قبلها على متاركة الكفار (٣) فلا يتبع دينهم ولا يتبعون

(١) بصائر ذوي التمييز، ١/٤٦٥.

(٢) مصاعد النظر، ٣/٢٦٨، ونظم الدرر، ٨/٥٥٩.

(٣) ينظر: النظم الفني، ٣٧٠.

دينه ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ولا يمكن أن تختم سورة بذلك إلا بعد أن تبين ختم الله على قلوبهم، فلا يرجى لهم صلاحًا، ولا ينتظر منهم هدى...

ومن هنا يكمن جمال الدلالة والسياق في تحقيق وعد الله بنصر نبيه، وختام النبوة بهذا النصر وانتصار دينه، وعدم توقفه حدود انتشاره بعد موته، والتعبير بـ(إذا) في أول السورة دال على التحقيق والتعبير بالمضارع في ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ دال على التجدد بتجدد الحياة والاستمرار باستمرار بقائها.. وكلمة أفواجًا تدل على غزارة الدخول فيه والإقبال عليه، وفي ذلك دلالة عليا على نجاح دعوته، وقوة صبره في أداء مهمته، ومن ثم ختمت السورة ببيان حق من حقق وعده، ونصر نبيه وأعلى له كلمته بأنه هو الجدير بالتنزيه والاستغفار؛ لأن باب توبته لا يغلق ﴿فَسِيحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهذا أيضًا من متمات الدلالة على كمال الدين، وختام الرسالة والرسالات.

دلالة الاستهلال بالآيات الكونية في سياق الجملة المتضمنة معنى الشرط:

ورد ذلك في استهلال أربع سور، تشمل بعض الآيات الأرضية، وبعض الآيات السماوية.

أولاً: الآية الكونية الأرضية: هي آية الزلزلة التي دخلت فيها "إذا" على الفعل الماضي؛ لتصوير الواقع بأبلغ صورة، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا...﴾ [الزلزلة: ١].

سبق هذه السورة بترتيب المصحف آيات كونية، نحو قوله -تعالى-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ أُنشِقَّتْ﴾، و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وكلها آيات كونية علوية. وهذه السورة (الزلزلة) آية كونية أرضية، وقبلها آيات كثيرة مثلها، ولكنها في سياق بعض السور، كقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وفي الحاقة: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَاذَكَّةَ وَحِدَةً﴾ [الحاقة:

١٤]، وفي الفجر: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّادًا﴾ [الفجر ٢١]، وفي الانشقاق: ﴿وَإِذَا
الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣].

وهذه المواد التي بنيت منها هذه العبارات: (رجف)، و(دك)، و(مدّ) بمثابة مقدمات لهذه الزلزلة، فرجف تدل على الاضطراب الشديد، والدك هي الأرض اللينة السهلة كما قال الراغب، ويقول ابن فارس: الدال والكاف أصلان: أحدهما يدل على تطامن وانسطاح ... ومنه الأرض الدكاء، وهي الأرض العريضة المستوية .. وأصل المد: الجر، يقول ابن فارس: الميم والدال أصل واحد يدل على جر شيء في طول، واتصال شيء بشيء في استطالة ... أي الزيادة فيه .. والزلزلة: الاضطراب، وتكرير حروف الكلمة فيه: تنبيه على تكرير معنى الزلزل فيه، وزلزلوا أي: ززعوا ...^(١)، ففيه تكرير الاضطراب، وشدة التحرك .. وهي آخر حركات الأرض، وفيه يقول الزمخشري: "وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده، ونحوه قولك: أكرم النبي إكرامه، وأهن الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة، أو زلزالها كله، وجميع ما هو ممكن^(٢)، وأخرجت ما في جوفها من الدفائن أثقالا لها، (وقال الإنسان مالها) زلزلت هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها؟، ولفظت أمواتها أحياء عند النفخة فيقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ويلاحظ إضافة الزلزال إليها "إذا زلزلت الأرض".

فـ(إذا) ظرفية شرطية، وزلزلت فعل ماض مبني للمفعول، والأرض نائب فاعل، والعامل في إذا: جوابها (تحدث أخبارها) "وإضافة الزلزال إليها يفيد معنى ذاتها، وهو زلزالها المختص بها، المعروف منها المتوقع، كما تقول: غضب زيد غضبة .. وكما يقول الراجز:

أنا أبو النجم وشعري شعري

(١) المفردات للراغب، ومقاييس اللغة: (رجف)، و(دك)، و(مد)، (زل).

(٢) الكشف، ٤/٢٧٦.

والقاعدة في المصدر والمؤكد يجيء اتباعاً لفعله...^(١).

وهذا الاستدلال يفيد أمرين؛ أحدهما: سؤال، كأنه لما ختمت سورة البينة قبلها ببيان حال الفريقين المؤمن، والكافر، قيل متى هذا، فقال: إذا زلزلت الأرض زلزالها ... أي حين يحدث ذلك، لذلك ختمت السورة بالترغيب والترهيب: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وهذا يتناسب مع مقصودها الأعظم الذي حده البقاعي بأنه: "انكشاف الأمور، وظهور المقدر أتم ظهور، وانقسام الناس في الجزاء في دار البقاء إلى سعادة وشقاء، وعلى ذلك دل اسمها بتأمل الظرف ومظروفه، وما أفاد من بديع القدر وصروفه"^(٢)، فكانت الدلالة الأولى من هذا الاستهلال: أن آخر البينة أثار سؤالاً، جاءت هذه جواباً عنه، وهذا يسمى (في ترابط الجمل: شبه كمال اتصال).

والدلالة الثانية لهذا الافتتاح هي: الإثارة والتنبيه نحو معرفة ما يحدث إذا اضطربت الأرض هذا الاضطراب، فجاءت آيات السورة موضحة له .. وعليه فإن جمال الدلالة والسياق في هذا النص الجليل يكمن في تحريك المشاعر بشدة مصحوبة باضطراب شديد، ووجل عظيم، يكون مثار سؤال للمنكرين، وإقرار بوعيد مصدق من المؤمنين، وهذا الاضطراب الشديد يطابق في شدته حال الفريقين، فتخلع له قلوب الكافرين، ويكون سهلاً لينا على قلوب المصدقين، وهو آخر مراحل النفخ بعد ارتجاف الأرض ودكها ومدّها .. حسب أحوال الناس عليها، ويتجلى ذلك الفرق في ختامها، كما تجلى في مقدمتها.

ثانياً: الآيات الكونية العلوية في مقدمات السور:

الآيات الكونية العلوية في استهلال السور القرآنية دخلت فيها (إذا) على الاسم وتقدير الفعل وهي ثلاث فواتح مبنية على إذا الظرفية المتضمنة معنى الشرط، وهي:

(١) البرهان للزركشي، ٣٩٦/٢ بقدر من التصرف.

(٢) نظم الدر، ٥٠٤/٨.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، و﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، و﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]

سبق أن (إذا) تدخل على المقطوع به، والذي هو كائن لا محالة، ولذلك كانت ملازمة للظرفية، وإن تضمنت معنى الشرط، فهي ظرف للمستقبل، وجوابها قوله - تعالى -: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير ٤]، وهي (إذا) متعلقة بجوابها، والشمس نائب فاعل بفعل مقدر يفسره المذكور، ومنع بعض العلماء ارتفاعها بالابتداء لأنها بمنزلة حروف المجازاة لا يليها إلا الفعل مظهرًا أو مضمراً... وأجاز نحاة الكوفة والأخفش من البصريين وقوع المبتدأ بعدها، وجملة (كورت) مفسرة لا محل لها، وعلل الكوفيون ارتفاعها بالابتداء بأن (إذا) غير عريضة في الشرط^(١)، وأن هذا يجعل المسند إليه مقدما على الخبر الفعلي الذي علل البلاغيون سره بتقوية الحكم وتوكيده في الرد هنا على المنكرين، وهذا أبلغ من أن يقال: إذا كورت الشمس، والشمس هي المنوط بها الحكم، وذلك يستدعي تقديمها... وهكذا في الجمل الاثنا عشر التي جاءت بعدها.

والتعبير بالماضي عن المستقبل وخاصة في موقعه، خبر عن المسند إليه، فيه التحقيق الذي تتوالى الجمل لإثباته، وهو مقدمات قيام الساعة... وكورت أي: ذهب ضوءها لتكويرها؛ أي لف بعضها على بعض، وانكدار النجوم: تساقطها وتهاويها، والجبال سيرت؛ أي أزيلت عن مواضعها، والعشار عطلت؛ أي النوق الحوامل أهملت بلا راع، والوحوش حشرت؛ أي جمعت من كل صوب، والبحار سجرت؛ أي أوقدت فامتلات نارا تضطرم، والنفوس زوجت؛ أي قرنت كل نفس بشكلها، والموءودة؛ أي البنت التي دفنت حية، والصحف نشرت أي فرقت صحف الأعمال، والسماء كشطت؛ أي قلعت كما يقلع السقف، والجحيم سعرت؛ أي أوقدت وأضرمت للكفار،

(١) إعراب القرآن للنحاس، تحقيق: د. زهير غازي، نشر عالم الكتب، ١٩٨٨م، ١٥٧/٥، والكشاف،

ج٤، وإعراب القرآن الكريم وبيانه، ٢٣٣/٨، والتحرير والتنوير، ١٤١/٣.

والجنة أزلقت؛ أي أدنيت وقربت من المتقين، وجواب هذه الجمل كلها (علمت نفس ما أحضرت)؛ أي ما قدمت من خير أو شر... (١).

فهذه ثنتا عشرة صفة ست منها قبل الساعة، وست منها بعد قيام الساعة، لا أرى فيها تكريراً ولا إطناباً - كما ذهب البعض - بتكرار (إذا) لأن كل واحدة منها تبين صفة غير الأخرى، وتكرار (إذا) معها جميعها تأكيد للقطع بها؛ لأنها في مواجهة منكري البعث، وهي متنوعة بين الظواهر الكونية وغيرها؛ لتكون علامات القيامة جامعة لتعطيل كل شيء تصلح به الحياة، ثم إن المقام مقام تهديد، والسياق كله وعيد شديد، وإنذار مخيف، فلا بد من تكرار إذا للقطع بكل صفة، وتحقيق كل خبر، وسيتم التناسب بينها وبين سورة (عبس) التي ختمت بقوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ۚ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ (٣٥) وَصَاحِبِيهِ ۚ (٣٦) لِكُلِّ أُمَّرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ ۚ (٣٧) وَوَجْهُهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرٌ ۚ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ (٣٩) وَوَجْهُهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ ۚ (٤٠) تَرَهَقَهَا فَزْرَةٌ ۚ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ۚ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

فهنا وعيد يلاحقه أشد منه؛ لأن الصاخة هي: الصرخة القوية التي تُصم لشدتها الآذان، وسورة الشمس بهذه الآيات، والعجائب الدالة على القدرة الإلهية تفسير لهذه الصاخة وبيان لصنيعها؛ أي أن ساعتها لا يتحقق فرار الجميع من الجميع فقط، بل تتغير معالم الكون التي لا يكون إلا بها من شمس، ونجوم، وجبال، وعشار، ووحوش، وبحار... إلخ.

ومن ثم يكمن جمال الدلالة والسياق في التعبير عن الواقع بعد مجيء الصاخة أي الصرخة العالية التي هي النفخة الثانية...

كما يتجلى مجال الدلالة أيضاً في التعبير بـ(إذا) الظرفية المتعلقة بالوقت، لذا قال أبي بن كعب محدثاً: بينما الناس في أسواقهم؛ إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم على ذلك تناثرت النجوم، وبينما هم على ذلك إذ وقعت الجبال، وتزلزلت الأرض، وهربت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، وعطلت العشار؛ أي أهملها أهلها،

(١) ينظر: المفردات للراغب في هذه المواد.

واختلطت الوحوش فذلك حشرها، وقالت الجن للإنس نحن نعرف لكم الخبر، فمضوا إلى البحار فوجدوها قد سعرت نيرانا، ثم تصدعت الأرض إلى الأرض السفلى إلى السماء العليا، ثم أرسلت عليهم الريح فأماتتهم .. (١).

وهذا كله من قدرة العليم الخبير، وهذه الأمور تجري على حقيقة الكونية وغيرها، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، حقيقة إلهية ومن دلائل القدرة، ولكن بعض العلماء يرى أن التعبير بـ (كورت) و (انكدرت) و (سيرت) وأن العشار يقصد بها السحائب، وكل ذلك على غير الحقيقة، فقد يكون مجازاً مرسلًا، وقد يكون استعارة، وقد يكون كناية، وذلك قول الشهاب الخفاجي: وبيانه كما يأتي بإيجاز: كورت: لُفت من كورت العمامة إذا لفتها بمعنى: رفعت .. يعني أنه مجاز عن رفعها، أي إزالتها من مكانها .. والعلاقة للزوم، والمانع من كونها على الحقيقة كونها من الأجرام التي لا تلف كالثياب .. وكذا يقول في تفسير البيضاوي (انكدرت) بمعنى أظلمت من كدرت الماء فانكدر، يقول: يعني أنه استعارة، فشبّه ذهاب ضوئها بتقدير الماء .. وتفسير (وإذا العشار عطلت) بأن المقصود بها السحائب، على الاستعارة، شبه السحائب المتوقع مطرها بالناقة العشاء، القريب وضع حملها، وهي استعارة لطيفة مع المناسبة التامة بينه وبين ما قبله، فإن السحب تتعقد على رؤوس الجبال، وتُرى عندها، ولا ينافيه كونه مناسبًا لما بعده على الأول، فإنه معنى حقيقي مرجح بنفسه، وتعطيها على هذا مجاز أيضًا؛ بمعنى عدم ارتقاب مطرها؛ لأنهم في شغل عنه ... (٢).

مناقشة القول بالمجاز في تكوير الشمس ونحوه:

وعلى القول السابق يكون جمال الدلالة في التعبير بغير طريق الحقيقة، ولكن لا أرجح هذا، ولا أرى له وجهًا في الحديث عن الساعة، وعلاماتها، فإن قدرة الله أعلى، وأجل في طي الشمس، ولفها بحيث يُطمس ضيائها، كيف لا؟ وهو القائل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وكذا تساقط النجوم،

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٥٧/٥.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، ٣٢٦/٨، ٣٢٧ باختصار.

وتسيير الجبال، مصداقًا لوعده -سبحانه-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿طه: ١٠٥-١٠٧﴾، فتسييرها هنا بمعنى تحريكها عن مواضعها إنما هو مقدمة لهذا النسف، والله هو القائل: ﴿يَوْمَ بُدِّلَ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨] ... فالأولى أن تجري دلالة الكلام على حقيقته التي جاء السياق عليها، كما تبين.

والشاهد الثاني من شواهد الاستهلال ببعض الآيات الكونية:

قوله -تعالى-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثرت ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فجرت ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بعثرت ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ١-٥].

دخلت (إذا) على الاسم، والفعل مضمّر لوجود ما يدل عليه، وقوله -سبحانه-: (انفطرت)؛ أي انشقت، وانتثار الكواكب: تساقطها متفرقة، وتفجير البحار: تشقق جوانبها حتى تصير بحرًا واحدًا، وإذا القبور بعثرت؛ أي قلب ترابها وأخرج موتاها، والفرق بينها وبين سورة التكوير: أنه هناك ذكر اثنتي عشرة علامة من علامات الساعة، وهنا ذكر أربعة فقط، فهناك ذكر الشمس، وهنا السماء، وهناك النجوم، وهنا الكواكب، وهنا "إذا البحار فجرت" وهناك "وإذا البحار سجت"، وهنا "وإذا القبور بعثرت" وهناك "وإذا النفوس زوجت".

وانفطار السماء مرحلة أعلى من تكوير الشمس، وكذا انتثار الكواكب كذلك مرحلة أقوى من انكدار النجوم، فالانكدار تساقط، أما الانتثار فتساقط وتفرق على غير نظام .. وهذا في الرهبة، والشدة أقوى، والانتثار يناسب الانفطار، وهناك تكوير الشمس يطفئ ضوءها، وانكدار النجوم يعطل عملها، بخلاف انفطار السماء، وانتثار الكواكب، فهذا ليس مجرد تعطيل، بل هو هدم بالكلية ..

قال الراغب: أصل النجم: الكوكب الطالع، وجمعه: نجوم ... وقال -تعالى-:

﴿وَعَلَّمَتْ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، قيل أراد به الكوكب، والكواكب:

النجوم البادية، ولا يقال لها كواكب إلا إذا بدت، قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوَكِبَاتِ﴾ [الأنعام: ٧٦]^(١).

أما الفرق بين سجرت، وفجرت، فكل منهما نوع عذاب، ولكن التسجير يتعلق بالنار، والتفجير يتعلق بالماء، والنار وسيلة إحراق، والماء وسيلة إغراق، قال الراغب: السَّجْر: تهيج النار، يقال: سَجرت التتور، ومنه ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ [الطور: ٦]، وقال -تعالى-: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، وقال: فَجَرته فانفجر، وفجرتَه فتفجَّر، قال -تعالى-: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١]، وقال -تعالى-: ﴿فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦]^(٢).

وقيل: سُجِّرَتْ تناسب سُعِّرَتْ في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢]، وتسجر فتصير ناراً، فتسجر بها جهنم، وعليه فهذا مناسب لسياق السورة، و(فجرت) في سورة الانفطار تناسب (إذا السماء انفطرت)؛ لأن معناه: سيب ماؤها فأسيح حتى فاض على وجه الأرض ففار من مكانه، وهذا أنسب لانفطار السماء، فبإزاء انتشار الكواكب انفجار البحار، فكان الإخبار عنها بهذا المعنى أولى بهذا المكان؛ لتقدم ما يشبهها من التغيير، ومجيء ما هو تزييل عن مكانه من بعثرة القبور.

أما اختلاف الجواب في التكوير ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وفي الانفطار ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

فجواب ذلك: أن بينهما عموم، وخصوص في تنويع الخطاب فإن أحضرت مطلقاً في الأعمال والصحائف والجزاء، وقوله (قدمت وأخرت) تفصيل لتلك الأعمال، وقيل: ما قدمته للدنيا، وأخرته للآخرة^(٣).

(١) المفردات: (نجم) و(كب).

(٢) المفردات (سجر)، و(فجر).

(٣) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لأبي عبد الله الكتاني، ت ٧٢٢هـ، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء بالمنصورة، ط ١، ١٩٩٠م، ٣٧٣، ودرة التنزيل للإسكافي، ٣٧٢.

وبناء على ذلك فجمال الدلالة، والسياق في نص الجملة الأولى هنا امتداد للسورة السابقة بما فيها من تذكير بيوم الوعيد، وهنا تحذير من الاغترار بالأعمال، يتمثل في نداء الحق: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ...﴾ [الانفطار: ٦].

فكل من السورتين: التكوير، والانفطار وعيد، وتذكير، وحساب على كل عمل، ولكن ما أجمل في الأولى، فُصِّل في الثانية، والثانية أشد تفصيلاً وأكبر تحذيراً في التصريح بعدم الاغترار برحمة الله وإمهاله.

والشاهد الثالث من شواهد الاستهلال ببعض الآيات الكونية:

ويبقى الشاهد الأخير من شواهد الاستهلال بالآيات الكونية بجملة الشرط، وهو قوله -تعالى-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤﴾ [الانشقاق: ١-٥].

سبق أن فسر العلماء الانفطار في قوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) بالانشقاق، وهنا جاء المعنى صريحاً بنصه في هذه السورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، وهذا يدل على الترقى بين هذه السور من درجة في الوعيد، والتحذير، والتذكير، إلى درجة أعلى، ولكن لوحظ أن سورة المطففين فصلت بينهما حسب ترتيب المصحف، مع أن سورة الانشقاق نزلت بعد سورة الانفطار كما أخبر أهل العلم، والسبب في ذلك هو الاتصال الوثيق بين سورة المطففين، وسورة الانفطار، فلما قال -سبحانه- في آخر الانفطار ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

قال بعدها: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١-٥]، فالיום العظيم هذا هو الذي قال فيه ربنا في خاتمة الانفطار: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾، وهو اليوم العظيم الذي أنكر عليهم تغافلهم، وانغماسهم فيما حرم الله، سواء في حقه، أو في حقوق عباده التي تتناسب مع بداية السورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ثم تأتي سورة الانشقاق للتذكير بأن نهاية الكدح هي: لقاء الله ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا

فَمُلْقِيهِ ﴿﴾ [الانشقاق ٦] فالسمااء هنا انشقت، " وأذنت لربها وحقت " أي: استمعت، وانقادت، وحق لها ذلك، والأرض انبسطت، وألقت ما فيها متعمدة إخلاء ذاتها، وهي والسمااء التي قالتا قبل ذلك في بداية صنعهما ﴿﴾ أَيْنَا طَائِعِينَ ﴿﴾ [فصلت: ١١]، فطاعتهما في بدء خلقهما، ويوم تبديلهما ... امتثالاً لأمر ربهما ...

ويكمن جمال الدلالة، والسياق في هذا الترقي في علامات الساعة، والتشويق الذي تحدثه بداية كل سورة منها لمعرفة الأحداث، والوقائع التي تختتم بها الدنيا، ويتحقق بها وعد الله، ويقر به أهل الإيمان، ويتحسر أهل الكفر والشقاق والعصيان حين يجدوا ما بالغوا في إنكاره واقعاً، وتجزى كل نفس بما كسبت، كما كان في سورة التكوير في جواب إذا ﴿﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴿﴾ ازداد تفصيله فقال في الانفطار ﴿﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿﴾، ثم ارتقى علم كل نفس هنا إلى زيادة تفصيل تتجلى دلالاته في سياق قوله -تعالى-: ﴿﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَّرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿﴾ [الانشقاق: ٧-١٥].

الفصل الخامس

جمال دلالة الجملة الإنشائية بين سياقها

في استهلال السور القرآنية

مدخل في بيان المعنى، وتحديد مسار البحث:

الجملة الإنشائية في فاتحة كل سورة لها جمال، وجلال يناسب وقعها، ويتآزر مع سياق السورة التي استهلكت بها، والجملة الإنشائية من ضمن الفواتح العشر التي بني عليها القرآن الكريم، ولكن الزركشي ومن حذا حذوه قسموا الجملة الإنشائية في فواتح السور إلى: النداء في عشر سور، خمس في نداء الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وخمس في نداء الأمة، والأمر في ست سور، والاستقهام في ست سور، والنداء في ثلاث سور، والقسم في خمس عشرة سورة، وسأدرس فيه -إن شاء الله- أسلوب القسم المنفي: نحو: "لا أقسم" لأن القصد بها تحقيق القسم وتأكيد، وكلها ابتداءات حسنة بالغة، كانت سبباً في معرفة مقصود السورة، بالإضافة إلى اسم السورة الذي رأى البقاعي أنه مترجم لمقصودها.

والوقوف على جمال الدلالة في السياق القرآني من خلال دراسة الجملة الإنشائية على اختلاف منازلها في استهلال السور القرآنية التي بنيت عليها لا بد أن يتقدمه مفاتيح نظرية تجلي معنى الإنشاء، والفرق بين ضربيه، ومجالات خروج أساليبه عن معانيها الظاهرة، إلى معان أخرى مقصودة، وأسباب ذلك واختلاف العلماء في تسمية هذه المعاني المفادة منها مع بقاء المعنى الأول قائماً فيها؛ ليكون التطبيق أمره ميسوراً، ولتكون معرفة دلالاته وجمالها مطابقاً لطبيعة الباب، ومعالم القصد، وأغراض السياق الذي لا يتم الوصول إلى المطلوب إلا بالإلمام بمعانيه، ومعرفة المقام الأسمى فيه ..

سبق أن بينت أن الكلام إما خبر، أو إنشاء، وأن الجملة الخبرية لها واقع خارج العبارة، إن طابقتها وصفت بالصدق، وإن خالفها وصفت بغير ذلك، وأن أخبار القرآن الكريم لا تشوبها شائبة، فهي كلها مطابقة للواقع، ودرست من الجمل الخبرية في

استهلال السور القرآنية قدرًا كبيرًا، وبينت جمال الدلالة في سياقها، وتعلقه بمقصودها، وألحقت بالحديث عن الجملة الخبرية، جملة الشرط التي وقعت استهلالًا لسبع سور من سور القرآن الكريم، وكلها بـ(إذا) ومعلوم أن(إذا) تدخل على المقطوع به، الذي لا شك فيه إلا من منكري البعث، ودرستها عقب الجمل الخبرية؛ لأنها أخبار، وليس لديها في باب الإنشاء سبيل.

أما الإنشاء، فيختلف عن الخبر؛ لأنه قسيمه في الكلام، فالكلام إما خبر وإما إنشاء، ولكن الإنشاء اسمه مترجم عن معناه، فهو بمعنى الإيجاد، ولا يحتمل الصدق ولا الكذب، بل لا يحصل مضمونه، ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به، وواقع النص أو الجملة يوضح ذلك من خلال قصد المتكلم، لذلك يقول ابن منظور: أنشأ الله الخلق: ابتداء خلقهم، والإنشاء هو الابتداء، أو الخلق، أو الابتداء، فليس له قبل التلفظ به واقع يطابقه أو يخالفه، ولكن يعرف قصده بعد ذكره، ويقول السيد الشريف الجرجاني: "الإنشاء قد يقال على الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه" ... (١)، وهو ما وضحه الخطيب في بيان وجه حصر الكلام بين هذين النوعين الخبر والإنشاء، يقول: "وجه الحصر: أن الكلام إما خبر، أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه، أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج، الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء"، والقصد في الأول الإخبار عن المعنى القائم، والقصد في الثاني إنشاء المعنى وإيجاده ... وهناك معانٍ إنشائية تتوارى في أساليب خبرية، ولكن وقع العبارة يشعر بمضمونها ومرادها، كما يقال: غفر الله لك، ورحمك الله، وكما يقول مزرد أخو الشماخ بن ضرار في رثاء عمر:

جزى الله خيرًا من أمير وباركت ★★ يد الله في ذاك الأديم الممزق

فليس القصد إلى الإخبار والبحث عن وجود نسبة المطابقة للواقع وعدمها، بل المقصود إنشاء هذه المعاني، والمقصود بها الدعاء وقد يُعكس الموضوع، فيكون اللفظ إنشاء والمعنى خبر، كقوله -عليه الصلاة والسلام-: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا

(١) ينظر لسان العرب (أنشأ) والتعريفات : ٢٢.

فليتنبأ مقعده من النار" (١)، فليس المراد طلب تبوء مقعده من النار، وإنما الإخبار عن ذلك، وأنه كائن لا محالة، وأنه سيتنبأ مقعده من النار بنفسه، كما يصدر الفعل من مأمور مستضعف لا طاقة له بمخالفة أمر الأمر، وهكذا قوله -تعالى-: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف ٢٩]، والمراد: إقامة وجوهكم عند كل مسجد... (٢)، وهكذا نجد أن طبيعة المعاني لها دخل كبير في تحديد ملامح الأسلوب، فالمقصود بالإنشاء ليس مطابقة النسبة الكلامية، والنسبة الخارجية وإن كانت موجودة في بعض السياقات، ولكن القصد فيه الدلالة على أن اللفظ وجدت به تلك النسبة، وهذا كلام ابن يعقوب المغربي في قول: "إن الكلام الذي يحسن السكوت عليه لا محالة يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه، فإن كان يقصد الدلالة على أن تلك النسبة المفهومة من الكلام حصلت في الخارج بين معنى المسند والمسند إليه فذلك الكلام خبر، وإن كان القصد الدلالة على أن اللفظ وجدت به تلك النسبة فالكلام إنشاء" (٣).

والإنشاء ضربان: أحدهما: الطلبي وهو الذي يستدعي مطلوبًا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطب؛ لامتناع طلب الحاصل، والغرض أن جميع أنواعه تستدعي ذلك، وهي خمسة أنواع: الاستفهام، والتمني، والأمر، والنهي، والنداء، ووجه الحصر فيها: أنه إما أن يقتضي مطلوبًا ممكنًا أو لا، والثاني هو التمني، والأول إن كان المطلوب به حصول أمر في ذهن الطالب فهو الاستفهام، وإن كان المطلوب به حصول أمر في الخارج فإن كان ذلك الأمر انتفاء فعل فهو النهي، وإن كان ثبوته فإن كان بإحدى حروف النداء فهو نداء، وإلا فهو أمر (٤).

والثاني: غير الطلبي، وهو ما لا يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب، ويكون بصيغ المدح، والذم، والعقود، والقسم، والتعجب، والرجاء، وهذا الضرب أغفله

(١) الإيضاح، ١٣.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، ١٨٩.

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، ١/١٦٨، دار السرور، بيروت، لبنان.

(٤) ينظر: المطول، ٢٣٤.

علماء المعاني معلمين ذلك بقلة المباحث البلاغية المتعلقة به، وإن كثيراً من الإنشاءات غير الطلبية في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء ... ولكن إذا أنعمنا النظر في أساليب القسم، والتعجب، والترجي، والمدح، والذم في الأساليب رأيناها لا تخلو من معانٍ يجب التنبيه لها، وسيتجلى ذلك من دراسة جمل القسم التي استهلّت بها بعض السور القرآنية .. وإذا تركنا البحث في هذه الأساليب اتكاءً على القول بأنها لا تستدعي مطلوباً، وليس وراءها مباحث تتعلق بها نكون قد أغفلنا جانباً من البلاغة جد خطير، فالقسم مثلاً له في القرآن الكريم وقع جليل، ولنا فيه وقفة في حينه إن شاء الله رب العالمين.

وعند تطبيق ذلك للوقوف على جماليات الدلالة والسياق في النص القرآني، نجد أن جملة الاستفهام جاءت استهلالاً لست سور، ثلاثة منها بالهمزة، وهي أم الباق، واثنان بـ(هل)، وواحد بـ(ما) المحذوفة الألف؛ لدخول حرف الجر عليها، وكذلك جملة الأمر جاءت استهلالاً لسبع سور، والنداء جاء استهلالاً لعشر سور، خمس في نداء الرسول -صلى الله عليه وسلم- وخمس في نداء الأمة، وثلاث سور استهلّت بالخبر، والمراد به الدعاء، وهو إنشاء، ثم جاء القسم (وهو من غير الطلبية) في استهلال خمس عشرة سورة، وجاء بنفي القسم (لا أقسم) في مقدمة سورتي القيامة والبلد.

وتلك أساليب الإنشاء التي نبحت فيها جماليات الدلالة والسياق من خلال فواتح السور التي استهلّت بها فقط، تحديداً لمسار البحث كما سبق، وأبدأ بـ:

المبحث الأول

جمال الدلالة في الاستهلال بجملة الاستفهام:

جاءت جملة الاستفهام في فواتح ست سور، ثلاث منها بهمزة الاستفهام، واثنان بهل، وواحدة بـ(ما) المحذوفة الألف؛ لدخول حرف الجر عليها. ونبدأ بشواهد الهمزة لأنها أم باب الاستفهام، وتملك فيه ما لا يحق لغيرها.

والاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، أو طلب حصول صورة الشيء في الذهن كما حدّه البلاغيون ... والألفاظ الموضوعية له هي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيان، أين، وكيف، وأنى، وكم، وأي، وتنقسم بحسب الطلب ثلاثة أقسام:

١- ما يطلب التصور، والتصديق حسبما يقتضي السياق، وهي (الهمزة).

٢- ما يطلب به التصديق فقط، وهي (هل).

٣- ما يطلب به التصور فقط، وهي بقية الأدوات، أي كل واحدة منها يطلب

بها تصور شيء معين، ف—(ما) لغير العاقل، كقوله -تعالى-: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧]، و(أي) لتمييز أحد المشتركين في أمر يعمهما، كقوله -تعالى-: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣]، و(كم) للسؤال عن العدد، كقوله -تعالى-: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢]، و(كيف) للسؤال عن الحال، كقوله -تعالى-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، و(أين) للسؤال عن المكان، كقوله -تعالى-: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، و(أنى) للسؤال عن الحال تارة، كقوله -تعالى-: ﴿فَأَنزَلْنَا حَرَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] مثل كيف، وعن المكان تارة أخرى مثل أين، كقوله -تعالى-: ﴿قَالَ يَمْرِي أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي من أين لك هذا؟ و(أيان) للزمان كقوله -تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الْبَيْتِ﴾ [الذاريات: ١٢]، و(متى) يسأل بها عن الزمان أيضاً كقوله -تعالى-: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أما الهمزة فهي أم الباب؛ لأنها عريقة فيه وضاعاً بخلاف غيرها من أدوات الاستفهام الأخرى، فالاستفهام طارئ عليها، وتقيده بالتضمين، كما أنها أبسط أدوات الاستفهام، وأخفها استعمالاً، وإذا حذف أداة الاستفهام فإنه لا يقدر سواها، وتحذف

من الكلام ويبقى معناها، كقوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِعَاجِزِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، أي أمنه، وسبق بيان ذلك ...

وتدخل على حروف العطف؛ لأن لها الصدارة، وتدخل على النفي كما في شواهدنا الآتية هنا في بدايات بعض السور، كما تدخل على الإثبات ويسأل بها عن كل شيء في الجملة من أحد عناصرها، أو قيودها، ويسمى ذلك تصوراً؛ لأن التصور هو: إدراك المفرد؛ أي أحد أجزاء الجملة، المسند أو المسند إليه، أو أحد قيودها، كما يسأل بها عن العرى التي بين الجملة، وهي النسبة، ويسمى ذلك تصديقاً، وحكم همزة التصور: أن يليها المسئول عنه بها، ويكون الجواب بالتعيين، أما همزة التصديق الذي هو إدراك وقوع النسبة بين طرفي الجملة أو عدم وقوعها؛ أي إدراك مطابقتها للواقع، أو عدم مطابقتها، فالجواب يكون فيها بالإثبات، أو النفي، ويمتنع ذكر المعادل معها، بخلاف همزة التصور، فيذكر معها المعادل، بذكر أم المتصلة المعادلة، وإذا وقعت أم بعد همزة التصديق تكون منقطعة بمعنى بل، وتوافقها (هل) في ذلك، ولا بد من وقوع الجملة بعد أم المنقطعة، فإذا وقع بعدها مفرد قُدِّرَ بجملة ..

وشواهد الاستفهام بالهمزة في افتتاح السور كلها صادرة من الحق -سبحانه- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وليست محكية عن أحد من البشر، لذلك لم يقصد بالاستفهام مجرد طلب الفهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما وراءها معان ودلالات تتناسب مع كل سياق، وتعبّر عن فضل الله، وكمال قدرته، وجلال عظمته، وجل استفهامات القرآن كذلك لا تحتاج جواباً؛ لأنها يقصد بها معنى يحدده السياق، ويومئ إليه النص، وقد ألمح إلى ذلك بعض المفسرين منهم أبو حيان، وهو بشرح قول الله -تعالى-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

قال: هذا تعجيب من حالهم، واستعظام لعظم مقالته، حين اختلفت مطامعهم، وظهر كذب دعواهم؛ إذ صاروا إلى عذاب ما لهم حيلة في دفعه ... وهذا الاستفهام

لا يحتاج إلى جواب، وكذا أكثر استفهات القرآن؛ لأنها من عالم الشهادة، وإنما استفهاته -تعالى- تفرع^(١).

لذلك اختلف العلماء في المعاني المفادة من الاستفهام فسامها بعضهم معاني مجازية، والذين أطلقوا عليها هذه التسمية لم يستطيعوا تحرير العلاقة بين كلمة مجاز، وبين مدلول الاستفهام عندهم، وقد نص على ذلك، سعد الدين التفتازاني، وهو من القائلين بأنها معانٍ مجازية، فقال: "ثم إن هذه الكلمات الاستفهامية كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام، مما يناسب المقام بمعونة القرائن، وتحقيق كيفية هذا المجاز، وبيان أنه من أي نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله"^(٢).

وبهاء الدين السبكي صرح بالقول إنها معانٍ مجازية فقال: "يعني أن هذه الكلمات الموضوعية للاستفهام قد تستعمل في غيره مجازاً"^(٣).

نخلص من هذا إلى أن الذين قالوا إن المعاني التي يفيدها الاستفهام معانٍ مجازية اضطربت كلمتهم في هذا القول، وكأنهم قالوا عن غير قناعة به؛ لكثرة المعاني المستفاد من الاستفهام؛ لأن اللفظ في باب المجاز ينقل من معناه الأصلي إلى معنى آخر، وليس إلى جملة معانٍ يوحي بها السياق... فالسعد قال... تحقيق هذا مما لم يحم أحد حوله، والسيد الشريف يقول بصعوبة العلاقة بين المجاز، والمناسبة المجوزة له، وتحقق هذه الصعوبة، وهذا التكلف المشار إليه في دراستهم لبعض شواهد الاستفهام؛ مما يدل على عدم ثباتهم على القول بأنها معانٍ مجازية.

ففي بيان التنبيه على الضلال في قوله -تعالى-: ﴿فَأَيُّ زُهْبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، يقول الدسوقي: قال السيد: فاستعمال صيغة الاستفهام في التنبيه المذكور من استعمال اسم الملزوم في اللازم، قال عبد الحكيم: ولك أن تجعل اللفظ مستعملاً في

(١) البحر المحيط، دار القلم، ٤١٥/٢.

(٢) المطول على التلخيص، ٢٣٥.

(٣) عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص، ٢٩٠/٢.

الاستفهام؛ ليتوصل به إلى التنبيه على طريق الكناية، أو بجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام مع التنبيه على أنه من مستتبعات الكلام^(١).

هذا وما يشبهه في بيانهم يدل على عدم تثبتهم في عدها من باب المجاز أو الكناية، أو مستتبعات التراكيب ..

ومن ثم، فالجدير بها أن تكون من مستتبعات التراكيب؛ لأن الاستفهام موجود مع كل معنى من هذه المعاني، وأفضل ما قرأته في ذلك: ما قاله الدكتور محمد أبو موسى: "وقد لحظ عبد القاهر أن الاستفهام الذي نفسره بهذه المعاني لا يراد به عند التحقيق إلا محض التنبيه؛ أعني الإيقاظ، وإثارة حركة الفكر والحس، ليلتفت بهذا الحضور الواعي إلى السياق فيستوعبه بخفاياه، ودقائق همسه، وكل حواشيه فيلتقط المراد .. والاستفهام هنا يهيئ النفس لتتلقى من السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور، هي التي جاشت في نفس متلقيه"^(٢).

جمال الدلالة في مخاطبة النبي ﷺ بأسلوب الاستفهام:

وهذه المعاني التي يفيض بها النص بمعاونة السياق لا يمكن أن تكون من قبيل المجاز أو الكناية، فهي تتجم من التراكيب، وتتاسب مع المراد، والاستفهام باقٍ فيها حتى لو كان المقصود به التقرير كما في قول الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

فهذا خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- من باب التثبيت والتذكير بنعم الله سبحانه وتعالى، وغرضه التقرير، والتقرير قد يكون بمعنى التحقيق والتثبيت، ولا يحتاج جواباً، كهذه الآية؛ أي قد شرحنا لك صدرك، وقد يكون بمعنى طلب الإقرار، ويحتاج جواباً كقوله -تعالى-: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(١) ينظر: المطول والشروح، ٢/٢٩٢.

(٢) دلالات التراكيب، ٢٤٤.

فهذا إنشاء لفظاً ومعنى، بخلاف الأول، فهو إنشاء في اللفظ "ألم نشرح" خبر في المعنى؛ أي: قد شرحنا لك صدرك .. وعطف الماضي عليه "ووضعنا عنك وزرك" يحقق هذا المعنى (التقرير)؛ أي قد شرحنا، وقد وضعنا.

وجمال الدلالة والسياق هنا يتجلى في بيان عظمة الله، والتذكير بنعمه واستمرارها؛ لأن (نشرح) مضارع مجزوم بـ(لم) وفاعله تقديره (نحن) أي بما لنا من العظمة، وهذا إكمال للنعم المذكورة في سورة الضحى قبلها، ومن ضمن عطاء الله الذي قال فيه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

والتقسيمات الثلاثية المقابلة لبعضها في آخر سورة الضحى، مع وضوحها، إلا أنها تزداد تفصيلاً بهذه السورة كلها ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فهي متممة لها، ولذلك روي عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما يريان أن السورتين سورة واحدة، وغرضهما تثبيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وإيناسه^(١)، وبيان أن ربه ما قلاه، كما قال بعض المعاندين، ولذلك حذف مفعول (قل) ولم يقل: وما قلاك؛ ليكون ذلك دائماً لا حد له، وتكثر به النعم، التي أعلاها ما ذكر في هذه السورة من فضائل عميمة مع تكاليف عظيمة تكون سبباً فيها، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨]، ويزداد جمال الدلالة مع هذا السياق بتعاضد النعم، وارتباطها بالتكليف، ومواصلة العمل.

والاستفهام التقريري في الجملة الأولى من السورة "ألم نشرح لك صدرك" يجمع هذه الدلالة، ويبين أنها رأس النعم وأعظمها، وواسطة العقد فيها، وأجملها، حيث جاءت بين النعم التي ساققتها سورة الضحى، والنعم التي جاءت بعد التقرير بشرح صدره -صلى الله عليه وسلم- وهو غير منكر لذلك، ولكن يتجلى جمال دلالة النص في التثبيت المعين على أداء التكليف.

جمال دلالة الاستفهام في التثبيت، والإثبات:

تتجلى دلالة الاستفهام في فاتحة السورة في التقرير الذي به يستقر قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- ويطمئن لتأييد الله له، وبيان قدرة الحق سبحانه، في أن التكاثر

(١) ينظر: النظم الفني في القرآن، ٣٥٤.

الذي به يكون التباهي والتفاخر، لا يغني من الله شيئاً، فهذه صورة واقعة مرئية تجلى واقع من تجبر، واغتر بعطاء الله له، واستخدمه في هدم بيت الله، فكانت العاقبة، فجاء الاستفهام جامعا للتقرير، والإنكار، التقرير للنبي بقدرة الله، وسلطانه، وعلوه، وقوة برهانه، والرسول لا ينكر قدرة الله، ولا يرتاب فيها، لذا كان التثبيت هو الغرض الأسمى لهذا التقرير، أما الإنكار فجاء لكل من يغتر بقدرته التي منحها الله إياها فينسى الله، بل يدعي منازعته القوة، ومن ثم توالت الاستفهامات في هذا الشاهد، الذي صدره: قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

لا ريب أن المخاطب هو النبي -صلى الله عليه وسلم- وألم تر بمعنى ألم تعلم، وهو استفهام تقرير كالذي مضى لا يحتاج إلى جواب، ومجيء الاستفهام الثاني (كيف) التي يُسأل بها عن الحال، فيه تعظيم الفعل الذي تم، والتعجيب منه "إذ المعنى: أي فعل فعل ربك؟ ولا يتجه فيه أن يكون حالاً من الفاعل؛ أي: وهو ربك؛ لأنه يقتضي أن الفاعل وهو الرب متصف بالكيفيات والأحوال؛ لأن المعنى: فعل ربك حال كونه على أي حالة وكيفية، واتصافه بها محال، والجملة المعلقة بالاستفهام سدت مسد مفعولي تر؛ لأن الرؤية قلبية تفيد العلم الضروري المساوي في القوة والجلاء للمشاهدة والعيان" (١).

ثم يأتي الاستفهام الثالث في نفس السورة: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ﴾ تقريراً بما حدث خلاف التعذيب والتنكيل الذي سردته السورة بعد ذلك: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

فقد بنيت السورة على ثلاثة استفهامات تقريرية، كما تبين، يقصد بها: التحقيق والتثبيت، ويتجلى منها الدلالة على قدرة الله -سبحانه- على المتأخرين بنعمه عليهم، الذين غرتهم قوتهم، وعدتهم الفانية في سورة التكاثر قبلها؛ لأن هذا هو الذي غرّ أبرهه، وجعله يقدم على ما أقدم عليه، ولكن الله أهلكه، فلما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- في وجل ثبته الله بأن ذكره بقدرته.

(١) إعراب القرآن وبيانه، ٤١٦/٨.

وهذه الدلالة حققها السياق بهذه الاستفهامات المتتالية، والتعبير بـ(ربك) مع دلائل القوة والهيمنة يجلي مكانته عند ربه؛ لأن معناه: "المحسن إليك، ومن إحسانه، إحسانه إلى قومك بك، وبهذه الواقعة الخارقة للعادة؛ إرهاباً لنبوتك .. وفي تخصيصه -صلى الله عليه وسلم- بالخطاب، والتعبير بالرب مع التشريف له، والإشارة بذكره، والتعريض بحقارة الأصنام التي سموها أرباباً لهم، يعلم ذلك منهم علم اليقين من آمن، ومن استمر على كفره، فسيعلم ذلك حق اليقين عندما يسلط الله عليهم رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالبلد الحرام، ويحلها له على أعلى حال ومرام...^(١).

فنص الجملة الأولى الذي مفتاح السورة: جملة إنشائية، جمعت معالم القوة، والتنبيه، والتذكير، والتسلية الداعية إلى أداء المهمة في يقين، وثبات، يحقق قول الله -تعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُّكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، والتعبير فيها بالمضارع يدل على استمرارها، كما أنها لم تتكرر ببنياتها هذه في غير هذه الآية، وفي ذلك دلالة على القطع بمضمونها، ولكن يأتي التقرير ويتكرر كل حين تثبيتاً وتأييداً.

ومن هنا يتجلى جمال الدلالة من خلال السياق بتأزر الجمل التي تتعاون في تحقيق المقصود.

(١) نظم الدرر، ٥٢٩/٨.

دلالة استفهام التأنيس في الترغيب والترهيب:

ويبقى من شواهد الاستفهام بالهمزة في صدور السور القرآنية قوله -تعالى- مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم - أيضا: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١-٣].

فـ أرايت بمعنى أعلمني، أو أخبرني، وليس استفهام تقرير كالسابقين في "ألم نشرح" و"ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل" بل أراه استفهام تأنيس، يدل على مكانة النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ربه، على شاكلة قوله لموسى -عليه السلام- ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨]، وهو -سبحانه- يعلم، ولكنها ملاطفة الحق، فهنا يكون السؤال "أرايت الذي يكذب بالدين؟" أي أعلمته؟ لا يقرره به، ولا ينكر عليه عدم معرفته، ولكن الله أن أراد أن يبين له أن من تتمثل فيه الخصال الآتية لا يؤمن بالله ورسوله، ولا بيوم البعث، ولو آمن لما كانت فيه، ولذلك قال البقاعي: "ولما كان فعل الرؤية بمعنى أخبرني المتعدي إلى مفعولين، كان تقدير المفعول الثاني: أليس جديراً بالانتقام؟" (١).

فالله يسأل رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي يوحي إليه، أليس هذا تأنيساً له -صلى الله عليه وسلم- وتكريماً؟ ويقول النحاس: "ويجوز أن يكون أرايت من رؤية العين، فلا يكون في الكلام حذف، وأن يكون من رؤية القلب فيكون التقدير: أرايت الذي يكذب بالدين بعدما ظهر له من البراهين؟ أليس مستحقاً عذاب الله؟" (٢) والحذف الذي يتحدث عنه: أن الفاء في (فذلك) جواب شرط مقدر؛ أي إن لم تعرفه فذلك، وذلك مبتدأ، واسم الموصول خبره ..

ومن ثم تتجلى الدلالة من بناء السياق، والجملة الأولى تجمع ما فصله السياق عند من يتأمل؛ لأن رباً يسأل نبيه -صلى الله عليه وسلم- فلا شك أنه يؤانسه ويكرمه، ويرفع قدره؛ لأنه يطلب منه التصديق على صنيعة مع هؤلاء المكذبين،

(١) نظم الدرر، ٥٤٢/٨.

(٢) إعراب القرآن، ٢٩٦/٥.

والسورة تنبّه من يُكذب، وتحذره مصيره ... وكلها قائمة على الإجمال الذي يشوق إلى التفصيل، كما في أولها، وكما في قوله -تعالى-: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ .. [الآية ٤].

فما بعدها أيضًا توضيح لمن حكم عليهم بالويل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الآيات ٤-٧].

كل جملة توضح التي قبلها، وتقصّل مرادها .. وهكذا جمال الدلالة في نصوص القرآن، تنبثق الدلالة على المقصود فيه من بيان الحال ومطابقة المقام.

دلالة الاستفهام بـ(هل) في مقدمات السور:

وقعت (هل) الاستفهامية استهلالاً لسورتين من سور القرآن الكريم، إحداهما خطاب عام (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) والثاني خطاب خاص (هل أتاك حديث الغاشية)؟ ولكل منهما دلالة تناسب السياق والقصد.

وقبل أن أقف معهما، أتحدث بإيجاز عن (هل) وخصائصها، كما سبق أن بينت الهمزة، وخصائصها ليكون القارئ على ذكر بالموضوع، فقد سبق أن (هل) لطلب التصديق فحسب؛ أي مطلق وقوع النسبة، أو عدم وقوعها، وتدخل على الجملتين الاسمية، والفعلية، ويمتنع الجمع بينهما، وبين أم المتصلة في تركيب واحد؛ لأن أم المتصلة تفيد أن السائل عالم بالحكم، وهل عكس ذلك، فبينهما تدافع، وتناقض، فلا يصح: هل محمد ناجح أم علي؟؛ لأن أم وقع بعدها مفرد، فدل على أنها متصلة، وتفيد التصور؛ لأن السائل عالم بالحكم، ولكنه متردد، وليس هذا شأن هل، فلا يجوز استعمال (أم) بعدها إلا عند إرادة المنقطعة، كقول القائل:

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحي ★★ رحي الحرب أم أضحت يفلح كما هيا

ويقبح استعمال هل في تركيب هو مظنة للعلم بحصول أصل النسبة، وهو ما يتقدم فيه المعمول على الفعل، نحو: هل خليلاً أكرمت؟ فتقديم المفعول على الفعل يقتضي غالباً حصول العلم للمتكلم، وأن السؤال عن وقوع عليه الإكرام، والاستفهام حينئذٍ لا يكون للتصديق؛ لأن النسبة أضحت معلومة، وهل لطلب التصديق فحسب،

فكان ثم تناقض بين مفهوم تقديم المفعول على الفعل، ودلالة (هل) وقيل: إنه قبيح لا ممتع؛ لأنه ليس بلازم أن يكون التقديم للتخصيص المفيد حصول العلم، فقد يكون لمجرد الاهتمام، ولا تكون النسبة والحالة هذه معلومة، فتؤدي (هل) دورها في طلب التصديق.

ومن خصائص (هل) أنها تخلّص المضارع للاستقبال بحكم الوضع كالسين وسوف، لذلك لا يصح أن تستعمل فيما يراد به الحال، نحو: هل تضرب زيدًا وهو أخوك؟ فاختصاصها بالفعل أقوى من اختصاصها بالاسم، وخاصة الأفعال التي تدل على الزمان^(١)، وتفيد ما تفيد الهمة من تقرير، وتثبيت، وإنكار، وتعجب، ونحو ذلك مما تبرزه دلالات السياق، وتحده دقائمه .. وجاءت في مقدمات السور في شاهدين فقط كما سبق بيانهما كما يأتي:

الأول قوله -تعالى-: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١].

معلوم أن الله -عز وجل- لا يستفهم، ولا يريد جوابًا، تعالى الله علوًا كبيرًا، ولكن دلالة الكلام هنا تذكير الإنسان بأنه لم يك شيئًا قبل ذلك، أما وقد صار من لا شيء شيئًا، أليس هذا دليل على قدرة الله وعلمه؟ فعلام التكبر على نعمة الله وإنكار قدرته على البعث؟ ومن ثم قال الغرناطي: قوله -تعالى-: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١] تعريف للإنسان بحاله، وابتداء أمره؛ ليعلم أن لا طريق له لكبر، واعتقاد السيادة لنفسه، وأن لا يغالطه ما اكتنفته من الألفاظ الربانية، والاعتناء الإلهي، والتكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]^(٢).

(١) ينظر: شروح التلخيص ٢/٢٥٩، البرهان في تناسب سور القرآن، ٢٥٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء، ٣/٣١٢، وتفسير الماوردي (النكت والعيون)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، طبعة دار الكتب، ٦/١٦١.

والخطاب هنا غير مقيد، ولكنه عام في التقرير بنعم الله، والإنكار على من ينكر قدرته، ويستعظم بعثه وإعادة خلقه، وذكر بعض العلماء أن (هل) هذه تكون بمعنى (قد) وتقدير الكلام: قد أتى على الإنسان حين من الدهر، على معنى الخبر، وهل قد تكون جدًّا، وتكون خبرًا، فهذا من الخبر، وقد تكون (هل) استفهامية على بابها، والاستفهام هنا بمعنى التقرير، فلا بد أن يقول: نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه، فيقال له: من أحدثه بعد أن لم يكن؟ .. وفي الإنسان قولان: أحدهما أنه آدم، والثاني: أنه كل إنسان.

وعلى المعنيين لـ (هل) فالمؤدى واحد؛ لأن كونها بمعنى (قد) تحقيق، وكونها بمعنى الاستفهام الذي يفيد التقرير، إنما هو في معناه تأكيد وتحقيق، ولكن على الأول يكون خبرًا، وهذا ليس فيه الإثارة والتشويق الذي يربط الإنسان بمبدئه، وقد كان نطفة من مني يمى، ثم حسب أنه سيترك سدى بلا تكاليف وضوابط ... والتقرير بقدرة الله هنا عام، بعد أن كان خاصًا في سورة القيامة قبلها، فيها ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ، ﴿٢﴾ بَلْ قَدَرِينَا عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ، ﴿٣﴾﴾ [القيامة: ٤]، وبهذا يتجلى التناسب بين السورتين: القيامة، والإنسان، فهناك تحدثت عنه السورة، وهو شيء، وله كيان كما قال ربنا ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: ١٤]، وهنا قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿٢٠﴾﴾، فالحديث هنا على عمومه، وهناك على خصوصه.

ويتجلى جمال الدلالة والسياق في نص الجملة الاستفهامية بعدة أمور؛ وهي: التذكير بشأن الإنسان، وبيان قدرة الله على خلقه من لا شيء، وعلى بعثه بعد ذلك، كما قال -سبحانه-: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وحمله على الإقرار بذلك، واعترفه به، والإثارة التي أحدثها أسلوب الاستفهام، وبناء الكلام عليه أوفى دلالة من التعبير بلفظ الخبر بأن يقال مثلًا: قد مضى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا .. ومع ذلك كرمه الله، وجاء التعبير عنه بالظاهر بدلًا من الضمير في قوله -سبحانه- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، ولم يقل إنا خلقناه، وفيه تنبيه على مكانته؛ لأنه -سبحانه- استخلفه في الأرض

.. كل هذه الدلالات حملتها الجملة الأولى في السورة بنصها، ومعناها، وكأنها مفتاح الباب الذي يظهر كل جمال بالداخل.

وكذلك الشأن في الشاهد الثاني من شاهدي الاستهلال —(هل) ولكنه خطاب

خاص، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيَّةِ﴾ [الغاشية: ١]، والغاشية هي الداهية التي تغشى الناس بشدائدها، وتلبسهم أهوالها -يعني القيامة- من قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وقيل: النار من قوله -تعالى-: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] (١).

والاستفهام هنا تأنيس للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولا أرى فيه تقريراً كما يقول بعض المفسرين، بل هو مرحلة ألطف من التقرير، فهو سبحانه يثبت قلب نبيه بهذا السؤال ويسليه، ويبين له مصير المنكرين.

وربط الغرناطي بينها وبين سورة الأعلى قبلها فقال: "لما تقدم تنزيهه - سبحانه- عما توهم الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح تقديس الخالق جل جلاله عن عظيم مقالتهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية، بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها، فقال لنبيه "هل أتاك" يا محمد "حديث الغاشية" وهي القيامة، فكان -سبحانه وتعالى- يقول: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم، ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم..." (٢).

فكان الله يقول له: قد أتاك، ولكن جاء التعبير بـ(هل) الاستفهامية لهذه المؤانسة، ولهذه التسلية تخفيفاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من عنادهم.

وفيه يقول الرازي: "إنما قال (هل أتاك) وذلك لأنه -تعالى- عرف رسول الله من حالها، وحال الناس فيها ما لم يكن هو ولا قومه عارفاً به على التفصيل؛ لأن العقل إن دل فإنه لا يدل إلا على أن حال العصاة مخالفة لحال المطيعين، فأما

(١) الكشف، ٢٤٦/٤.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، ٢٦٢.

كيفية تلك التفاصيل فلا سبيل للعقل إليها، فلما عرفه الله تفصيل تلك الأحوال لا جرم قال ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾^(١).

فالدلالة هنا تبرز تحقيق العلم بها وبأحوال الناس فيها من قبل رب العالمين، وتطوي بداخلها التأنيس والملاطفة أمام أهوال هذا الحدث العظيم، كما يدل السياق على عظم مكانة النبي -صلى الله عليه وسلم- وكل هذا وغيره مما تطويه العبارات يحمل تنزيه الله - سبحانه - امتدادًا لما تم في سورة الأعلى قبلها من بدايتها بالتسبيح، ثم تفصيل ببيان حالة من يخشى، وحالة الأشقى فجاءت سورة الغاشية تجلية وزيادة تفصيل لهذه الأحوال، وكان حتمًا أن تستهل بهذا الاستفهام الذي سبق أن الأشقى لا يموت فيها ولا يحيا.

فجملة الاستفهام (هل أتاك حديث الغاشية) توضح ما أجملته سورة الأعلى، وتبين كيف لا يكون موت ولا حياة؟ لأنها تغشاهم من كل مكان .. وتعظم حال الموقف، وفيه تعظيم الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبغية سورة الغاشية تفصل ما أجملته دلالة هذه الجملة الأولى فيتآزر السياق مع الدلالة لإبراز جمال هذا التعبير في استهلال السورة .. وقد أجمل أبو حيان كثيرًا من هذا، حين قال: "وهذا الاستفهام توقيف، وفائدته تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر، وقيل المعنى: هل كان هذا من عملك لولا ما علمناك؟ وفي هذا تعديد النعمة"^(٢).

ويكمن جمال الدلالة، والسياق في هذا النص المفصل لما سبق -مع إجماله- مهيء لما بعده، وموضح له بعظمة التعبير قبل تفصيله، والغاشية بما فيها من تهويل، وتفخيم لا يناسبها إلا هذا التعبير الدال على عظمتها، وعظمة المتحدث عنها، وعظمة المتحدث إليه، ودلالة العظمة الجامعة للمؤانسة، والتثيت وبيان المكانة، والتسلية تعظم في هل، وهل تأتي غالبًا في عظام الأمور كقوله -تعالى-: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله -تعالى- حاكياً: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله -

(١) تفسيره، ٣٢/١٥١.

(٢) البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٠/٤٦١.

تعالى-: ﴿ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله -
تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ... ﴾ [المائدة: ١١٢].

وهكذا تأتي في الأمور العظيمة بذاتها، أو التي يستعظمها الناس بأحوالهم، أو عنادهم، ولكل سياق ما يناسبه من معانٍ تحدد جمال دلالاته، وعظمة مقامه .. وكل ما كان خطاباً للنبي -صلى الله عليه وسلم- يسهل غرضه هذا: التعظيم، التأنيس، التسلية، الاستعداد لتلقي الخبر، بمعنى تهيئة نفسه -صلى الله عليه وسلم- لهذا الأمر العظيم، والتي منها قول ربنا -عز وجل- ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤]، ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [النازعات: ١٥]، ﴿ وَهَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [طه: ٩]، ﴿ وَهَلْ أَنْتَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ [ص: ١]، ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ [البروج: ١٧]، ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْغَشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١].

كلها تشعر بعظمة النبي -صلى الله عليه وسلم- وتهيؤ نفسه لتلقي الخبر في تल्प، وموانسة، وتكريم، وتعظيم، وتسلية.

دلالة الاستفهام تتأزر مع النبا العظيم وتفصح عن الواقع:

ويبقى من شواهد الاستفهام الستة التي استهلكت بها ست سور، قوله -تعالى-: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ: ٣٠] وهو تعبير فريد في القرآن كله سواء في فاتحة السور، أو في سياقها، جاء الاستفهام فيه بـ(ما) وهي لغير العاقل، تشبيها لتعاميهم عن الحق، وأمامهم دلائله، بحال من لا يعقل، من باب قول ربنا سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

فهذا واقعهم حين ينكرون ويختلفون فيما هو معلوم لا ريب فيه، أما جملة (يتساءلون) فقد وردت في ستة سياقات في القرآن غير شاهداً هذا، وكلها في أمور شديدة، كقوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]، وقوله -تعالى-: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]، وقوله -تعالى-: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] عبر هنا بالواو في سياق الحديث عن الذين ظلموا، أما في سياق الحديث عن المنعمين جاءت بالفاء في نفس السورة: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتُ الْأُطْرَفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٤٨-٥٠].

وجاءت الواو أيضاً مع أهل النعيم في قوله -تعالى-: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعِلَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٤، ٢٥]، وفي المدير: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤١].

أما جمال الدلالة والسياق في نص شاهداً هنا، وهو قوله -تعالى-: "عم يتساءلون" فالسياق من بدايته تفخيم، وسبق أن (ما) من أدوات الاستفهام التي تكون للتصور فقط؛ أي إدراك المفرد، يعني أحد أجزاء الجملة (المسند، أو المسند إليه، أو أحد القيود)، ويكون جوابها بالتعيين نحو قولهم: أحمد سافر أم علي، معتقداً أن السفر حصل من أحدهما، ولكن المطلوب: تعيينه فقط، ويسأل بها عن غير العاقل، وعن حقيقة الشيء، أو صفته عاقلاً أو غير عاقل، وتحذف ألفها إذا دخل عليها حرف الجر، كما هنا، ف(عما) أصلها: عن ما و(عن) حرف جر، و(ما) اسم استفهام مجرور بـ(عن)، وقرأ بعضهم: "عما" بالألف وهو أصل عمّ، والأكثر حذف الألف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها، ومن إثبات الألف قوله -حسان بن ثابت-:

على ما قام يشتمني لئيم ★★ كخنزير تمرغ في رماد

وقرأ الضحاك وابن كثير (عمّه) بهاء السكت، أجرى الوصل مجرى الوقف؛ لأن الأكثر في الوقف على ما الاستفهامية هو إلحاق هاء السكت، إلا إذا أضيفت إليها،

فلا بد من الهاء في الوقف نحو: مَهْ، والاستفهام عن هذا: تفخيم، وتهويل، وتقرير، وتعجيب، ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء^(١).

كأنه قال: عن أي شيء يتساءل أهل مكة؛ لأن ما يتساءلون عنه لا يقبل النزاع بعد كل هذا البيان، لذا كان الاستفهام مفيداً لكل هذه المستتبعات من التعجب، والزجر، والتوبيخ، والإنكار، والتوعد؛ لأنهم يعلمون، ولكنهم يجحدون ويكابرون، ثم حدد لهم الجواب كما هو طبع السؤال عن التصور، فقال "عن النبأ العظيم" وكلمة النبأ لا تقال في اللغة إلا للخبر العظيم، وقد صرح هنا بوصفه بالعظيم، "ففي ذلك كله تنبيه على أنه من حقه أن يدعن له كل سامع، ويهتم بأمره، لا أن يشك فيه، ويجعله موضعاً للنزاع، وعظم توبيخهم بقوله: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾^(٢)، وجاءت (مختلفون) اسماً لبيان ثباتهم وتسلط عنادهم، وهيمنتته على ضمائرهم، وقلوبهم، فلا ينفكون عنه، ثم يتكرر بعد ذلك الوعيد صريحاً بحرف الردع ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾^(٤)، ثم يكرر بعد ذلك الوعيد صريحاً بحرف الردع ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ [٤، ٥].

وجملة "عم يتساءلون" استوفت كل معاني الاستفهام التي سبق ذكرها هنا، ولذلك جاءت الإجابة مستأنفة "عن النبأ العظيم"؛ أي: يتساءلون عن النبأ العظيم، فحذف جملة (يتساءلون) لدلالة الأولى عليها، ولأن الإبهام أدهى للتفخيم، والتفخيم جلي أصلاً من جملة السؤال، وازداد جلاؤه بجملة الجواب التي جاءت كالإغاثة للظمان، ولكنه هنا ظمان مما يعرفه، ويكابره في الإقرار به، لذا كان الردع متلاحماً مع الوعيد ليعلموا جمال الدلالة والسياق في بناء جملة الاستهلال.

اتضح من كل ما سبق أن جملة النص لها دلالة يحددها حسن التأمل، وتتأزر هذه الدلالة مع السياق في تحديد معالم الجمال التي جاءت من أجلها، والعجب أنها تشبه المقدمة بالنسبة للبحث؛ لأنها تجمع معالمه، وتدل على دفاثنه مع إجمال خصائصه، ثم يأتي السياق تفصيلاً لما أجمل، وتوضيحاً لكل مجمل..

(١) البحر المحيط، ٣٨٣/١٠، وهو مستتب من كلام الكشاف.

(٢) نظم الدرر، ٢٩٥/٨.

المبحث الثاني

دلالة جملة الأمر في استهلال سور القرآن الكريم.

جملة الأمر في استهلال سبع سور من سور القرآن الكريم، تتأزر أيضًا دلالتها مع السياق الذي تقدمته في إبراز الجمال البلاغي الذي يوضح المعنى، وبين إحاطته بمعالم الباب وتحديد المقصد، وتفاصيل الأغراض، وتعدد المقامات.

جاء الخطاب فيها موجهًا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة بلفظ (قل) خمس مرات في خمس سور، هي: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فهذه خمس فواتح لم تتكرر منها واحدة في غير هذه السور، لا في البداية، ولا خلال السياق، والأمر السادس في ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، والسابع في ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكل واحدة منهما أيضًا فريدة ببنيتهما هذه، فهي جمل فرائد، والجمل الفرائد كالكلمات الفرائد تتميز بدلالات تناسبها.

وقبل تدبر هذه الدلالات التي جاءت في فواتح السور كلها بصيغة واحدة من صيغ فعل الأمر، يستدعي المقام التعريف بأسلوب الأمر، وأثره في بناء المعنى، وتحرير جمال الدلالة من خلال السياق الذي استهل بأسلوب الأمر.

وقد حد البلاغيون الأمر بأنه: طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء^(١) درس البلاغيون في صيغته: فقه المعنى، وما ينطوي عليه من أسرار، من خلال شواهد كل صيغة من صيغه الأربع، التي هي: فعل الأمر، والمضارع المقترن بلام الأمر كقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَيُطِئُوا بِآيَاتِ الْعَيْقِ﴾ [الحج: ٢٩]، واسم فعل الأمر كقوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والمصدر النائب عن فعل

(١) ينظر: مختصر السعد على تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص، ٣٠٨/٢.

الأمر كقوله -تعالى-: ﴿وَيَا لَوْلَدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ووراء فعل الأمر وصيغته معان يجيش بها السياق، وتتولد منها الدلالات، وتسمى مستتبعات التراكيب أو المعاني التي يفيدها الأمر، ولا تسمى معانٍ مجازية كما سبق في أسلوب الاستفهام، فما انطبق هناك يجري هنا أيضًا.

دلالة الأمر في خطاب النبي ﷺ:

توجه الأمر الإلهي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- سبع مرات -كما سبق- كان أولها "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، وثانيها الأمر بالتسبيح "سبح اسم ربك الأعلى"، وجاء بلفظ (قل) خمس مرات، بعضها يدل على عظمة القرآن، وبالغ أثره في النفوس، وبعضها في توحيد الله وإخلاص العبادة له، وبعضها في الاستجارة بالله، رب الفلق، ورب الناس، واللجوء إليه، والاعتصام به، وسأبدأ بدلالة الأمر ب(قل)؛ لأنه أكثر عدداً، ثم الأمر بالتسبيح، ثم أختتم بأول أمر نزل به الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم" كما يأتي:

أولاً: دلالة الأمر بلفظ (قل) وأثره في بناء المعنى:

وأول هذه الشواهد التي جاءت بفعل الأمر "قل" خطاباً للنبي -صلى الله عليه وسلم- قوله -تعالى-: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

لا ريب أن الخطاب هنا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وقبل أن أقف مع دلالة هذا الأمر أبين سببه.

وذلك يتجلى من قول الفراء: "ذكر: أن الشياطين لما رُجمت وحُرسَتْ منها السماء، قال إبليس: هذا نبيٌّ قد حدث، فبث جنوده في الآفاق، وبعث تسعة منهم من اليمن إلى مكة، فأتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ببطن نخلة قائماً يصلي ويتلو القرآن، فأعجبهم ورقوا له وأسلموا، فكان من قولهم ما قد قصه الله في هذه السورة"^(١).

(١) معاني القرآن، ٣/١٩٠.

وهذا أفضل ما قرأت في أسباب نزولها، وجملة (قل) لا محل لها ابتدائية، وتفصيل ذلك أن: (قل) فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، والمخاطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- و(أوحى) فعل ماض مبني للمفعول، والي متعلقان بأوحى، وجملة أوحى في محل نصب مقول القول، وجملة استمع نفر في محل رفع خبر أن من (أنه) ... والمصدر المؤول في محل رفع نائب فاعل لـ(أوحى)، والأصل (وُحِيَ إِلَيَّ) فأبدل من الواو همزة... (١) والوحي معروف.

وهذا الأمر (قل... من ضمن الوحي الذي أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بتبليغه، والنبي حتماً سيبلغه، ولكن لوجود دلالات عظيمة وراء هذا الأمر، ووراء هذا الوحي بدأه الحق -سبحانه- بهذا التوجيه، وحدثه بهذا الإلزام.

وأول دلالة فيه هي: تعظيم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبيان أن مكانته من مكانة رسالته، وأن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، والدليل على ذلك هنا أنه -سبحانه- لئن له قلوب الإنس والجن وغيرهما، فصار مالكاً لقلوب المجانس وغيره، وذلك لعظمة هذا القرآن، ولطف ما له من غريب الشأن، هذا والزمان في آخره، وزمان لبثه في قومه دون ربع العشر من زمن نوح -عليه السلام- أول نبي بعثه الله -تعالى- إلى المخالفين، وما آمن معه من قومه إلا قليل" (٢).

وسورة نوح قامت على الإنذار، ووصل به الحال معهم أن دعا عليهم، وجاءت سورة الجن بعد سورة نوح تبين عظمة محمد -صلى الله عليه وسلم- وقد استمع إليه الجن، وأجابوه وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، وأخذوا إصرًا على أنفسهم بعدم الإشراف بالله: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ...

والدلالة الثانية: الرد على المشركين الذين أبوا إلا الكفر، والإنكار، وبيان أن الجن الذين هم في غاية الاستتار لانت قلوبهم، واستمعوا للقرآن ووصفوه بقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس، ٤٦/٥، والجدول في إعراب القرآن، ١٠٩/٢٩.

(٢) نظم الدر، ١٨٠/٨.

والدلالة الثالثة: تتجلى في عموم الرسالة المحمدية، وتعيدها عالم الإنس إلى عالم الجن.

والدلالة الرابعة: أن الأمر بـ(قل) فيه لفت، وتنبية إلى عظمة المقول، وتشويق إليه، وما بعد القول فيه زجر للمخالفين.

وتلك جماليات السياق التي تجمعت في فاتحة السورة بأسلوب الأمر الذي أفاد هذه المعاني مع استقرار معنى الأمر فيه، وبقائه في كل معنى من معانيه؛ لأنه أمر من العظيم إلى رسول رب العالمين.

ويأتي الأمر الثاني في خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بلفظ قل في قوله - تعالى-: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ [سورة الكافرون].

نلاحظ أن الأمر هنا (قل) ممهّد للنداء ومهيئ له، ومبين عظم الأمر، وجلالة الخطب، فلا بد من ندائهم بأعلى أدوات النداء ليتنبهوا إلى أهمية البيان الذي سيلقى عليهم ردًا على خباثة قولهم، وسوء صنيعهم، فقد نزلت كما قال الواحدي:

"في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا، ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يدك قد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله -تعالى- قل يا أيها الكافرون" .. إلى آخر السورة، فغدا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك" (١).

فمحتوى السورة يدل على أنه لا يرجى لهم هداية، والحق -سبحانه وتعالى- يعلم أنه يحزنه قولهم، كما قال -تعالى-: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا

(١) أسباب النزول، مكتبة المتنبى بالقاهرة، ص ٢٥٨.

يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِمَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣]، فلما تكلم العاص بن وائل -ومن معه ممن نزلت فيهم- في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- بالإساءة وادعى أنه أبتَر، وردَّ الحق -سبحانه- عن نبيه في سورة الكوثر بعبء لم يسبق له مثيل، عطاء يدل على التكريم والتعظيم، وختمه بوسم العاص بن وائل بقوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿١﴾ جاءت سورة الكافرون بعدها بهذا التبرؤ الذي معه يضاعف لهم العذاب، وجاء بالأمر (قل) ردًّا لاعتباره، وتبيينًا لمكانته عند ربه، ثم النداء بالوصف الثابت لهم الذي لا ينفك عنهم (ولي دين) الذي لا أتخلى عنه، فكانت "هذه علمًا من أعلام النبوة، من حيث إنه مات منهم ناس كثير بعد ذلك على الكفر، وأتم الله له هذا الدين، فصدق -سبحانه- فيما قال، وثبت مضمون الكوثر بأكمل استدلال" (١)، فذلك قال "ولي دين" على التمام الذي لا يشوبه خلل أو نقصان، وقد أكمله الله -سبحانه- فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومن ثم يتجلى جمال الدلالة من الأمر، والنداء معا؛ لأن الأمر يدل على أنه من عند الله، وليس من تلقاء نفسه، والنداء يدل على أهمية ما بعده، وما بعده يدل على حسرتهم وخيبة أملهم، وذلك يدل على إهانتهم أمام قومهم، ورفع شأن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الأمر (قل) تكريم بعد التكريم السابق في سورة الكوثر، الذي يتآزر به أولها وآخرها، فأولها عطاء لا يعرف كنهه إلا الله -سبحانه-، وآخر بغض، ووصم لشانته، وهذا أيضًا تعظيم للرسول -صلى الله عليه وسلم-، لذلك يقول الرازي: "فالكثرة، والكوثر لمحمد -عليه السلام-، والأبترية والدناءة والذلة للعدو، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف" (٢).

والأمر الثالث من الأوامر التي خوطب بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في

استهلال السور، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾

(١) نظم الدرر، ٥٥٧/٨.

(٢) تفسيره، ١٣٤/٣٢.

وتكمن دلالة الأمر هنا بـ(قل) في بيان مكانة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهو المكلف بهذا بداية، وبأهمية المقول، فهي تعريف وتنزيه، تجمعها الجملة الأولى، وتفصله الجمل بعدها.

والأمر الرابع والخامس بلفظ(قل) جاء في المعوذتين:

فكل ما سبق كان أمراً بالتبليغ؛ أما المعوذتان فهما أمر بالتعويد، وإن كان يقال عنها: المعوذات، على إدخال سورة الإخلاص فيها، والغرض منهما التوجيه والإرشاد للنبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً، ولأمته من بعده، فهما لجوء إلى الله واعتصام به وتحصن باسمه، ولكن جاء التعبير بلفظ (رب) لبيان رحمته وإحسانه، لا قوته وسلطانه؛ لأن الإنسان حين يتحصن بهما يكون في أمس الحاجة إلى الرحمة من الله، والإحسان الذي يلففه به من نزغ الشيطان، ومن سوء الخلق.

فجمال الدلالة في السورتين يكمن في الاعتصام بالله، والتحصن به، واللجوء إليه، والاستغاثة به، وهذا كله كامن في نص الجملة الأولى، ومفصل في بقية السورة.

دلالة الأمر بالتسبيح:

الاستهلال بالأمر بالتسبيح في سورة واحدة هي قوله -تعالى-: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقد فسر الأعلى بقوله -سبحانه-: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٥].

روى موسى بن أيوب عن عمه عن عقبة بن عامر قال: "لما نزل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "اجعلوها في ركوعكم"، ولما نزل ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "اجعلوها في سجودكم"، وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود: اللهم لك سجدت" (١).

(١) أحكام القرآن للجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، ٣٧/٥، وينظر: الكشاف، ٤/٢٤٣.

فالاستهلال أمرٌ بتتزيه الحق -سبحانه- ولكن الأمر موجه إلى اسمه (سبح اسم ربك الأعلى) وتتزيه اسمه يدل على تتزيه ذاته المقدسة عن أن يدعى بها صنم، أو وثن، أو يوضع في موضع لا يليق بعظمته، فدلالة الأمر (سبح) التقديس الذي يليق بمقام الحق ولا يشبهه فيه أحد، كما كان المشركون يسمون الصنم باللات، ومسيلمة برحمان اليمامة، لذلك وصفه بـ(الأعلى) فهي صفة للرب، وفيها دلالة قاطعة على أنه -سبحانه- أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، ثم جاءت بعد ذلك بعض دلائل هذا العلو، وهي: الذي خلق فسوى؛ أي سوى على أحسن هيئة، وجعل أجزاء الإنسان متناسقة محكمة، غير متفاوتة، ولا مضطربة، فقوله: فسوى: عدلٌ وأتقن، والذي قدر لكل مخلوق ما يصلحه من المقادير المخصوصة، فأرشدته، وعرفه وجوه الانتفاع بالأشياء، وذلك لأن (قدر) معناه التقدير، والموازنة بين الأشياء، والذي أنبت العشب الذي ترعاه الدواب، والنبات والزرع الذي يأكله الإنسان، ثم جعل ذلك المرعى بعد اخضراره باليًا هشيمًا جافًا أسود يابسًا^(١).

وبناء على ذلك نجد أن جملة الأمر التي استهلّت بها السورة تدل دلالة قاطعة على التتزيه المطلق لله -سبحانه-، وأن جمل السياق التي جاءت بعدها تبرهن على هذا التتزيه، وتدل على قدرة الله المطلقة.

والجمال حينئذٍ يبرز في تآزر الدلالة والسياق، في بيان الفرق بين سبح اسم ربك، وسبح باسم ربك، "لأن معنى سبح باسم ربك أي نزه الله -تعالى- بذكر اسمه، المنبئ عن تتزيهه وعلوه عما يقول المبطلون، و(سبح اسم ربك) أي نزه الاسم من السوء، فالاسم هنا صلة، والمعنى سبح ربك، وهو اختيار جمع من المحققين، قالوا: لأن الاسم في الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف، ولا يجب تتزيهها كما يجب في الله -تعالى-، ولكن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو، بل يذكر اسمه، فيقال: سبح اسمه، ومجد ذكره، كما يقال: سلام على المجلس العالي، وقال لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

(١) ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي، دار الفكر، ط١، ١٤٢٢هـ، ٣/٣٨٦١.

أي السلام، وفي ذلك تنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق به في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي أسمائه، وفي أحكامه...^(١)، فالأمر (سبح) أجمل كل هذه المعاني، ودلّ إجمالاً على جمال اسم الله وجلاله، وتنزيهه وتقديسه، ومن ثم تجاوب مع مقصود السورة، وأرشد إليه؛ لأن اسم السورة -كما سبق- مترجم عن مقصودها، والسورة محببة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، "قال الملوي: وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات، ومقصودها إيجاب التنزيه للأعلى -سبحانه وتعالى- عن أن يلحق ساحة عظمته شيء من شوائب النقص، كاستعجال في أمر من هلاك الكافرين، أو غيره، أو العجز عن البعث، أو إهمال الخلق سدى يبغي بعضهم على بعض بغير حساب، أو أن يتكلم بما لا يطابق الواقع، أو بما يقدر أحد أن يتكلم بمثله، كما أذنت بذلك "الطارق" مجملاً وشرحته هذه مفصلاً، وعلى ذلك دلّ كل من اسمها: سبح، والأعلى"^(٢).

ومن ثم: فالأمر بالتسبيح هنا أنشأ كل هذه المعاني التي تصلها بسورة الطارق قبلها، وتجعلها متممة لمعانيها، شارحة لمجملها، بالإضافة إلى أن وصفه بـ(الأعلى) دل على تميزه؛ لأنه هو وحده الأعلى من العلو بمعنى العظمة المطلقة، وقال الراغب: "أعلى من أن يقاس به أو يُعتبر بغيره"^(٣).

والأمر بالتسبيح هنا قيدها بذلك؛ لأنه لا ينزه إلا من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقد جاءت هذه الصفة في القرآن الكريم لله عز وجل ولغيره، فقد جاءت لله خاصة في قوله -تعالى-: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

(١) تفسير الرازي، ١٣٦/٣٢، ١٣٧ باختصار.

(٢) نظم الدرر، ٣٩٣/٨.

(٣) المفردات: العين مع اللام.

وهذه السورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]، لله خاصة، وجاءت لغير الله كقوله -تعالى- حكاية عن فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]، ووصف بها الملائكة في قوله -تعالى-: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ [الصافات: ٨-٩]، وقوله -تعالى- حكاية عن سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-: ﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٩]، وكذا قوله -تعالى- عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- أيضًا: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٥-٧]، وخاطب به الحق -سبحانه وتعالى- سيدنا موسى طمأنة وتثبيتًا فقال -تعالى-: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٧-٦٨].

لذا كان الأمر بالتسبيح هنا -مع ما فيه من دلائل التنزيه- ضابطاً لمعنى الصفة التي وصف بها ربنا -سبحانه- هنا، وأن المقصود بها علو الحق عظمتة قدرة واقتداراً، وليست ادعاء كما قال فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ولكن الله يعلو من أن يحيط به وصف الواصفين، أو تلحق باسمه صفة من صفات المخلوقين.

ونخلص من كل هذا إلى أن جمال دلالة الأمر والسياق الذي وقع الأمر بالتنزيه في صدره، يتجلى في إبراز طلاقة القدرة، والتفرد الذي لا يكون لغير الله، ومن ثم كان الأمر عامًّا يُراد به الخاص، فالكل مأمور بالتسبيح، ومكلف به في جميع الأحوال، ومفتاحه في الصلاة ركوعًا وسجودًا.

أول أمر نزل به الوحي:

جعلته ختاماً؛ ليكون توثيقاً لجميع الدلالات التي سبقت في تعدد الأمر بـ(قل) خمس مرات، وبسبح، مرة واحدة، وأنه كله باسم الله الذي نزل به الوحي أول ما نزل، ولتجلية الفرق بين حذف الباء من (سبح) "سبح اسم ربك" وذكرها في (اقرأ باسم ربك).

وعليه فالفرق بين الاستهلال بالأمر هنا، والاستهلال به في سورة العلق ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، أنه في سورة العلق قال: باسم ربك، فأدخل الباء على الاسم، على أنه متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل؛ أي اقرأ مبتدئاً أو مفتتحاً باسم ربك من باب التبرك، أو إحلال البركة، فهي تحلية تأتي بعد الاستعاذة، وهي تخلية، وخص الرب هنا ولم يقل باسم الله، كما ورد في البسمة؛ وذلك لأن الوصف بالربوبية هنا أقرب؛ لما فيها من معنى الإحسان والشفقة، وهي أول ما نزل من القرآن، وأول لقاء بين الله ورسوله عن طريق الوحي، فلا يصلح أن يبدأ باسم الذات الدالة على القوة والسلطان والهيمنة (الله) لذلك تكرر فيها لفظ (الرب) مضافاً إلى ضمير المخاطب تأنيساً وتلطيفاً، فقال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣] و﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ [العلق: ٨]، ولم يذكر اسم الجلالة (الله) إلا في سياق التهديد والوعيد للمكذب ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿الرَّيْعَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٣، ١٤].

والأمر هنا بالعبادة وبصفات الذات، وهو يستوجب العبادة بصفات الفعل، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة^(١).

فدلالة الأمر (اقرأ) توحى بالارتقاء إلى مكانة أسمى، وتحمل عبء الدعوة، والإقرار بقدرة الله عز وجل، تجلت هذه الدلالة في السياق بعدها، وأوله قوله -تعالى- : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بحذف المفعول للدلالة على عموم القدرة، ولتذهب النفس المتأهلة في تقديره كل مذهب، ففيه دليل القدرة والاختصاص؛ حيث لا خالق سواه، وخص الإنسان (خلق الإنسان من علق) -مع أن كل المخلوقات كذلك- لشرف الإنسان، وبيان مكانته عنده، والدليل أنه استخلفه في الأرض، وعليه فجمال الدلالة في الأمر (اقرأ) وما كان قارئاً كما قال ربنا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَلُؤْنَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذْآ لَازِتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

جمال الدلالة هنا بما فيه من الرقي، وتغيير الحال، وتحمل الأمانة، يتأزر مع السياق في إثبات القدرة المطلقة، والتدليل عليها بجلائل النعم، والتدليل على أنه -

(١) تفسير الرازي، ١٤/٣٢.

سبحانه- ﴿أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ﴾ كما ورد في آخر السورة قبلها؛ لتدل على أن القرآن نظم نظماً محكماً، ورتب ترتيباً متقناً.

المبحث الثالث

جملة النداء: أثرها ودلائلها في بناء السياق القرآني

دراسة جملة النداء سيكون أيضاً في فاتحة السور، كما سبق في تحديد مسار البحث بدراسة جمال الدلالة في السياق القرآني.

والاستهلال بالنداء ورد في عشر سور، خمس منها في نداء الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهي: الأحزاب، والطلاق، والتحريم، والمزمل، والمدثر، وخمس في نداء الأمة، وهي: النساء، والمائدة، والحج، والحجرات، والممتحنة.

وقبل الوقوف معها باستخراج الدلالة وأثرها في بناء السياق، وأثرهما في بناء المعنى المراد، يجب التعريف بأسلوب النداء، ومعالمه في القرآن الكريم بصفة عامة؛ ليكون مرآة توضح أصول الباب جملة، ثم التأمل في معانيه التي يفيدها، ودلائله التي يجمل بها المعنى، ويحسن، من خلال هذه الفواتح العشر.

النداء وأثره في بناء المعنى

حدّه البلاغيون بقولهم: هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو لفظاً أو تقديراً.

وهو باب جليل الشأن وكثيراً ما يتقدم الأمر والنهي كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ) وهكذا وقد يكون النداء من الله لرسله وأنبيائه... وقد يكون من الرسل إلى أممهم وقد يكون من البشر لأنفسهم وأدواته كثيرة منها:

(يا) وهي حرف وضع أصله لنداء البعيد، أما نداء القريب فله (أي والهمزة) ثم استعمل في نداء من سَهَا وغفل وإن قرب تنزيلاً له منزلة البعيد.

و ذكر الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أنه روى عن علي عليه السلام أنه قال: (يا) نداء النفس و(أي) نداء القلب و(ها) نداء الروح وقيل (يا) نداء الغائب و(أي) للحاضر و(ها) للتببيه، هذا عن موضوع النداء على سبيل الإجمال.

أما جمال دلالاته وسياقه في بناء النص فسيتجلى من خلال الوقوف مع فواتح السور التي استهلته به، وسبق أنها تنقسم قسمين:

قسم في نداء النبي -صلى الله عليه وسلم- وقسم في النداء العام، ويلاحظ بداية أن السور الخمس التي استهلته بالنداء العام ثنتان منها بـ(يا أيها الناس) وثلاثة بـ(يا أيها الذين آمنوا)، وكل منها تناسب سياقها وأغراضها ومقصودها الأعظم، والسور التي استهلته بنداء النبي، ثلاثة منها بوصفه العام (يا أيها النبي) وثنان بوصفه الخاص (المزمل، والمدثر) وكل منها يتآزر مع السياق والمقام في تجلية المقصود وبناء النص.

وساقف أولاً مع النداء العام بالناس، والذين آمنوا، ثم الخاص بالنبي وبعض أوصافه.

جمال الدلالة في نداء الناس في استهلال سورتى: النساء، والحج:

نداء الناس في القرآن الكريم جاء مرتين خلال سورة البقرة، قبل أن تبدأ به سورة النساء، الأول جاء مقدمة الأمر بالعبادة، وهو أول نداء في القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، والنداء الثاني جاء مقدمة للأمر بالأكل الحلال، وذلك قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وثالث هذه النداءات العامة هو فاتحة سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وهذا النداء الذي يعقبه الأمر بتقوى الرب -سبحانه- جاء استهلالاً لهذه السورة، ولسورة الحج أيضاً.

و(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه ... ثم استعمل في مناداة من سها وغفل، وإن قرب، تنزيلاً له منزلة البعيد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جداً ... والداعي يقول: يا الله، ويا رب ... وهو يعلم أنه أقرب إليه من حبل الوريد اتهاماً لنفسه بالقصور والتفريط في جنب الله، واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربها من رضوان الله .. و(أي) وصلة لنداء مافية الألف واللام، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه، ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو أي، والاسم التابع له صفة ... وهذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد، والتشديد، وكلمة التنبيه (ها) المقحمة بين الصفة، وموصوفها لفائدتين هما: معاضدة حرف النداء، ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً عما يستحقه أي من الإضافة، وكثر هذا النوع من النداء في كتاب الله؛ لما فيه من أوامر ونواه، وعضات وزواجر، ووعد، ووعيد، واختصاص، وأخبار .. وغير ذلك من التكاليف والأمور الجسام .. عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم، وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ^(١).

وكل من السورتين فيها من التكاليف والأمور الجسام الكثير مما يستدعي هذا التنبيه، والدعوة إلى التيقظ حفظاً للحقوق، وأداء للواجبات وحرصاً على إقامة التكاليف؛ إحقاقاً للحق، وإزهاقاً للباطل الذي تسوله النفس، وتوسوس به.

(١) الكشف، ٢٧٥/١، وينظر: تفسير الرازي، ٩١/٢.

ففي سورة النساء: صلة الأرحام، ومال اليتيم، والصدّاق، وحفظ الأموال، ..
وأحكام الموارِيث .. والمحارم، وكثير من الحقوق التي منها: رد الأمانات .. ورد
السلام، وعدم موالاة المشركين، وقضايا القتل، والهجرة ..

وفي سورة الحج: الحديث عن الساعة، وما فيها من أهوال، وقضية الجدل
ونصرة الرسول، وإقامة الحجّة والبرهان، وعجز الأصنام، والاعتصام بالله الذي
ختمت به السورة ..

وكل ذلك وغيره من أمور كثيرة في السورتين جدير بالتنبيه، والحث على التيقظ؛
لوضع الأمور في نصابها، وحفظ الحقوق لأصحابها، وحفظ شعائر الله التي لا تُغفر
الذنوب، ولا تُمحي بها الأوزار إلا بها ..

ومن ثم فدلالة النداء: التنبيه، والإيقاظ، والتهيؤ لإقامة أمر الله كما ينبغي،
والنداء في النساء تذكير بنعم الله، وربطه بين خلقه بجعلهم من نفس واحدة، والنداء،
وبيان الحرام والحلال، والكثير من الأحكام والأحوال كأحوال المنافقين وأهل الكتاب
.. أما النداء في سورة الحج فينبه إلى أهوال يوم القيامة، وفيها كذلك: تهديد، ووعيد،
ووعيد، ومع كثرة التكاليف والأمور العظيمة في سورة النساء فالبدائية فيها أهدأ حالاً،
وألين مقالاً من البداية في سورة الحج؛ لذا ذكر البقاعي أن مقصود سورة النساء
"الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه آل عمران، والكتاب الذي حدّت عليه البقرة
لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة" ومقصود سورة الحج "الحث على التقوى المعلية
عن درجة الاستحقاق للحكم بالعدل، إلى درجة استئصال الأنعام بالفضل في يوم
الجمع للفصل"^(١).

فدلالة النداء في السورتين مختلفة، فهي في الأولى دعوة إلى التوحيد؛ لأن الله
أنعم علينا بأن خلقنا من نفس واحدة، وربط بيننا رابطاً وثيقاً، وجعل بيننا ميثاقاً
غليظاً، فالبدائية تذكير بالنعم، وحض على إقامة الحدود، والحفاظ على الحقوق، وفي
سورة الحج النداء نداء تحذير وتهديد، ويحتاج إلى أعلى درجات التقوى؛ ليتحقق
الإنعام بالفضل ..

(١) نظم الدرر، ٢/٢٠٤، ٥/١٢٩.

واختلاف دلالة النداء مرتبط باختلاف السياق، وتتنوع التكاليف، واختلاف المشاق؛ لأن المشاق في سورة الحج عملية وعقلية، وفي سورة النساء عقلية وعملية. وكل من السورتين لها موقع في ترتيب سور القرآن؛ لمعرفة التآلف والتنسق بين سور القرآن الكريم، وكذا آياته، وكل واحدة منهما في نصف من القرآن، ولها في موقعها دلالة؛ مما يؤكد أن جماليات الدلالة، والسياق معاً، يتآزران في بيان النص، ولا سيما إذا كان هذا النص في فاتحة السورة، فإنه يدل على البراعة الناطقة بحسن الدلالة وتمامها لجمع المقصود؛ أي مقصود السورة الذي يتجلى من اسمها ومفتاحها..

وقد وضع فخر الدين الرازي موقع كل سورة من السورتين المشتركتين في نص الجملة الأولى، التي تم بها معنى، وتحدد بها مطلب يستدعيه السياق بعده، ويتآلف مع الختام الذي قبله، فقال: "إنه -تعالى- جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن، إحداهما: هذه السورة، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية: سورة الحج، وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن، ثم إنه -تعالى- علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه -تعالى- خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق، وكمال علمه، وكمال حكمته وجلاله، وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد، وتحت هذا المبحث أسرار كثيرة^(١).

أي أن دلالة سورة النساء على معرفة المبدأ، وهذا جلي من فاتحتها ومتفرق في سياقها، وسورة الحج دالة على معرفة المعاد، وهو جلي أيضاً من مفاتها ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الآية الرابعة: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْتَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

(١) تفسيره، ١٦٤/٩.

وفي الآية الثانية والعشرين في شأن الكافرين: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وبعدها في شأن المؤمنين ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، وتتفرق المعاني الدالة على الموقفين في السورة كلها؛ مما يؤكد دلالتها، ويلاحظ أن سورة النساء مدنية فيتناسب معها طبع الليونة والتوجيه بقدر من اللطف، وأن سورة الحج مكية فيتناسب معها الشدة وما يترتب عليها.

ولكن هناك اختلاف في سورة الحج بين كونها مكية، وكونها مدنية، أو كثير منها مكي، وكثير منها مدني، فعن ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج ١٩] إلى قوله ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج ٢٢]، ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة؛ فإن افتتاحها بـ"يا أيها الناس" جار على سنن فواتح السور المكية، وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة..^(١).

ونخلص من ذلك إلى تعدد الدلالة مع اتفاق النص، وتنوع السياق؛ ليشمل بداية الحياة ونهايتها، وبناء عليه تنتقل الدلالة في النص الواحد من كمال القدرة، وتمام العلم والحكمة، إلى كمال معرفة المعاد، وذلك يرجع إلى مطابقة المقام، ومراعاة الأحوال ..، ولذلك سميت الأولى: (النساء) لتحقيق الصلة وتأكيد العدل، وسميت الثانية (الحج)؛ لما فيها من مواقف مشقة وعناء تناسب مواقف الحج ومشاهده، بأن تكون صورة مصغرة لبعض أحداث الساعة.

ومن ثم فدلالة كل سورة تتألف مع ما بعد جملة البدء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَحْدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] دعوة إلى الصلة والترابط والتعارف، والتحذير من قطع الأرحام، وتأكيد مراقبة الله، ويقول ابن فارس: الرء والقاف والباء أصل واحد مطرد، يدل على انتصاب لمراعاة شيء، من ذلك الرقيب، وهو: الحافظ،

(١) ينظر: البرهان للزركشي، ١/١٩٠، والتحرير والتتوير، ١٦/١٨٠، ١٨١، وتتوير المقياس من تفسير

ويقول الراغب: "والرقيب: الحافظ، وذلك إما لمراعاته رقبة المحفوظ، وإما لرفعة رقبته"^(١)، وكأن أول الآية ينادي آخرها، فأولها تنبيه، وآخرها رعاية وحفظ، ومن ثم يتناغم فيها جمال الدلالة بين الحفظ والرعاية والصلة وإعطاء الحقوق، وهذا من المعاني التي تتوالد من أسلوب النداء؛ لأن المعنى الاصطلاحي للنداء ليس مطلوبًا هنا، فهو يخرج إلى هذه المعاني، كما خرج الاستفهام والأمر.

وكذلك النداء في سورة الحج ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] يخرج النداء هنا إلى الحث على التقوى التي يمكن الاستعداد بها لهذه الساعة .. ويطوي في معانيه الوعيد والإنذار، والإعلام بجسارة هذه الساعة التي تحدث زلزلتها فتزهل كل مرضعة عما أرضعت ... وتدع الناس سكارى من شدتها وهولها.

فدلالة كل من الآيتين تشمر عن ساقها في تحقيق معاني النداء المذكورة حيال كل منهما، وهي مطوية في النص ومنشورة في معاني السياق.

وتلك جماليات الدلالة في هذه الجملة التي استهلته بها سورتان من سور القرآن الكريم، والنداء —(يا أيها الناس) ورد في القرآن الكريم عشرين مرة، جاء بعده الأمر في بعضها، والإخبار بأمر معين في بعضها الآخر، ولكل دلالاته التي تناسب مقامه، وذلك مما يحتاج إلى وقفة دراسية مستقلة لا يتسع هذا البحث لها.

جمال الدلالة في نداء المؤمنين:

أما النداء —(يا أيها الذين آمنوا) فجاء استهلالاً لثلاث سور هي: المائدة، والحجرات، والممتحنة، جاء الأمر بعد النداء في واحدة، وجاء النهي بعد النداء في اثنتين، ولكل بداية دلالة تتوالد من سياقها، وإن كانت جملة في مضمونها.

(١) مقاييس اللفظة، والمفردات، (رقب).

الشاهد الأول: هيا فيه النداء للأمر قوله -تعالى- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، فالنداء هنا ما هو إلا معضد لدلالة الأمر بالوفاء، والتحذير من نقض العهد الذي اتسم به غيرهم، ففي سورة النساء دلالة على أن اليهود نقضوا المواثيق التي أخذها الله عليهم، كما حكاها القرآن في سورة النساء، قال -تعالى-: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِثَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وتكرر ذلك في سورة المائدة، قال -تعالى-: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

فكان الاستهلال هنا بالنداء داعياً إلى الأمر بالوفاء، وعدم التشبه باليهود، وذلك لأن شروط صلح الحديبية كان فيها أمور ثقيلة على المسلمين، بعد أن ذاقوا مرارة أفعال الكافرين؛ لذلك جاء النداء مقدمة للأمر بالوفاء الذي يميزهم، ويحقق شعائر دينه، ويدل النداء على ما دعا إليه الأمر الذي يميزهم من غيرهم حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من نقضوا العهود وأخلوا بالمواثيق ..

وبعد فاتحة السورة التي تريد ترسيخ الوفاء، ذكّرهم بنعمه؛ حيث أحل لهم ما كان محرماً على من قبلهم من باب العقاب، وهي بهيمة الأنعام من: الإبل، والبقر، والغنم، والانتفاع بلحومها، وجلودها، وأشعارها وأوبارها، وجميع ما ينفع فيها، إلا ما يتلى عليكم أنه محرم، كأن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا .. كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ؕ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ثم صرح في سورة المائدة بلفظ النعمة؛ تأكيداً للوفاء بالعقود، وعدم الإخلال بالمواثيق؛ لتحقيق دلالة النداء السابق على الأمر في أول السورة، فقال -تعالى-:

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

فإذا كانت دلالة النداء تحقيق ما دعا إليه الأمر بالوفاء، والتحذير من نقض العهود، فإن ذلك هو الذي حدد مقصود السورة الذي قال فيه البقاعي: "مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من: توحيد الخالق، ورحمة الخلائق شكرًا لنعمه، واستدفاعًا لنقمه"^(١).

وجمال الدلالة الذي يكمن في الحض على الوفاء، والتحذير من النقض، يتناسب مع سياق السورة، ففيها كثير من الأحكام التي تستدعي الالتزام بما جاء به الكتاب، فيها بيان ما أحله الله، وما حرمه الله، وحكم طعام أهل الكتاب، وجواز النكاح منهن، وحكم قطع الطريق، والسرقه، والقصاص ... وغير ذلك من تحليل مقصود السورة، والأدلة عليه.

وعليه فدلالة النداء يتأزر معها السياق في إحكام الأمر بالوفاء، والتحذير من نقض العهود، ومعرفة الأحكام، واتباع ما أمر الله في كل حكم منها، فكان نص مفتاح السورة جامعًا لكل ذلك الذي شرحته السورة، وهكذا تتجلى بلاغة النداء حين يكون تهيئة للأمر بالوفاء.

النداء الثاني: جاء مقدمة للنهي في فاتحة سورة الحجرات، قال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

النداء في سورة المائدة هياً للأمر، وهنا يهيب للنهي "لا تقدموا .." وهذا يوضح أن دلالاته التوجيه، والإرشاد إلى الآداب التي بنيت عليها السورة، وفي مقدمتها: التأدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأن الأدب معه من جنس الأدب مع الله عز وجل، فالنداء هنا هياً لمعان ذات أهمية؛ حفاظاً على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين اصطفاهم، واختصهم في نهاية سورة الفتح قبلها بأنهم -والنبي في مقدمتهم-: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ﴾ [الفتح: ٢٩]،

(١) مصادد النظر، ١٠٤/٢.

فأنتى -سبحانه- عليهم وذكر وصفه -تعالى- لهم بذلك في التوراة والإنجيل، وهذه خصيصة انفردوا بمزية تكريمها، وجرت على واضح قوله -تعالى-: ﴿كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٥].

وشهدت لهم بعظيم المزية لديه ... وأراد الحق تنزيههم عما وقع من قبلهم في مخاطبات أنبيائهم كقول بني إسرائيل: ﴿يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾، وبعدها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فطولبوا بآداب تتاسب علي إيمانهم، وإن اغتقر بعضه لغيرهم ممن ليس في درجتهم .. وكأنه قيل: لا تغفلوا ما منح لكم في التوراة والإنجيل فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم، فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب وسوء قصد في الجواب، وطابقوا بين بواطنكم وظواهركم، وليكن عملكم منبئاً بسليم سرائركم ..^(١).

هذا يدل على تلاحم المعاني، وترابطها في بناء سور القرآن الكريم بعضها على بعض، وترتيب المواقف فيها، وأن الثانية دائماً مكملة ومتممة لمعانٍ وردت في التي قبلها، فهناك بين منزلتهم قولاً، وهنا طبقها عملاً، حين دعاهم للانتهاء عما يقلل من هيبة النبي، وجلال شأنه، ويكون تشبهاً منهم ببني إسرائيل مع نبيهم.

فكانت دلالة النداء مقوية ومعضدة لدلالة النهي بما فيها من الحث على الآداب الإسلامية التي تنزل الناس منازلهم، كما أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أنزلوا الناس منازلهم"، ولكن بناء الأسلوب على هذه الطريقة يعطيه قوة في البلاغة والبيان والبراعة؛ لأن المعنى كما قال الشيخ عبد القاهر: "المعنى على أنهم أمروا باتباع الأمر، فلما كان المتقدم بين يدي الرجل خارجاً عن صفة المتابع له،

(١) البرهان في تناسب سور القرآن للغرناطي، ٣١٢/١.

ضرب جملة هذا الكلام مثلاً للاتباع في الأمر، فصار النهي عن التقدم متعلقاً باليد نهياً عن ترك الاتباع^(١).

فقد شبه تعجل الصحابة في إقدامهم على قطع الحكم في أمر من الأمور الدينية بغير إذن الله ورسوله، بحالة من تقدم بين يدي متبوعه؛ إذا سار في طريق فإنه في العادة مستهجن، ثم استعمل في جانب المشبه ما كان مستعملاً في جانب المشبه به من الألفاظ، والغرض تصوير كمال الهجنة، وتقبيح قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله، ففي الكلام استعارة تمثيلية .. والمعنى على ذلك: ألا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به، ويأذنان فيه، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن مجاهد: لا تقفوا على الله شيئاً حتى يقصه على لسان رسوله .. أو لا تعجلوا بأمر، ولا بفعل حتى يأمركم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهذا وعظ لهم ألا يسبقوا رسول الله بالقول والحكم، بل يفعلوا ما يرسمه لهم كما يفعل العباد المكرمون، وهم الملائكة؛ حيث قال: ﴿لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] ^(٢).

وكان هذا التوجيه والإرشاد هو بداية الآداب التي اشتملت عليها السورة، فقد ورد فيها هذا النداء الخاص بالمؤمنين خمس مرات كلها نصح وإرشاد.

أولها: "لا تقدموا بين يدي الله ورسوله" **وثانيها:** "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون"؛ أي تفسد أعمالكم بتعودكم على ذلك دون شعور بأنها حبطت، وقد سبق مثل هذا التوجيه في سورة النور، قال -تعالى-: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فهذا أمر لهم

(١) أسرار البلاغة، تحقيق: الشيخ شاکر، ٣٥٧.

(٢) ينظر: الكشاف ٥٥٣/٤، وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٤٥٣، وفتوح الغيب في الكشف عن

قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، ٤/٤٢٧، والفتوحات الإلهية بتوضيح بتفسير

الجلالين للدقائق الخفية، المكتب الثقافي، ٤/١٧٣.

بتوقير الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتعظيمه وتشريفه بألا يقولوا يا محمد، بل يقولون يا نبي الله، يا رسول الله... وهذا من الآداب العالية، ومن باب أولى ألا يرفعوا أصواتهم في حضرته، والأولى منه ما بدأت به السورة وقدمت لأهميته في الالتزام بالآداب والأحكام، وعدم التكلم بما لم يحكم فيه "لا تقدموا بين يدي الله ورسوله" وقد صور به هذه الصورة الحسية التمثيلية ليكون أقرب إلى الأفهام، وألصق بالأذهان فلا يبقى لمخالف حجة، وخاصة في موضوع الأحكام في عهده -صلى الله عليه وسلم- أو بعد عهده.

وثالثها: بهذا الخصوص، قوله -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنِيءٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فهذا للمؤمنين جميعاً توجيه عام.

والنداء الرابع: قوله -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بَلِّسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فقد اشتملت هذه الآية على مجموعة من الآداب اللازمة التي بها تنشأ الأمة نشأة إيمانية صحيحة ملتزمة بأداب الشرع، ومتحلية بأخلاق الرسول -صلى الله عليه وسلم- بدأت بالنهي عن سوء التعامل، وانتهت بالتحذير.

والنداء الخامس والأخير من جملة الآداب التي وجهها ربنا للمؤمنين أيضاً لاستقامة حياتهم واستقرار إيمانهم وطهارة أسنتهم وأفئدتهم، فقوله -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتُّمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَانفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وختمت هذه النداءات الخاصة المشتملة على جميع الآداب، وأولها مع الله ورسوله؛ لتكون مقدمة لكل هذه الآداب على سنن العرب من تقديم الذي بيانه أهم، وإن كان الجميع مهماً، إلا أن الأهم عندما يُقدم يعطي الذي بعده درجة عالية، ويؤدي فيه نفس الحماس من القوة، والجسارة، والتعظيم، والهيبة التي تؤدي بالنفوس إلى توقير

ذاتها، ومن ثم توقير غيرها، ولا سيما إذا كان غيرها أعظم وأجل، كما هو الحال عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اختتمت كل هذه النداءات الخاصة بالنداء العام؛ لبيان نعمة الله على جميع خلقه، وأن رسوله -صلى الله عليه وسلم- أرسل لجميع خلقه، وأيضاً فيه خصوصية للمؤمنين حين يناديهم بجملة الآداب خاصها وعامها خمس مرات.

ثم يتوجه للناس عامة مؤمنهم وكافرهم بنداء؛ تذكيراً لهم بطبيعتهم، حتى لا يبغى بعضهم على بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض، وأنه ليس ذلك إلا بتقوى الله، فقال -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأختم ذلك بأن دلالة النداء الأول في السورة قامت على التنبيه والإيقاظ لجملة الآداب التي جاءت بعده، سواء أكانت نهياً عن أمر، أو إخباراً بشيء كما في قوله -تعالى-: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، أو أمراً بأشياء تصفوا بها الحياة .. والنهي الأول مقدمة للنهي الثاني، وكل منهما دليل على جملة الآداب التي بنيت عليها السورة؛ مما يوضح تآزر الدلالة التي تنبثق من الجملة الأولى مع السياق كله في الحث على توقير الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتعظيمه، وإنزاله منزلته، وكذلك بعضكم مع بعض، كما لخصها النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنة، وهي مبينة للقرآن في قوله: "أنزلوا الناس منازلهم"، وكل هذه المعاني يجملها: النص الأول الذي استهلته به السورة بما فيه من نداء هيأ للنهي، ونهي هيأ للتحذير بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، فالبداية دالة على السياق كله، وجمال السياق كله كامن ومضمر في هذه البداية.

دلالة النداء الأخير الذي هيأ للنهي في فواتح السور:

ويبقى من السور المستهلة بهذا النداء الخاص بالمؤمنين قوله -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ

يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ [الممتحنة: ١].

النداء هنا جاء مقدمة للنهي؛ لبيان أهمية المنهي عنه، وهو موالاتة الأعداء، والتودد إليهم، والإفضاء بالأسرار إليهم من وراء الرسول -صلى الله عليه وسلم- بتسريب أسرارهم، فقد قيل: إنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وقد أرسل كتابًا لأهل مكة، كتب فيه: من حاطب إلى أهل مكة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريدكم فخذوا حذرکم، وأرسله مع مغنية تدعى سارة، فخرجت سارة، ونزل جبريل -عليه السلام- فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بما فعل حاطب، فبعث النبي عليًا، وعمارًا، والزيير، وطلحة، والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرسانًا، وقال لهم انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن فيها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها واخلوا سبيلها .. ولم تخرجه إلا بعد أن سلَّ عليٌّ سيفه، وقال لها أخرجي الكتاب، وإلا ضربت عنقك فأخرجته من ذؤابتها فأخذه ورجعوا به إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت غريبًا فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيتهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يدًا، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وكتابي لا يغني عنهم شيئًا، فصدق رسول الله وعذره، فنزلت: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فقام عمر فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: "وما يدريك يا عمر، لعل الله قط اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" (١).

وجاءت السورة بعد هذا الافتتاح شارحة، ومفصلة الواقعة، ومحذرة أشد التحذير من مثل ذلك، فإنه يعلمه، وموضحًا الحق، وهو أنهم؛ أي الأعداء لو ظفروا بكم

(١) أسباب النزول للواحي، ٢٣٦، ٢٣٧ باختصار.

اتخذوكم أعداء، ويتمنوا كفركم ﴿إِنْ يَشَقُّوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ [الممتحنة: ٢، ٣].

ولما كان النهي الذي جاء بعد النداء بهذه المنزلة من الأهمية تقدم عليه النداء بهذه الأداة العالية الدالة على البعد؛ ليوضح بُعد هذه الدلالة في أهمية الموضوع وعلو أهميته، وبهذه الأداة يبلغ التحذير منزلة رفيعة؛ لأن المحذر منه خيانة الله والرسول، وفيه أيضاً إحاطة علم الله الذي يستوي عنده ما يخفونه وما يعلنونه... والسورة كلها توجيهات إلى الحق الذي عليه الدين الإسلامي الحنيف، ومن ثم كان النداء فيها دالاً دلالة قاطعة على أهمية ما بني عليه سياق السورة، ولكنه ليس نداء بالمعنى المصطلح عليه، بل يخرج عن ذلك إلى التحذير من موالاته الأعداء، ومن الخيانة لله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- براً حاطب بن أبي بلتعة لإقراره بالإيمان وإقراره بصنيعه مبيئاً علته على قدر فهمه، واعترافه بعلم الله -سبحانه- ومن ثم كان اسمها مترجماً عن مقصودها.

وفيه يقول البقاعي: "مقصودها براءة من أقر بالإيمان ممن اتسم بالعدوان؛ دلالة على صحة مدعاه، كما أن الكفاء تبرءوا من المؤمنين، وكذبوا بما جاءهم من الحق؛ لئلا يكونوا على باطلهم أحرص من المؤمنين على حقهم، وتسميتها بالممتحنة أوضح شيء فيها، وأدله على ذلك؛ لأن الصهر أعظم الوصل وأشرفها بعد الدين، فإذا نفي ومنع دل على أعظم المقاطعة لدلالته على الامتهان بسبب الكفران الذي هو أقبح العصيان"^(١).

وذكرت مقصود السورة هنا بعد بيان أهمية دلالة النداء، وسبب تقديمه على الأمر؛ لأن المقصود يؤكد ما دلّ عليه النداء في مقدمة السورة، وما تم التحذير منه بالنهي الذي جاء بعده، فمن بلاغة الكلام أن مقصود السورة واسمها شاهدان على أهمية الدلالة في الجملة التي افتتحت بها، وخاصة أن هذا المبحث معني بجمال

(١) نظم الدرر، ٨/٥٤٧.

الدلالة والسياق في النص القرآني، فمن البلاغة أن يبدأ بذلك، ولا ينتهج نهج المفسرين بوضع مقصود السورة في مقدمة تفسيرها، فلكل علم ما يخصه، ولكل بحث ما يميزه. وبعد: فهذه خمس سور استهلّت بالنداء العام في اثنين، والخاص في ثلاثة، وكان لكل منها دلالاته التي تميزه، من خلال السياق الذي بنيت عليه السورة.

دلالة الاستهلال بنداء النبي ﷺ:

ويبقى من السور التي استهلّت بجملة النداء خمس سور أخرى كلها في نداء الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة منها افتتحت بـ"يا أيها النبي"، وواحدة بـ"يا أيها المزمّل" والأخيرة بـ"يا أيها المدثر".

وقد ورد النداء في القرآن الكريم كله بـ(يا أيها النبي) ثلاث عشرة مرة، جاء الأمر بعد النداء في ثمانية منها، مع تنوعه حسب الحال، والمقام، ومطابقة السياق، أولها ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]، مبتدأ وخبر، والثاني: ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، والثالث الأمر (قل) ثلاث مرات ﴿قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]، و﴿قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٥٩]، والأمر (جاهد) جاء مرتين بصياغة واحدة ليس فيها حرف مختلف، قال -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، والأمر بالنقوى في شاهدنا الذي سندرسه هنا، وجاء الاستفهام بعد النداء بذلك مرة واحدة في قوله -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، وستأتي دراستها بمشيئة الله ... وجاء بعد الأسلوب الخبري أربع مرات؛ منها مرتان بأسلوب الشرط، أو المتضمن معنى الشرط في سورتي الممتحنة ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ...﴾ [الممتحنة: ١٢]، والآية الأولى من سورة الطلاق ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، والتأكيد في آيتين هما قوله -تعالى-: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٤٥]، و﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فهذه ثلاث عشرة كلها في النداء ب(يا أيها النبي).

وشاهدنا فيها هو ما جاء في استهلال السور تحديداً لمسار البحث كما سبق.

وأول هذه الشواهد قوله -تعالى-: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١].

وليس في القرآن أمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- بالتقوى إلا هذه الآية، ولم يأت النداء مهياً لهذا الأمر، إلا والأمر جد خطير، ومن ثم صنفه الزركشي في وجوه المخاطبات بأنه: "خطاب عَيْن والمراد غيره، كقوله -تعالى-: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ الخطاب له، والمراد المؤمنون؛ لأنه -صلى الله عليه وسلم- كان تقياً، وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين، والدليل على ذلك: قوله في سياق الآية: ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢]، ونص بعدها على أنه هو الخاص الذي أريد به العام"^(١).

وجاء الأمر بالتقوى للمؤمنين كثيراً، كقوله -تعالى-: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا

اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، والمعنى: احترزوا بطاعته مما أعده لأهل معصيته، وامتنعوا بموجبات الثواب عن موجبات العقاب"^(٢).

وليس هذا مما يتطبق على النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو الذي يبلغ عن ربه، فلا بد أن يكون أتقى الناس وأخشاهم، كما قال في الحديث: "إني لأتقاكم لله وأخشاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني .."^(٣).

(١) البرهان، ٢/٢٤٢، ٢٧١.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، ٢٢١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، دار الشعب، ط١، ١٩٨٧م، ٢/٧.

ومن ثم تكمن الدلالة في توجيه النداء هنا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة، وإن كان المراد الأمة على وجه العموم؛ حملًا على خطر الخطب، وإن صح التوجيه بأنه -صلى الله عليه وسلم- هو المأمور بالتقوى فيكون باب طلب الازدياد منها، ويكون بيانًا من الحق -سبحانه- بأنه إذا كان من هو في أعلى درجات التقوى يؤمر بها، فكيف بكم، وفيه زيادة ترسيخ للأمر بها في نفوس المؤمنين، وقد قال ربنا في بداية سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَآرِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١]، أي ليزدادوا هدى، كما قال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمُ هُدًى وَآءَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكٰفِرِينَ وَٱلْمُنٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] تحقيق وتأكيد لمعنى التقوى؛ لأن الذي يتقى لا يطعم هؤلاء بلا ريب ..

وبعد هذا المفهوم العام للجملة أقف مع دلالة النداء بهذا الوصف (النبي) دون النداء باسمه صريحًا، كغيره من الأنبياء، كما قال -سبحانه-: ﴿قَالَ يٰنُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صٰلِحٌ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطٰكَ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجٰهِلِيْنَ﴾ [هود: ٤٦]، وكما قال -سبحانه-: ﴿يٰبٰرِهِيْمُ أَعْرِضْ عَن هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرٌ رَّبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَانِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرٌ مَّرْدُوْدٌ﴾ [هود: ٧٦]، وكذا قوله -تعالى-: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِيْنِكَ يٰمُوْسٰى﴾ [طه: ١٧]، وكذا داود، وصالح ... ولكن النداء هنا بـ(يا أيها النبي) خاص به -صلى الله عليه وسلم- وفي ذلك دلالة تكريم وتشريف وتعظيم، وخصوصية لا تكون لغيره، وله كثير من الخصوصيات التي ليست لأحد من الأنبياء، منها أن كل نبي كان يبعث لقومه خاصة، وبعث -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس كافة، وكذا في أحاديثه -صلى الله عليه وسلم- الكثير من هذا منها: "أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" ... ولو نوّدي أحد من الأنبياء في القرآن بـ(يا أيها النبي) لالتبس الأمر، ولكن يا أيها النبي، وكذا يا أيها الرسول خاصة به -صلى الله عليه وسلم-، مع أن اسمه صريحًا ذكر في القرآن (محمد) أربع مرات، و(أحمد) مرة واحدة .. لتأكيد بشريته، وأنه بشر رسول يوحى إليه، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:

[١٤٤]، وقوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، وقوله -تعالى-: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن ثم جاءت دلالة النداء بهذا الوصف لإبراز الخصوصية العليا، والمكانة الرفيعة لمحمد -صلى الله عليه وسلم- عند ربه، وعند أمته، وكل من آمن به، وقال الزمخشري: "وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود؛ كرامة له وتشريفًا، وربًا بمحله، وتتويهاً بفضله .." (١).

ولم تستهل سورة بـ (يا أيها الرسول) كما استهلث ثلاث بـ (يا أيها النبي) لما في لفظ النبي من معنى فيه خصوصية، قال: الطيبي: قيل: "إن النبي مشتق من النبوة، وهو الشيء المرتفع، ومن المهموز شعر عباس بن مرداس يمدحه:

يا خاتم النبيئين إنك مرسل ★★ بالحق كل هدى السبيل هداكا

وعن الراغب: النبوة سفارة بين الله -عز وجل- وبين ذوي العقول من عباده؛ لإزاحة عنهم في أمر معادهم ومعاشهم، والنبي لكونه منبئًا بما تسكن إليه العقول الزكية، يصح أن يكون بمعنى فاعل؛ لقوله -تعالى-: ﴿نَبِيٌّ عَبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وأن يكون بمعنى مفعول لقوله: ﴿نَبَأْنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣]، وقد سمي نبيًا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، والنبي بغير الهمز أبلغ؛ لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل، ولذلك قال -عليه السلام- لمن قال: يا نبيء الله: "لست بنبيء الله" لما رأى أن الرجل خاطبه بالهمز لبغض منه .." (٢).

(١) الكشاف، ٢٤٨/٣.

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، ٣٦٥/١٢، والمفردات (نبي).

وقال الحرالي: حقيقة النبوة ورد غيب ظاهر؛ أي من الحق بالوحي لخاص من الخلق، خفي عن العامة منهم، ثم قد يختص مقصد ذلك الوارد المقيم لذلك الواحد بذاته، فيكون نبياً غير رسول، وقد يرد عليه عند تمام أمره في ذاته موارد إقامة غيره فيصير رسولاً، وقال البقاعي: عبّر به لاقتضاء مقصود السورة مقام النبوة الذي هو بين الرب وعبده في تقريبه وإعلائه إلى خبائه إذا قرئ بغير همز.

فالنبوة: ارتفاع وعلو، وذلك لمن أعلی عن رتبة النبأ إلى رتبة العلم، فكان مطلعاً على علم ما ورد عليه من الغيب على حقيقته وكماله، والنبوة بالهمز من النبأ وهو الخبر، وذلك لمن اصطفى من البشر لرتبة السماع والإنباء، فنبئ ونبأ غيره من غير أن يكون عنده حقيقة ما ينبئ به، ولا ما نبأ فيكون حامل علم...^(١).

نخلص من ذلك إلى أن دلالة النداء بلفظ النبي هي: الرفعة، والعلو، والتميز، والخصوص الذي يتناسب مع أمور كثيرة بنيت عليها السورة، وهي خاصة بالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إما ببطلان أمر، كالتبني، وإما بأنباء بأمور زواجه من زينب بنت جحش، أو أنه لا يحل له الأزواج من بعدهن، ولا أن يُبدل بهن من أزواج... ولذلك ورد لفظ النبي في السورة ذاتها خمس عشرة مرة، وجّه النداء إلى النبي بهذه الصفة في خمس منها؛ هي: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ و﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْتَكُمْ وَأَسْرَعْتُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، و﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾ [الأحزاب: ٤٥]، و﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّذِينَ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، و﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وفي كل هذا تعضيد لدلالة النداء بهذا الوصف في فاتحة السورة وتكرار هذه الرفعة لما بنيت عليه السورة من قضايا مهمة مثل قضية الظهار، والتبني، والاستئذان، والعهد، والتحذير من الخضوع بالقول، والإيذاء، والنفاق، والساعة،

(١) نظم الدرر، ٦٧/٣، ٦٨ بتصرف واختصار.

والأمانة ... وبينها أحكام تتعلق بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وليست لغيره، لذلك اختصه بالنداء في بداية السورة بصفة ليست لغيره؛ تكريماً وتشريفاً ..

دلالة تقديم النداء على الأمر:

وتتأزر دلالة النداء هذه مع دلالة الأمر التي تتم بها الجملة "اتق الله"؛ لأن جملة النداء لا محل لها ابتدائية، وجملة الأمر "اتق الله"؛ لا محل لها جواب النداء، وسبق أن الأمر بالتقوى من الخاص المراد به العام ودلالته بعد هذا النداء: الحث على التنبه لما جاءت به السورة من قضايا له، ولأمته، ولذلك وجه الأمر إليه؛ لأنه قائد أمته، فيوجه إليه، ما يراد توجيهه إليهم لبيان أهميته، وفيه أيضاً كما يقول العلماء: الإلهاب والتهييج، وتقيد دلالاته تحريك الشعور، وإثارة الوجدان، فتكون النفس أحسن تلقياً، وأكثر تمسكاً بما هو كائن، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملاً في المعاني المهمة، التي هي أصول في هذا الدين، والنهي عن طاعة الكافرين، والمنافقين داخله في الأمر بالتقوى؛ لأن الأمر بالتقوى متناول للنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وهذا العطف يفيد الاهتمام بالنهي عن طاعتهم ويؤكدها، وكأنه -سبحانه- قد نُهي عن طاعتهم مرتين، مرة عن طريق العموم، ومرة عن طريق التفصيل...^(١).

وجملة (ولا تطع الكافرين والمنافقين) معطوفة على جواب النداء (اتق الله) وجملة (إن الله كان عليماً حكيماً) لا محل لها تعليل للأمر، وتأکید لمضمونه، فهي جملة مستأنفة تعلل ما سبقها بمنزلة شبه كما الاتصال الذي تكون الجملة الثانية فيه تعليلًا للأولى، ومنزلة منها منزلة الجواب من السؤال دون رابط لفظي؛ لأنها متصلة من ذات نفسها من غير حاجة إلى رابط يربطها.

ومن هنا: تتأزر دلالة النداء (بما فيها من رفعة، وعلو شأن) مع الأمر الذي هيأت له، ومع النهي الذي يؤكد مضمون الأمر قبله، تتأزر هذه الدلالات في إخراج دلالة عامة ودلالات خاصة، أما العامة فهي أن المعاني التي تشتمل عليها السورة معانٍ ذات أهمية -كما سبق- ولذلك تستدعي أن يُقدّم لها بالنتبيه، والتحذير من

(١) من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، د. محمد أبو موسى، ص ٩٠.

مخالفة أمر الله، والموضوعات التي بنيت عليها السورة كلها تستدعي الحذر من اتباع غير الحق، فالنداء رفع شأن من أوحى إليه بها، والأمر خاص يفيد عامًا لِيَحْسُنَ الإرشاد، وتعلو الاستجابة، والنهي يعضد مضمون الأمر، ويعطف عليه أمر عام باتباع ما يوحى إليه فقط ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢] زيادة تأكيد، وقوة تقرير .. وتتبلج من ذلك المعاني المبهمة والقضايا التي تحتاج إلى تقوى خاصة؛ لتكون جملة المقدمة دليلاً على الموضوعات، ومبينة أهميتها .. ولأهمية هذه الموضوعات وعلو شأنها كان هذا التأنيس الذي استهلته به السورة، وجمعت فيه معالم الهدى، واتباع الحق، ودحر كل ما سواه.

والشاهد الثاني الذي جاءت بنفس النداء (يا أيها النبي) في فاتحة السور، قوله

-تعالى-: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وجملة الشرط هذه (إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) فريدة في القرآن، وهي أيضاً من العام المراد به الخاص؛ لأنه سيد الأمة، ونبيها الذي ينبئها بما يوحى إليه، وفي هذا النداء تعليم وتوجيه لحفظ الحقوق، ولذلك توالت بعده التوجيهات التي بها تُحفظ الحقوق، وتُصان الحرمات؛ لأنها حدود الله، ثم التحذير من تجاوزها، ولا ريب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بالبلاغ، ومن ثم استهلته السورة بهذا النداء؛ لأهمية ما بعده، فهو له ولأمته، ولذلك جاء التعبير بلفظ الجمع (إذا طلقتم ..) ويقول الزجاج: هذا خطاب للنبي -عليه السلام- والمؤمنون داخلون معه في الخطاب، ومعناه: إذا أردتم الطلاق، كما قال: (إذا قمتم إلى الصلاة) معناه إذا أردتم القيام إلى الصلاة... (١).

(١) معاني القرآن وإعرابه، ١٨٣/٥.

ويوضح الشهاب كلام البيضاوي في ذلك فيقول: "قوله: حُصَّ النداء وعمَّ الخطاب ... إلخ، حُصَّ وعمَّ وإن كانا مجهولين، فالنداء والخطاب مرفوعان بالنيابة عن الفاعل، وإن كانا معلومين فهما منصوبان، وضمير الفاعل له -تعالى- يعني كان حقه أن يقال (يا أيها النبي إذا طلقت النساء فطلقوهن) فحُصَّ النداء به مع أن الكلام معهم جميعاً، والحكم عام له -صلى الله عليه وسلم- ولهم؛ لأنه مقتداهم فنداؤه كندايمهم .. وتخصيصه -صلى الله عليه وسلم- لرفعة شأنه، ولذا اختير لفظ النبي لما فيه من الدلالة على علو مرتبته ..^(١) كما أن هذا الوصف سبب التلقي لغرائب العلوم، ورغائب الحكم والفهوم، كما أن أداة النداء (يا) التي لم يذكر في القرآن نداء صريح بغيرها، لا تذكر إلا في الأمر البالغ الأهمية -كما سبق في دراسة آية الأحزاب- الذي يقصد به التنبيه لجليل الأحكام، وبذل الجهد في تفهيمها والعمل بها، لذلك أقبل على الأمة بعد أن جذب انتباههم، وأيقظ عقولهم، وحرك أوتار أسماعهم بهذا النداء، فقال معبراً بأداة التحقيق "إذا" القاطعة بالحدوث؛ لأنها ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة (طلقت النساء) في محل جر بإضافة الظرف، والفاء (فطلقوهن) رابطة لجواب الشرط، وقوله (لعدتهن) متعلق بحال من الضمير المفعول في (طلقوهن) بحذف مضاف؛ أي مستقبلات لأول عدتهن .. أي استقبال طهر يُحسب منها، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه .. لأنها إذا جومعت ربما حملت فطالت العدة، فهذه اللام (لعدتهن) للوقت، واختير التعبير بها؛ لأنها تفهم مع ذلك أن ما دخلت عليه كالعلة الحاملة على متعلقها، فصار كأنه قيل: طلقوا لأجل العدة، وإذا كان لأجلها علم أن المراد تخفيفها على المرأة بحسب الطاقة؛ لأن مبنى الدين على اليسر...^(٢).

وعَدَّ بعض العلماء ذلك الخطاب التفاتاً بالانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.

وجمال الدلالة هنا يكمن في عدة أمور:

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، ٣٠٣/٨.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ٢٣/٨، ٢٤، والجدول في إعراب القرآن، ٢٧٧/٢٨.

أولها: العلو والرفعة الداعيان لحسن التعامل، **وثانيها:** تهذيب الأخلاق، وارتقائها عن سفساف الأمور، والحرص على استقرار الحياة، وعدم قطعها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا)، **وثالثها:** تحقيق دلائل الإيمان عند تنفيذ أحكامه، وبيان أنه قول يطابقه عمل، وتلك حدود الله التي من تجاوزها تخبط في ظلمات الجهل وحصد سوء العاقبة، ولذلك وردت كلمة (أمر) مفردة ومضافة في السورة سبع مرات، أول أمر فيها كان مطلقا، ومنكرا، وآخر أمر فيها جاء معرفا كما يأتي:

أول واحدة فيها مطلقة منكرة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ مطلقة؛ لأن الأمر الذي يرجى حدوثه قد يكون ضد ما حدث من أمور دعت إلى الطلاق، فتقوى به الأواصر، وتعود به الرغبة في استمرار الزواج أكثر مما بدأت، فتكثيره للتنويع، وإطلاقه لتقدير كل نفس، وكل حالة، وهذا فيه تنبيه على الرفق والترث؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يقطع بمصيره .. لذلك تكررت في السورة عبارة (ومن يتق الله) ثلاث مرات: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [٢] و﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [٤]، و﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [٥]، وكلها تدعو إلى إحقاق الحق ووضع كل شيء موضعه دون تسرع، أو تجاوز لحدود الله، وعظمة هذا كله موجودة في جملة النداء، وهي النص الأول الذي افتتحت به السورة، وأقيمت أركانها، وموضوعاتها على عظمتها، فهي أمور عظيمة، بها تهدم بيوت، وتقام بيوت على الحق، وهذا من عظيم تآزر السياق في معرفة دلالة النص، وجمالها وحسن بلاغتها، وقمة براعتها .. هذا أول ذكر لكلمة (أمر) في السورة، منكرة كما تبين،

والثانية: هي آخر كلمة (أمر) في السورة جاءت معرفة ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [١٢] فالأمر هنا معرف لأنه بمعنى الوحي، قال عطاء: يريد الوحي بينهن إلى خلقه في كل أرض وفي كل سماء، وقال مقاتل: يعني الوحي من السماء العليا إلى الأرض السفلى، وقال مجاهد: "ينزل الأمر بينهن بحياة بعض وموت بعض، وسلامة هذا،

وهلاك ذلك مثلاً، وقال قتادة: في كل سماء من سماواته، وأرض من أرضه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه. (١)

فالتعبير بكلمة (أمر) جاء منكرًا في أول آية في السورة ومعرفًا في ختامها؛ لأن الأولى في شئون البشر بتقدير الله وتدبيره؛ تجلية لقدرته التي لا يحيط بها بشر، وآخر أمر جاء معرفًا لأنه خاص بالخالق المقدر المدبر، فهو خاص بالله ﷻ.

فكان تنكير الأمر الأول في السورة؛ لتغير الأحوال حسب أحوال الناس، وذلك مرتبط بالتقوى التي تكررت، "ومن يتق الله يجعل له مخرجًا"، و"ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا"، و"ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا"، وجاء الأخير معرفًا؛ لأنه بمعنى الوحي كما تبين.

والأوامر التي جاءت بين هذا الأول في السورة، والأخير فيها كلها مضافة (إن الله بالغ أمره) أي نافذ، توكلتم أم لم تتوكلوا ..

"وسماه أمرًا إشارة إلى أنه مما يستحق أن يؤمر به، وإلى أنه في سرعة الكون، إذا أريد لم يتخلق بوجه، بل يكون كالمؤتمر الحقيق للملك الجليل الكبير" (٢)، وكذلك (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا) أي سهولة، وفرجًا بحسب تقواه الله - عز وجل - فهذا مقيد بالإضافة أيضًا، أما التعبير بـ(أمر الله) بالإضافة الأمر إلى الله؛ فلأنه جاء بعد بيان أحكام، لذلك قال "أنزله إليكم" وفي ذلك قمة التحذير، وبالغ الوعيد والتهديد لمن يخالفه .. وتجلي هذا الوعيد في ذكر كلمة الأمر ثلاث مرات بعد ذلك في قوله

-تعالى-: ﴿وَكَايَن مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيْدًا وَعَذِبْنَهَا عَذَابًا تَكْرًا

﴿٨﴾ فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ [الطلاق: ٨، ٩]، وكلها مضافة كما نرى، ولكن الأولى إلى الرب (أمر ربها) تحذير ووعيد لمن تجاوز حدود الله، والثانية، والثالثة مضافة إلى نفسها (وبال أمرها) و(عاقبة أمرها) أي فساده الذي تسبب في الهلاك والخسران .. وكل ذلك يتعاضد مع خطر الخطب، وعظم الأمور، والأحكام

(١) تفسير الرازي، ٤٠/٣٠، وتفسير مجاهد، ٤٤٩، وتفسير مجاهد، ٣/٣٧٤.

(٢) نظم الدرر، ٣٠/٨.

التي بنيت عليها السورة، وقد أجملت الآية الأولى في السورة كل هذا فتحدثت عن الطلاق، والعدة وإحصائها، وتقوى الله، وإمساك المعتدة في بيتها، وبيان أنها حدود الله، والتحذير من تجاوزها، وقدر الله الذي يحدث بتقواه، واتباع أمره ... وكل كلمة من هذه لها دلالة تتاصررها، وتوضحها في سياق السورة، وبناء عليها تجتمع دلالة التعظيم بذكر النبي بهذا الوصف، والتعظيم في حدود الله وأوامره في براعة الاستهلال بهذا النداء الدال على عظمة هذه الأمور، والمنبه على أهميتها، والمقرر لحقائقها، تقريراً مؤكداً على تقدير حدود الله، وتنفيذها على خير وجه ..

جمال الدلالة في نداء النبي ﷺ لأمر يخصه:

ويبقى من الشواهد التي استهلت فيها ثلاث سور بنداء النبي -صلى الله عليه وسلم- النداء الخاص به في أمر بعض زوجاته، وفيه التوجيه لأتمته أيضاً، وذلك قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بِنَعْيِ مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

فهو خطاب مؤانسة أيضاً وملاطفة، وفيه من التعظيم والتبجيل ما فيه لأنه نداء بوصف خاص به -كما سبق- لم ينادى به في القرآن غيره -صلى الله عليه وسلم- ودليل المؤانسة والتبجيل هنا قوله -تعالى- ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ففي هذا التذييل دلالة على مغفرة الله له، ولكنه خطاب حب، وود، وتقدير، وتعليم بأنه لا ينبغي لأحد -ولو كان رسولاً- أن يحرم ويحلل إلا بإذن الواحد القهار .. وهو درس عظيم لرجال الأمة ونسائها ..

وسبب نزور السورة يجمع قصتها التي توضح جمال الدلالة فيها، وهي: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل بأهله (مارية) في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها فقالت: لم تدخلها بيتي؟ ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هوأني عليك، فقال لها لا تذكرني هذا لعائشة، هي علي حرام إن قربتها، قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك؟ فحلف لها لا يقربها، وقال لها: لا تذكرني لأحد،

فذكرته لعائشة، فأبى ألا يدخل على نسائه شهراً، واعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة، فأنزل الله -تبارك وتعالى- ﴿لَمْ تُحْرَمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١)، وفيها روايات كثيرة غير هذا، ولكن الذي يعيننا ما يعين في تحديد دلالة السياق وبيان أهميته في الحث على "تقدير التعبير في الأدب مع الله، ومع رسوله -صلى الله عليه وسلم- ومع سائر العباد، والندب إلى التخلق بالأدب الشرعي، وحسن المباشرة لا سيما للنساء اقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في حسن عشرته، وكريم صحبته، وبيان أن الأدب الشرعي تارة يكون باللين، والأناة، وأخرى بالسوط وما دانه، ومرة بالسيف وما والاه، واسمها يوضح ذلك"^(٢).

فدلالة التوقير في النداء بأعلى أدواته، مع قربيه -صلى الله عليه وسلم- من ربه تبين لطف الله -عز وجل- ورفقه بنبيه، كما تبين دلالة النداء أيضاً عظم خطب ما فعله النساء، وعلم الله وإحاطته وقدرته على إظهار ما أخفوه ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَ الْعَلِيمِ الْخَيْرِ﴾ [التحريم ٣].

فكان الحديث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في صورة عتاب له، ولكن حقيقته لحفصة وعائشة بدليل قوله -تعالى-: ﴿إِنْ نُؤَبَّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وفي ذلك انتصار لرسول الله، ودفاع بالغ عنه، وحب جلي، وتوقير عليّ.

وفي ذلك يقول البقاعي في العلاقة بين السورتين: الطلاق والتحريم: لما ختم -سبحانه- الطلاق بإحاطة علمه، وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره، دل عليه أول هذه بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه، وبين نسائه اللاتي من خير النساء، واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به، فأظهره -سبحانه- عتاباً لأزواج نبيه -صلى الله عليه وسلم- في صورة عقابه؛ لأنه أبلغ رفقاً به.. فقال -تعالى- منادياً له بأداة البعد وهو أقرب أهل الحضرة، مع أنها معدة لما يكون ذا خطب جليل، ومعنى

(١) أسباب النزول للواحي، ٢٤٤.

(٢) نظم الدرر، ٤٣/٨.

جسيم ... وفيها إيماء إلى تنبيه الغير وإسماعه؛ إرادة لتأديبه، وتزكيتته، وتهذيبه .." (١).

فما أجملته الجملة الأولى وتوابعها ببيان العلة وحسن المغفرة ... (تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم) **فيها**: تعليم حسن المعاملة، وطيب المعاشرة، ومغفرة الله له، وتقدير تحليل الأيمان رحمة من الله بالأمة "قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم" أي قدر، وهنا قال لكم، لبيان أنه بيان لجميع الأمة، وهو قائدها، فما جاء هنا دلالة جلية على ما فصلته السورة من تنبيهات وتوجيهات عامة وخاصة، كلها تؤكد مكانة النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ربه، ومعالجة أموره؛ ليؤدي مهمته في تبليغ الدعوة التي ترشد الناس إلى الاقتداء به -صلى الله عليه وسلم- في حسن خلقه، وحرصه على إرضاء العباد بتطبيب النفوس وتأليف القلوب دون قصد إلى تحريم ما أحل الله.

جمال الدلالة في نداء النبي ﷺ بالمزمل، والمدثر:

ويبقى من شواهد استهلال السور بنداؤه -صلى الله عليه وسلم- بوصف خاص شاهدان؛ أحدهما (يا أيها المزمل)، والثاني (يا أيها المدثر).

وهذه مرحلة متقدمة؛ لأنهما من أول ما نزل من القرآن؛ حيث كانتا (السورتان) في بدء الوحي، وارتقى هذا النداء بعد ذلك إلى الوصف بالنبوة، وما في معناها، ومرادها من تعظيم وتكريم وإجلال كما سبق في دراسة شواهد (يا أيها النبي).

أما هنا، فقال -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ۝١ قُلْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١، ٢]، والثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝﴾ [المدثر، ١، ٢].

والجلي من السورتين، وخاصة بداية كل منهما أنها حث، وإلهاب على أعباء الرسالة، واستنهاض الهمة لحمل القول الثقيل الذي به يثقل ميزان الأمة، ويجعلها

خير أمة أخرجت للناس، وقد قال له ربنا -سبحانه-: ﴿إِنَّا سُلِّقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل ٥]، وهذا يؤكد أن النداء بهذا الوصف تهيئة وتنبية، والمادة اللغوية للوصفين متقاربة، ففيها معنى الستر.

يقول ابن فارس في معنى المزمل: الزاء والميم واللام أصلان: أحدهما يدل على حمل ثقل من الأثقال، والآخر صوت، والذال والتاء والراء: أصل واحد منقاس مطرد، وهو تضاعف شيء وتناضده بعضه على بعض، فالدثر: المال الكثير، والدثار ما تدثر به الإنسان، وهو فوق الشعار^(١).

ويقول مقاتل بن سليمان البلخي: (يا أيها المزمل) يعني الذي ضمّ عليه ثيابه .. وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل -عليه السلام-: يا أيها المزمل، أي الذي تزل بالثياب وقد ضمها عليه...^(٢).

والمزمل أصله: المترمل؛ أي الذي تزل في ثيابه أي تلفق بها، فأدغم التاء في الزاي ونحوه: المدثر أي المتدثر، واختلفوا: لم تزل بثوبه؟ فقال ابن عباس: أول ما جاءه جبريل -عليه السلام- خافه، وظن أن به مسًا من الجن، فرجع من الجبل مرتعدًا، وقال زملوني، فبينما هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه وقال: يا أيها المزمل، وقيل: إنه تزل بثيابه في حال هيئة الصلاة .. والمدثر هو الذي تدثر بثيابه، والدثار ثوب فوق الشعار، وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- جابر بن عبد الله قال: "كنت على جبل حراء، فنوديت: يا محمد، إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئًا، فنظرت فوقي فرأيت الملك قاعدًا على عرش بين السماء والأرض، فخفت ورجعت إلى خديجة، فقلت دثروني دثروني، وصبوا عليّ ماء باردًا، فنزل جبريل -عليه السلام- بقوله: "يا أيها المدثر""، وفيهما أقوال أخرى ساقها الفخر الرازي^(٣).

(١) مقاييس اللغة، (زمل)، (دثر).

(٢) ينظر: تفسيره، ٤٠٩/٣.

(٣) ينظر: تفسيره، ١٧١/٣٢، ١٨٩، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، ٢٣٩/٥٩.

والمهم هنا أن المنادى فيهما هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونداؤه هنا كما سبق بهذه الأداة يدل على بعد المكانة وعلو المنزلة؛ لأنه أقرب الناس إلى ربنا - سبحانه-، فهذه دلالة النداء.

أما دلالة الوصف (المزمل) و(المدثر) الوصف بالمزمل كان سببه اختفاء النبي في الغار وهو بعيد ربه، لما جاءه الوحي وهو متمسك عن الناس في الغار، وارتعد منه، وذهب إلى السيدة خديجة، وقال زملونى، وناداه جبريل بالوصف الواقع كما أمره ربه، كأن الله يقول له أظهر عبادتك، ولا تخفيها، والدليل على ذلك: السياق بعد هذا الوصف، وهو الأمر بالقيام للعبادة: ﴿قُرْآنًا لَّيْلًا لِّأَقْلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرِئْلَ الْفُرْقَانِ تَرْتِيلًا﴾، وكانت الدعوة لا تزال سرية والعبادة كذلك، فالسياق بعد الوصف في سورة المزمل يحدد المقصود من الدلالة وهو القوة في العبادة، والجد فيها استعدادًا للحمل الثقيل، فالله يدعو للتدريب والتهيؤ لنزول الوحي الذي كان يتصعب عرفًا عند نزوله، فالسبب في الأمر بقوة العبادة والاجتهاد فيها وترك الراحة هو: أن الوحي حمل ثقيل، والدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة يحتاج الخروج من التزمل الذي هو كناية عن الراحة، لذلك قال له ﴿قُرْآنًا لَّيْلًا لِّأَقْلِيلًا﴾، وهذا القليل هو حق النفس من الراحة التي تعين على مواصلة العبادة، كما قال -سبحانه- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨].

فالسبب حدد دلالة الوصف هنا بأنه: تهيؤ للعبادة، واستعداد لتبليغ الرسالة، وأن هذا الأمر ليس هينًا، والذي يعين عليه هو مواصلة العبادة وعدم الركون إلى الراحة، فإن الله اصطفاك لذلك.

أما المدثر فالسياق بعد هذا الوصف يحدد دلالاته أيضًا، مع المزمل، قال - سبحانه-: (قم الليل ...) فكانت دعوة إلى العبادة، وهنا قال -سبحانه- (قم فأنذر وربك فكبر ..) أي تهيؤ للإنذار العاصين، ولذلك قيل: إن سورة المدثر نزلت بعد سورة المزمل، والمزمل كانت تدريبًا على قوة العبادة ومشاقها، والمدثر جاءت بعد هذه المرحلة، وقد تهيأت النفس، وتدربت على القوة والتحمل، فقال فيها (قم فأنذر) فهناك مع العبادة أمر واحد، (قم الليل) ولكن هنا مع الإنذار أمران، أحدهما: القيام (قم) أي

استعد وتهياً، والثاني: الإنذار (فأنذر)، وفيه يقول البقاعي: أي فافعل الإنذار لكل من يمكن إنذاره، فأنذر من كان راقداً في غفلاته، متدثرًا بأثواب سكراته، لاهياً عما أمامه من أهوال يوم القيامة، وكذا من كان مستيقظاً، ولكنه متدثر بأثواب تشويغاته، وأغشية فتراتة...^(١).

فهنا جد في الدعوة، وخص الإنذار؛ لأنه أشقها، وأصل فيها، والبشارة تكون بعده، فالترهيب قبل الترغيب يجعل درجة البشارة عالية، ولو كان الترغيب أولاً لضعفت نتائجه، ودائماً تكون التخلية قبل التحلية.

وهناك جد واجتهاد في العبادة؛ لأنه لا بد أن يدرب نفسه على ما يدعو إليه ليكون فيه رائداً.

وهكذا تجلى جمال الدلالة في السورتين في جانبي العلو والارتقاء في العبادة والعلو والارتقاء والثبات في الإنذار، وهو أصل الدعوة، ولكنه يُمهّد له بأن يبدأ الداعي أو المنذر بنفسه في أعلى درجات العبادة؛ لتكون دليلاً على نجاح إنذاره وبلاغه عن ربه.

فالمزمل فيها ملاطفة، وتثبيت، وتهيؤ، كما في مقدمتها، وإن كان في السورة موضوعات أخرى بعد ذلك كأمره بالصبر ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والإحسان في العمل ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وتهديد المكذابين ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا﴾^(١٢) وطعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿[المزمل: ١٢، ١٣] ... وهكذا.

أما المدثر فكان ما فيها نتيجة للتي قبلها، وتوالت بعدها الأوامر والنواهي، وتهديد المكذابين، وسؤال المجرمين ... وهكذا تكاملت السورتان، مع اختلاف الوصفين، ودلالة السياقين، ورفع شأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في فاتحة كل من السورتين.

المبحث الرابع

دلالة أسلوب الدعاء في السياق القرآني

ما سبق كان في بيان جمال الدلالة في السياق القرآني من خلال أساليب الإنشاء التي وقعت في فاتحة بعض السور، وقد تجلى ذلك في أساليب الاستقهام والأمر والنداء، ولكن هناك سور من القرآن الكريم استهلّت بما يفيد معنى الدعاء، فهي في اللفظ خبر، ولكن عند التأمل نجد المعنى إنشاء.

وهذا هو موضوع دراسة هذا المبحث الذي جاءت شواهدة في ثلاث سور فحسب، وهي ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، و﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وهو داخل ضمن أساليب الإنشاء من جهة المعنى؛ لأنه من المعاني التي يفيدها النداء، كما سبق أن النداء يفيد التعظيم والتشريف نحو (يا أيها النبي) وقد يفيد الإشفاق، وقد يفيد التوبيخ ..

وكذلك يخرج إلى معنى: الدعاء؛ لأن الدعاء طلب، والنداء طلب، وما جاء منه ليس طلباً بمعنى الإقبال المعروف لغة، أو اصطلاحاً، ولكن هذا الطلب وراءه دلالة بلاغية تكمن في جملته، ويؤيدها سياقه الذي جاء فيه.

وقد ذكر الزركشي من أقسام معنى الكلام: الدعاء فقال: "ومنها: الدعاء نحو: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وقوله: ﴿قَاتِلْهُمْ أَفَّ﴾ [المنافقون: ٤]، ﴿حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، قال سيبويه: هذا دعاء" (١).

ولكن ذكر سيبويه في: باب من النكرة يجري مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء، قال فيه: وذلك قولك: سلام عليك، ولبيك، وخير بين يديك، وويل لك، وويح لك، وويل لك ... فهذه الحروف كلها مبتدأ مبني عليها ما بعدها، والمعنى

(١) البرهان، ٣٢٦/٢. وينظر الكتاب ٦٧/١

فيهن: أنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك، ولست في حال حديثك تعمل في إثباتها، وترجيبتها، وفيها ذلك المعنى، كما أن حسابك فيها معنى النهي، وكما أن رحمة الله عليه فيها معنى رحمه الله، فهذا المعنى فيها ... وأما قوله -تعالى جده-: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، و﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فإنه لا ينبغي أن تقول إنه دعاء هاهنا؛ لأن الكلام بذلك قبيح، واللفظ به قبيح، ولكن العباد إنما كُلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم، وعلى ما يعنون، فكأنه -والله أعلم- قيل لهم ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم؛ لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر، والهلكة، فقيل هؤلاء ممن دخل في الشر والهلكة ووجب لهم هذا^(١).

معنى ذلك أن سيبويه يستقبح أن يكون ذلك من باب الدعاء، الذي هو معنى من معاني الإنشاء؛ أي أنها عندما ذكرت نشأ بها معنى الدعاء، ولكن هي قائمة على ذلك، ومستحقة للويل من بدايتها، والقرآن فقط يحكيها ... هذا موقف سيبويه.

ولكن لا يسلم له هذا؛ لأن المعاني التي تخرج إليها جميع أساليب الإنشاء من: الاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، قائمة فيها، ولكنها تخرج من ذلك إلى معنى آخر كالتنويه بالنعمة، والتشهير بها لتزداد في قوله -تعالى-: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ﴾ [النمل: ١٦] .. فالقرآن يقص ذلك وهو كائن، ولكنه يعطي عند بيانه، وقراءته معنى غير النداء، فكما أن النداء خرج لمعنى التنبيه والتشهير، كذلك يخرج هنا لمعنى الدعاء.

ولذلك يقول ابن يعيش في قول الله -تعالى-: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ وأمثالها .. فهذه الأسماء كلها إنما جاز الابتداء بها؛ لأنها ليست أخباراً في المعنى، إنما هي دعاء، أو مسألة، فهي في معنى الفعل، كما لو كانت منصوبة ... والتقدير .. وليلزمه الويل^(٢).

(١) الكتاب، ج ١/٣٣٠، ٣٣١ باختصار.

(٢) ينظر: شرح المفصل للزمخشري لابن يعيش، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١م، ١/٢٢٦.

وجعل ابن هشام اللام في مثل قوله -تعالى-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ للاستحقاق ويراد بها الدعاء... (١).

وبناء على ذلك يجب أن تدرس هذه الآيات الثلاث وما كان على شاكلتها داخل السور، تدرس في المعاني التي يفيدها النداء، وهي -كما سبق- خبر في اللفظ، والمعنى إنشاء.

جمال الدلالة في قوله تعالى "ويل للمطففين":

وأول شاهد عندنا -بناء على مسار البحث- قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، الطاء والفاء تدل على قلة الشيء، يقال: هذا شيء طفيف، والتطفيف نقصان المكيال والميزان، قال بعض أهل العلم: إنما سمي بذلك؛ لأن الذي ينقصه منه يكون طفيفاً.. (٢) وقال الراغب: والتطفيف الشيء النزر، ومنه الطفافة كما لا يعتد به، وطفف الكيل: قلل نصيب المكيل له في إيفائه، واستيفائه، قال -تعالى-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (٣).

ومع كونه نزر يسير، وشيء لا يعتد به إلا أن الله -عز وجل- حكم على صاحبه بالويل؛ لأنه بخص للحق مهما كان قليلاً، ومخالفة لأمر الله، ونهيه عن ذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥] وكذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٨١] والشعراء: ﴿لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

وذلك كله لأن التطفيف يعد سرقة، قال الزجاج: "ويل رفع بالابتداء، والخبر قوله (للمطففين) ولو كان في غير القرآن لجاز "ويلاً" للمطففين، على معنى جعل الله لهم ويلاً، والرفع أجود في القراءة؛ لأن المعنى قد ثبت لهم هذا، والويل كلمة تقال

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، دار الفكر، ط٦، ١٩٨٥م، ٢٧٥/١، ٦١٢.

(٢) مقاييس اللغة، (طف).

(٣) المفردات: (طف).

لكل من هو في عذاب وهلكة، والمطففون الذين ينقصون المكيال والميزان، وإنما قيل للفاعل من هذا مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الحقيقير الطفيف، وإنما أخذ من طَفَّ الشيء، وهو جانبه، وقد فسر أمره في السورة فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿١﴾﴾.

فالسورة قائمة من بدايتها على الإنذار، والتحذير، وكانت ساعة نزولها تعالج موضوعًا شائعًا بين أهل المدينة، ونجحت في أداء مهمتها، كما قال العلماء؛ حيث ذكر الواحدي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله "ويل للمطففين" فأحسنوا الكيل بعد ذلك، قال القرطبي: كان بالمدينة تجار يطففون، وكانت بياعتهم كشبه القمار، والمنابذة، والملامسة، والمخاطرة، فأنزل الله -تعالى- هذه الآية، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السوق وقرأها، قال الفراء: فانتبهوا فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا.. (٢).

و"ويل" كما سبق مبتدأ، مع أنه نكرة، والعلماء ذكروا أنه: لا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تقد، ولكن هناك مسوغات للابتداء بالنكرة؛ منها: الدعاء؛ أي أن هذا دعاء على من يصنع ذلك، وعلى ذلك فلفظه خبر، ومعناه إنشاء، وما كان كذلك أي بلفظ الخبر، والمعنى إنشاء كان أوكد في بناء المعنى، وأثبت في قوة الدلالة؛ لأنه جمع بين أمرين: الإخبار بتهديد من يصنع ذلك، والمبالغة في إنذاره ردعاً له، والدعاء عليه بهذا اللفظ، الذي يعني شدة العذاب في الآخرة، وقيل إنه واد في جهنم، ويقول الراغب: ومن قال "ويل" واد في جهنم فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد من قال الله -تعالى- ذلك فيه فقد استحق مقراً من النار، وثبت ذلك له، قال -تعالى-: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَنَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] (٣).

(١) معاني القرآن وإعرابه، ٢٩٧/٥.

(٢) ينظر: أسباب النزول، ٢٥٠، ومعاني القرآن للفراء، ٢٤٥/٣، وتفسير القرطبي، ٢٥٠/١٩.

(٣) المفردات، (ويل).

ننتهي من هذا إلى أن الدلالة العامة لهذه الجملة (الدعاء) ولكن السياق يحدد هنا من يجب لهم هذا الويل، (سواء أكان دعاء بالهلاك أو كان مكاناً معداً في جهنم لمن يفعلون ذلك وأمثالهم ممن وعدوا بذلك كالأفلاك الأثيم، والمكذابين في قوله - تعالى-: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩]... ونحوها مما ورد في القرآن الكريم) وينذر (أي السياق) ويهدد، ويبالغ في ذلك بقدر المبالغة التي تحدث من المطففين عند الاكتيال، أو الوزن؛ لأن الله بينهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا...﴾، ففيه افتعال ذلك عند الكيل، أو عند الوزن.

والاكتيال كما قال الرازي: هو الأخذ بالكيل، كالاتزان الأخذ بالوزن، وجاء التعبير بـ(على) دون (من) ليجلي التعالي، والتكبر على من يشتري لتغفيله وخداعه، أو لعدم مقدرته الدفاع عن حقه، ويقول الفراء: المراد: اکتالوا من الناس، ومن وعلى يعقبان في هذا الموضع؛ لأنه حق عليه، فإذا قال: اکتلت عليك، فكأنه قال: أخذت ما عليك، وإذا قال: اکتلت منك، فهو كقولك استوفيت منك...^(١).

ودلالة الإنكار في كل ذلك جلية، وتضمير معها: التعجب من هذا التجروء على الحق بنسيان الحق من باب قوله -تعالى-: ﴿سَوَّأَ اللَّهُ فَاَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، وكما أن ما بعد الجملة الأولى كان بياناً وإيضاحاً جلياً لها؛ لأن الله لما قال: "ويل للمطففين" كأنه قيل: ومن هم المطففون؟ فقال -سبحانه- "الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون"، وهذا من باب شبه كمال الاتصال، الذي تثير فيه الجملة الأولى سؤالاً، يكون ما بعدها جواباً عنه، كما أن ذلك جلي هنا، فكذاك هنا ارتقت درجة الإنذار والتهديد والوعيد إلى التعجب من تجروءهم على حقوق غيرهم ونسيان عقاب ربهم، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

جاء السياق بهذا التقصي وصدده بالتنبيه الذي يطوي الإنكار والتعجب "ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم"؟ الذي تتسع به دلالات السياق، فتعطي هذا

(١) ينظر: تفسير الرازي، ٨٩/٣١ بتصرف، وينظر: معاني القرآن للفراء، ٣/٢٤٥.

الجمال البلاغي مجموعاً في جملة الاستهلال "ويل للمطففين" وفيها من براعة الاستهلال ما فيها؛ لأنها جمعت معالم السياق بأوجز تعبير، وأوفى معنى؛ لأن المطفف -كما وضحه السياق بعد- يفعل ذلك في كل أحواله معطياً غيره، أو آخذاً من غيره، فهو يخون حين يأخذ من غيره للتجارة، وذلك قوله: "إذا اکتالوا على الناس" أي من الناس، ولكن تجبرهم وتجروهم استدعى التعبير بـ(على) وكذلك حين يبيع لغيره وهو قوله -تعالى-: "وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" أي ينقصون الكيل والوزن، فهذا التقابل بين الحالتين أظهر دلالة التجرو بيئاً وشراءً، ومن ثم أجملت جملة النص الأولى "ويل للمطففين" كل هذه المعاني، والدلالات التي تدرجت في السياق من: الإنذار، والتهديد، إلى الإنكار، والتعجب من هؤلاء الذين لم يخطر على ظنهم -فضلاً عن يقينهم- أنهم مبعوثون ليوم عظيم، كأنهم فقدوا أقل شعور، أو إحسان؛ لذا كانت البداية بهذا الدعاء (ويل للمطففين) بما يوحيه معناه وسياقه من دلالات تعضد معناه الذي هو الدعاء بالهلاك، أو الدعاء بأن يكون مصيرهم في جهنم التحسر والندامة، ولات ساعة مندم.

وقلت إن قوله -تعالى-: "ويل للمطففين" براعة استهلال؛ لأنها جمعت كل هذه الدلائل، ويعضد ذلك ما قاله ابن معصوم المدني: "وإنما سمي هذا النوع الاستهلال؛ لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به"^(١)، فالبداية هنا أجملت معالم الدلالة، والسياق أفصح عنها، وعضدها، وقواها بأبلغ عبارة وألطف إشارة ..

جمال الدلالة في قوله تعالى "ويل لكل همزة لمزة":

وعلى هذه الشاكلة من ذكر لفظ الويل في فاتحة سورة المطففين، جاء نكره في استهلال سورة الهمزة، فقال -تعالى-: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وهي جملة تامة كـ"ويل للمطففين" أدت معنى، وأجملت ما فصلته الآيات بعدها، فهي براعة

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني ٥٦/١.

استهلال أيضًا؛ لأنها دلت على المراد، وأجملت معناه، بالإضافة إلى ما تحويه من دلالة الإيقاظ والتنبيه، والحث على الإصغاء لما يأتي بعدها، ففيها تشويق للسامع ليسأل: من هو الهمزة اللمزة؟ والهمزة هو العياب، واللمزة كذلك، ويقول الفراء: وإنما نزلت في رجل واحد كان يهزم الناس، ويلمزمهم: يغتابهم ويعيبهم، وهذا جائز في العربية أن تذكر الشيء العام، وأنت تقصد قصدًا واحدًا من هذا...^(١)، وقيل: إنه أمية بن خلف كان يهزم النبي -صلى الله عليه وسلم-^(٢)، وقيل: الهمزة المغتاب، واللمزة العياب، وقيل: الهمز باليد، واللمز باللسان، وقيل: الهمز بالمواجهة، واللمز بظهر الغيب، وقيل: الهمز جهراً، واللمز سراً بالحاجب والعين، وقيل: الهمزة واللمزة: الذي يلقب الناس بما يكرهون... وقيل: هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الناعتون الناس بالعيب... لذلك ذمهم الله بالويل.. وكل هذه الوجوه ترجع إلى الطعن، وإظهار العيب^(٣)، والويل كائن ثابت لكل منهما على السواء، وبدركة واحدة، ولذلك قيل: لمزة بدل من همزة؛ أي أن كلمة (ويل) مبتدأ خبره (لكل همزة) وجاز الابتداء بالنكرة؛ لتضمنها معنى الدعاء، ويجوز: ويلا لكل همزة على الدعاء؛ أي ألزمه الله ويلاً، كما قال جرير:

كسا اللؤم تيمًا خضرة في جلودها ★★ فويلاً لتيم من سرابيلها الخضر

و(لمزة) بدل من همزة، وقيل: تأكيد لهمزة، تأكيداً لفظياً بالمرادف، و(الذي) بدل من كل، بدل المعرفة من النكرة، أو نُصِبَ بفعل محذوف على الذم، وأعربها ابن خالويه نعتاً لكل همزة لمزة، وجملة (جَمَعَ) [في قوله تعالى "الذي جمع مالاً"] صلة للذي لا محل له وفاعل جمع مستتر تقديره هو يعود على كل همزة لمزة..(٤).

فكل من الهمز واللمز عيب، فلماذا وصّحه الله بقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

..﴿[الهمزة: ٢].﴾

(١) معاني القرآن ٢٨٩/٣.

(٢) البرهان، ١٦٢/١.

(٣) ينظر: تفسير الرازي، ٩١/٣٢، ٩٢.

(٤) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، ٤٠٧/٨.

ظاهر الموصول وصلته يُفهم منه غير المعاني المذكورة للهمزة واللمزة، وبدقة النظر نجد أن الله -تعالى- وصفه بهذا الوصف؛ لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز واللمز، وهو إعجابه بما جمَعَ من المال، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستتقص غيره^(١)، ولذلك قرأ حمزة والكسائي: الذي جمَعَ بالتشديد؛ أي جمّعه من كل واد، أو اتجاه، وفرح به، وأصابه الكبر، ومن ثم قال -سبحانه- "مَالًا" بالتكثير الدال على غزرتة، وكثرتة، وإطلاقه على كل ما في الدنيا كما قال ربنا: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، أو أن هذا المال بلغ في الخبث، والفساد أقصى الغايات، والعطف بقوله "وعده" دليل الكثرة، زاعمًا أنه سيكون سببًا في إخلاده..^(٢)، وكل ذلك يؤكد أنه نسي الله فأنساه كل خير، فبدّل حمد النعمة بالغرور، وهمز الناس ولمزهم، وبناء على هذا فإن ما جمعته الجملة الأولى من الدعاء بالويل لمن صنع هذا، فصله السياق موضعًا سبب استحقاقه لهذا الويل، دعاء بالهلاك، أو خلودًا في مكان معد له ولأمثاله في جهنم، وبراعة الاستهلال بمفهومها السابق بينت جمال الدلالة وإجمالها بأبلغ معنى، وأوجز عبارة.

جمال الدلالة في استهلال سورة المسد:

قال -تعالى-: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، هذا ردّ إلهي مباشر من جنس القول الذي تكلم به أبو لهب، لما صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفا ذات يوم فقال: "يا صباحاه"، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ قال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم، أو ممسيكم، أما كنتم تصدقون؟" قالوا: بلى، قال: "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا دعوتنا جميعًا؟ فأنزل الله -عز وجل- "تبت يدا أبي لهب وتب" إلى آخرها..^(٣).

(١) تفسير الرازي، ٩٢/٣٢.

(٢) السابق، ٩٢/٣٢ بتصرف واختصار.

(٣) أسباب النزول للواحدي، ٢٥٩، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، دار إحياء العلوم،

وقوله "وتب" ليس تكررًا؛ لأن الأول جرى مجرى الدعاء، والثاني جزؤه؛ أي وقد تب، وقيل: تبت يدا أبي لهب؛ أي عمله، وتب أبو لهب...^(١)، فالتعبير بإسناد التب إلى يديه من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، ويصلح كناية عن هلاكه كله، والمعنى فيهما واحد، فالتاء والباء كلمة واحدة، وهي التباب، وهو الخسران، وتبًا للكافر أي هلاكًا له، وقال الله -تعالى-: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيْبٍ﴾ [هود: ١٠١]، أي تخسير.. وقيل: هو الاستمرار في الخسران، يقال: تبًا له، وتب له.. وتبت يدا؛ أي استمر خسارانه، نحو قوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُنِيْبُ﴾ [الحج: ١١]^(٢).

قالوا: استمرار الخسران، مع أن الفعل (تب) ماضي، والاستمرار يكون في المضارع، والمخرج من ذلك أن: الجملة دعائية، والدعاء لا يقصد به التحقق في زمن معين، والدلالة من هذا الدعاء هي الدعاء عليه بهلاكه في الدنيا، واستمرار ذلك ملازمًا له لا ينفك عنه في الآخرة، ولذلك قيل في المعنى: تبت يداه أي عمله، وتب أي هو، يعني هلك عمله، وهلك مع عمله، والمراد كما قال الزمخشري: هلاك جملته، كقوله -تعالى-: ﴿بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وكان ذلك وحصل، كقوله:

جزاني جزاه الله شر جزائه ★★ جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ويدل عليه قراءة ابن مسعود "وقد تب"^(٣)؛ أي أن "تبت يدا" دعاء، و"وتب" خبر يدل على حصول ذلك، وقيل: كل واحد منهما خبر، ولكن أريد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه، ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحته نفسه وعمله، فأخبر الله أنه محروم من الأمرين..^(٤).

ومن أبرع الدلالات هنا التعبير عن أبي لهب بكنيته دون اسمه الصريح؛ لأمرين، أولهما: أن الكناية أبلغ من التصريح، والعرب تعدها من البراعة والبلاغة،

(١) أسرار التكرار في القرآن المسمى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني، تحقيق عبد القادر عطا، دار الفضيلة، ٢٥٧.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة والمفردات، (تب).

(٣) الكشف، ٢٩٦/٤.

(٤) ينظر: تفسير الرازي، ١٦٧/٣٢.

ويوضح الشيخ عبد القاهر ذلك، فيقول: "ليس المعنى إذا قلنا: "إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كُنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكد وأشد.." (١).

والثاني: أنه بالكنية أشهر وأعرف، وأن الكنية ليست من باب التكرمة على الإطلاق، فلكل مقام مقال، وذكر الزمخشري هنا سؤالاً مهماً مؤداه: فإن قلت: لم كناه، والكنية تكرمة؟

قلت فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم، فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجري الكنية على الاسم، والاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء، وأن تبقى سمة له، ذكر الأشهر من علميه، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: يدا أبو لهب، كما قيل: علي بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان؛ لئلا يغير منه شيء، فيشكل على السامع، والثاني: أنه كان اسمه: عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته، والثالث: أنه لما كان من أهل النار، وماله، وماله إلى نار ذات لهب، وافقت حاله كنيته، فكان جديراً بأن يذكر بها، ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر للشرير، وأبو الخير للخير... (٢).

فمقصود السورة تجلي من بدايتها ودلالاتها التي تمثلت في الدعاء بالخسران الدائم والهلاك الجامع بين الدنيا والآخرة للذات والعمل، وهو الخسران المبين الذي لا خسران أعظم منه، وهو موافق لصنيعه مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قول نحو (تَبَا لَكَ) وعمل نحو رميه رسول الله بالحجارة، ونحو ذلك مما حكته كتب التفسير.

فتجلى جمال الدلالة في جمع معالم الإهانة من جنس قوله الذي كان -مع فعله- سبباً في هلاك ذاته، وخسران عمله، وتحديد مصيره هو، وامرأته ﴿مَا أَعْنَى عَنْهُ﴾

(١) دلائل الإعجاز، ٧١.

(٢) الكشف، ٢٩٦/٤ بقدر من الاختصار.

مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴿٥﴾، وهذا كله جمعه مفتاح السورة بإيجاز بليغ واستهلال جد بديع.

جمال التعليل المفضي إلى التعجب في استهلال سورة قريش:

ويدخل في باب التعبير بلفظ الخبر، والمعنى إنشاء على أحد التأويلات، قوله -تعالى- ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فليعبدوا ربَّ هذا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [سورة قريش]، فالحق -سبحانه وتعالى- يعجب رسوله -صلى الله عليه وسلم- من بالغ نعمته على قريش، بتيسير رحلتهم صيفًا وشتاءً، ويذكرهم بما يجب عليهم وهو قوله -تعالى-: "فليعبدوا رب هذا البيت"؛ أي لا ينشغلوا عن العبادة بنعم الله عليهم، فهو "الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"، لذلك ذكر الواحدي في سبب نزولها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله فضل قريشًا بسبع خصال، لم يعطها قبلهم أحدًا، ولا يعطيها أحدًا بعدهم: أن الخلافة فيهم، والحجاجة فيهم، وأن السقاية فيهم، وأن النبوة فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة لم يُذكر فيها أحد غيرهم (لإيلاف قريش)"^(١)، وهو مصدر من الفعل أَلَفَ الْفَأَ وَإِيْلَافًا بمعنى الترابط والتعارف، والتأليف بين القلوب نعمة لا يستطيعها إلا الله، ولذا قال لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِكَ اللَّهُ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ولذلك جاء الفعل (فليعبدوا) بلام الأمر، والمضارع الداعي للاستمرار، وهذا إلزام لهم لئلا ينشغلوا عن الله بنعمه التي أعلاها الربط بين قلوبهم، ويقول أبو جعفر الطبري: واختلف أهل العربية في المعنى الجالب لهذه اللام في قوله -تعالى-: "لإيلاف قريش" فكان بعض نحوي البصرة يقول: الجالب لها قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، فهي في قول هذا القائل صلة لقوله "جعلهم" فالواجب على هذا القول أن يكون معنى الكلام: ففعلنا بأصحاب

(١) أسباب النزول، ٢٥٧.

الفيل هذا الفعل؛ نعمة منا على أهل هذا البيت وإحساناً منا إليهم، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف.

وعليه تكون اللام في قوله (إيلاف) بمعنى إلى، كأنه قيل: نعمة لنعمة وإلى نعمة؛ لأن (إلى) موضع اللام، واللام موضع إلى ... قاله بعض أهل التأويل ... وعن مجاهد (إيلاف قريش) قال: نعمتي على قريش، وقاله ابن عباس أيضاً ... وكان بعض نحوي الكوفة يقول: قد قيل هذا القول، ويقال: إنه -تبارك وتعالى- عجب نبيه -صلى الله عليه وسلم- فقال: اعجب يا محمد لنعم الله على قريش في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ثم قال: فلا يتشاغلوا بذلك عن الإيمان واتباعك، يستدل بقوله (فليعبدوا رب هذا البيت) وكان بعض أهل التأويل يوجه تأويل قوله (إيلاف قريش) إلى ألفة بعضهم بعضاً ... أي صنعت بأصحاب الفيل؛ لألفه قريش؛ لئلا أفرق ألفتهم جماعتهم ...

والصواب من القول في ذلك عندنا: أن يقال: إن هذه اللام بمعنى التعجب، وأن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، والعرب إذا جاءت بهذه اللام فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجليها، كما قال الشاعر:

أغرّك أن قالوا لقرة شاعرا ★★ فيا لأباه من عريف وشاعر

فاكتفى باللام دليلاً على التعجب من إظهار الفعل، وإنما الكلام: أغرك أن قالوا: أعجبوا لقرة شاعراً، فكذاك قوله (إيلاف)^(١).

وهذا القول الثاني أرجح؛ لأنها بالإجماع سورة مستقلة بنفسها، وإن كان بينها وبين سورة الفيل وجه تناسب فهذا عام في جميع السور.

ويكمن جمال الدلالة هنا في أن اللام الجارة المستهله بها السورة بمعنى التعجب، ومتعلقة بفعل يدل عليه، كأنه قال: اعجبوا، وفيه أيضاً يقول ابن عاشور:

(١) تفسير الطبري، ٦١٩/٢٤ بقدر من الاختصار، ومعاني القرآن للفراء، ٢٩٣/٣.

ويجوز أن تجعل اللام متعلقة بفعل (اعجبوا) محذوفاً ينبئ عنه اللام؛ لكثرة وقوع مجرور بها بعد مادة التعجب، يقال: عجباً لك، وعجباً لتلك قضية، ومنه قول امرئ القيس: فيا لك من ليل؛ لأن حرف النداء مراد به التعجب، فتكون الفاء في قوله "فليعبدوا" تقييداً على التعجب"^(١).

وهذا شرح للوجه الذي ارتضاه الطبري والفراء، ودلالة التعجب جاءت في صورة الدلالة التي يطويها النص، ويشرحها المعنى والسياق.

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/٥٥٥.

الفصل السادس

جمال الدلالة في سياق الاستهلال بالقسم

مدخل وبيان:

القسم نوع من الأنواع العشرة التي افتتح الله سور القرآن بها، وقد سبقت دراسة تسعة أنواع منها، والحديث هنا عن القسم في فواتح السور، وقد جاء في خمس عشرة سورة، غير الذي ورد بعد فاتحة السورة بحروف التهجي، نحو قوله -تعالى-: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾، [يس: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿صَّ ۝ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝﴾ [ص: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ۝﴾ [الزخرف: ١]، والدخان: [١]، وقوله -تعالى-: ﴿قَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝﴾ [ق: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿تَّ ۝ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾ [ن: ١]، وغير القسم المسبوق بنفي كقوله -تعالى-: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝﴾ [القيامة: ١]، وقوله -تعالى-: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد: ١]، فهذه ثمانية أقسام أخرى تُعدّ في فواتح السور أيضًا، وتضاف دراستها هنا إلى الخمس عشرة السابقة.

قبل دراسة دلائل كل منها من خلال سياقها، يجدر بنا أن نحرر المصطلح من كلام اللغويين والبلاغيين؛ ليكون ذلك بمثابة مرآة يطلّع فيها الناظر، فيرى أصول هذا الباب، وأهميته في التعبير عن المراد، والسر في استعماله، لا سيما في كلام الله - عز وجل - الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فصلت: ٤٢].

أولاً: المادة من المنظور اللغوي: يقول ابن فارس: "فأما اليمين: فالقسَم، قال أهل اللغة: أصل ذلك من القَسامة، وهي الأيمان تُقسَم على أولياء المقتول إذا ادعوا دَمَ مقتولهم على ناس اتهموهم به"^(١)، ويقول الراغب: "وأقسَم: حلف، وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء المقتول، ثم صار اسماً لكل حلف، قال -

(١) مقاييس اللغة، (قسم).

تعالى:- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [النور: ٥٣] (١)، وقال الزمخشري: "وأقسم بالله قسماً باطلاً، وأقساماً باطلة، وقاسمهما حلف لهما، وتقاسموا بالله تحالفوا" (٢)، وذكر ابن منظور أن: "القَسَم: بالتحريك اليمين، وكذلك المُقَسَم، وهو المصدر، مثل المُخْرَج، والجمع أقسام، وقد أقسم بالله واستقسمه به، وقاسمه حلف له .." (٣).

فكل من القسم، والحلف، يعطي معنى الآخر كما تبين، والحلف: اليمين، وأصلها العقد بالعزم والنية، قال الراغب: "الحلف أصل اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد، ثم عبر به عن كل يمين، قال -تعالى-: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ٨] أي مكثار للحلف، أما اليمين فأصله الجارحة، وهو في الحلف مستعار من اليد، اعتباراً بما يفعله المعاهد، والمحالف، وغيره، كما قال -تعالى-: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القلم: ٣٩]، وجعلها ابن منظور جامعة للفظتين: الحلف، والقسم، فقال: "واليمين: الحلف، والقسم، فيقال: حلف، كما يقال أقسم، غير أن مادة: حلف تعطي معنى الكثرة في اليمين، بدليل المبالغة بها حين ذكرت في القرآن ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ٧]، ولذا كثرت أيضاً في أيمان المنافقين، كما في قوله - تعالى-: ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ [التوبة: ١٠٧]، ولكن اليمين أوكد من الحلف؛ لما فيها من معنى المعاهدة بوضع اليد في اليد عند التعاهد والتعاقد على أمر معين ... ولذا كانت مستعارة من الجارحة، وهي أصل في القسم الدال على توكيد الأمر وتثبيته، وإنما سمي اليمين بالقسم لأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر، الذي يخبر به الإنسان إما مثبتاً للشيء، وإما نافياً، ولما كان الخبر يدخله الصدق والكذب، احتاج المخبر إلى طريق به يتوصل إلى ترجيح جانب الصدق، وذلك هو الحلف، ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به، ومكذب به سمو الحلف بالقسم، وبنوا تلك الصيغة على أفعل، فقالوا: أقسم فلان يقسم إقساماً، وأرادوا أنه أكد القسم الذي اختاره، وأحال الصدق إلى القسم

(١) المفردات، (قسم).

(٢) أساس البلاغة، (قسم).

(٣) لسان العرب، (قسم).

الذي اختاره بواسطة الحلف واليمين^(١)، ذكره الرازي منسوباً إلى الواحدي في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

والمهم أن جملة القسم اختلفوا فيها أخيرية هي أم إنشائية؟ مع أن الغرض منها التوكيد على أي حال، والقسم في كلام الله له دلالة ستبين خلال دراسة الشواهد إن شاء الله، فهي تؤكد الجملة التي بعدها، وعدّه النحاة جملة خبرية، فقال أبو علي: "وكذلك القسم لا يكون مستقلاً دون أن تضم إليه المقسم عليه والمقسم؛ لأنه ضرب من الخبر يذكر ليؤكد به غيره"^(٢).

ولكنه في اللفظ خبر يتضمن معنى الإنشاء غير الطلبي كما سيأتي في كلام البلاغيين.

قال بعض علماء اللغة: إنه إنشائية، نسب البغدادي ذلك إلى ابن جني، قال: القسم جملة إنشائية يؤكد بها جملة أخرى، وأغرب ابن عصفور في قوله في شرح الجمل الصغير: والقسم كل جملة أكد بها جملة أخرى كالتأنيدي، والصواب: أن جملة القسم إنشائية لا خبرية، كما قال ابن جني وغيره..^(٣).

وقسم البلاغيون الإنشاء قسمين؛ أحدهما: الإنشاء الطلبي، وهو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب؛ لامتناع طلب الحاصل.

وأنواعه خمسة؛ هي: الاستفهام، والتمني، والأمر، والنهي، والنداء، وسبق الحديث عنها، ودراسة ما جاء منها في فواتح السور.

والثاني: الإنشاء غير الطلبي، وهو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، ويكون بالقسم، والتعجب، والرجاء، وصيغ المدح، والذم، والعقود، وهذا الضرب أغفله البلاغيون، معللين ذلك بقلة المباحث البلاغية المتعلقة به، كما أن

(١) تفسير الرازي، ١٣/١١٧.

(٢) المسائل العسكرية في النحو العربي، أبو علي النحوي، تحقيق: د. علي جابر المنصوري، دار الثقافة للنشر، ٢٠٠٢م، ص ٧١.

(٣) خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٤، ١٩٩٧م، ١٠/٤٧.

كثيرًا من الإنشاءات غير الطلبية في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء، وقال السكاكي: إن السابق في الاعتبار هو الخبر والطلب^(١).

فاهتمام البلاغيين بدراسة الإنشاء الطلبي راجع إلى كثرة الاعتبارات المتعلقة به، كأن يفيد كل أسلوب منه معانٍ أخرى مع بقاء الأسلوب كما هو، استفهام أو أمر أو نهي أو نداء بخلاف القسم مثلاً والتعجب ونحوهما من أساليب الإنشاء غير الطلبي، فيرون أنه لا تتوارد عليه معانٍ أخرى، فالقسم هو القسم، والتعجب هو التعجب، والمدح، والذم كذلك... وهذا لا يعني أنه ليس لهذه الأساليب (الإنشاء غير الطلبي) مواقع يلتفت إليها في البحث عن المزية؛ لأن كل عناصر الكلام، وصوره مجال للبحث والدرس، واستخراج الدلالة في سياقه ونصه ..

وهذا يحتاج إلى دقة المطابقة، والبحث عما وراءها من لطف الاعتبار وخفي الدلالة، فمثلاً صور القسم وما تتطوي عليه من إتقان في توزيعها على مواقعها المختلفة، وخاصة في القرآن الكريم لها موقعها الجدير بها في الدلالة البلاغية^(٢)، وتتولد منها معانٍ خفية، يوحي بها السياق، ويتطلبها المقام ..

فالقسم مثلاً -الذي هو أصل هذا المبحث- لا يخلو من معانٍ، مع بقاء معنى القسم فيه، كالتعظيم، وإثبات الوحدانية لمن ينكرها، وهدف الكتاب من أنه الذكر، وأنه المجيد، وأنه الكتاب المبين، وكذلك تتجلى دلالة القسم بالذاريات، والحاملات، والجاريات، والمقسمات، على أن وعد الله حق، والقسم بالطور وتوابعه في السورة، على أن عذاب الله حتم واقع، والقسم بالنجم على أن ما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحي يوحى... وكذا القسم بالقلم وما يسطرون على براءة النبي -صلى الله عليه وسلم- من كل ما يدعون، والقسم بالمرسلات من الرياح كالقسم بالذاريات والحاملات قبل ذلك على أن وعد الله حق، ثم النازعات الذين ينزعون أرواح العصاة بقوة.. والشمس على اختلاف أحوالها، والنجوم، والكواكب، والجبال، والبحار، والنفوس، والقبور، كل على حالة معينة، والسماء عند انشقاقها، وذكر بروجها،

(١) مفتاح العلوم، ١٦٤، وينظر المطول، ٢٢٤.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، نشر مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٨٧م، ص ١٩٢.

ونجومها، وكذا الفجر، والبلد، والشمس، والليل، والضحى على ترتيبها، والقسم بالتين، والقسم بالعاديات، والعصر، على أنه الدهر، أو عصر النبوة، أو وقت صلاتها، فهذه أقسام جليلة بأمر عظمة، ومخلوقات جديرة بذلك.

إذا تركنا البحث فيها لأنها -كما قالوا- لا تستدعي مطلوباً، وليس وراءها مباحث تتعلق بها، نكون قد أهملنا باباً من البلاغة جد عظيم؛ لأنها لم تقتصر دلالتها على إثبات المقسم عليه، وتأكيده فقط، بل قد يكون المقصود كما قال الرازي: التنبيه على شرف ذواتها، وكمال حقائقها، وجلالة درجاتها .. وكمال مراتبها ..^(١)، فكل قسم في القرآن وراءه دلالة يجدها المقام، ويجليها السياق، والداعي لها لفت الانتباه، وقوة الإصغاء، وسرعة الإقبال؛ لأن الذي يحلف هو الجليل -سبحانه وتعالى-.

وقد لخص الرازي المسألة في أن القسم بالحروف (يقصد المقطعة) نحو: يس، وق، وص، و ن، كان لإثبات الرسالة، والقرآن الذي أقسم به ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿يس: ١﴾؛ ليكون في القسم الإشارة واقعة إلى البرهان، وفي باقي السور كان المقسم عليه: الحشر، والجزء، وما يتعلق به؛ لكون إنكارهم في ذلك خارجاً عن الحد، وعدم استيفاء ذلك في صورة القسم بالحروف؛ أي المقطعة ... وفي سورتين أقسم لإثبات صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- وكونه رسولاً في إحداهما بأمر واحد، وهو قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ مَاضِلٌ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿النجم: ١﴾، وفي الثانية بأمرين، وهو قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿١﴾﴾ [الضحى: ١].

ومن ذلك يتبين أن القسم من الله -تعالى- وهو أصدق القائلين كما قال -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، و﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾

(١) ينظر: تفسيره، ١١٨/٢٦.

(٢) السابق، ١٩٤/٢٨ باختصار وتصرف.

[النساء: ١٢٢]، **غرضه** بيان مكانة المقسم به، والمقسم عليه، وبه يكون كمال الحجة والبرهان.

وفيه يقول الفراهي: "القسم نفسه لا يليق بجلال الله ربنا، فإن الذي يحلف على قوله يهين نفسه، ويضع موضع من لا معول على حديثه، وقد جاء في القرآن: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، فجعل الحلف من خلال المذمومة... والقسم في القرآن جاء على أمور مهمة كالمعاد، والتوحيد، والرسالة، ولا فائدة فيها للقسم، لا للمنكر بها؛ فإنه يطلب الدليل والبرهان، والقسم ليس فيه شيء منه، ولا للمؤمن، فإنه قد آمن بها... والقسم يكون بالذي عظم وجلّ، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"، فنهى عن القسم بغير الله، فكيف يليق بجلال ربنا أن يقسم بالمخلوق، ولا سيما بأشياء مثل: التين والزيتون؟

وبعد ذلك ناقش ما قال فخر الدين الرازي من أن القسم لإثبات التوحيد... وغير ذلك مما سبق عرضه فيها وضعفه، ولم يرتض منه إلا القول بأن هذه طريقة من طرق العرب في كلامهم، وأن القرآن نزل بلغتهم، وارتضاها على مضض أيضاً. وناقش ابن القيم في تقسيماته في كتابه التبيان في أقسام القرآن، وضعفه أيضاً، ثم أجاب هو عن السر في أن الله -عز وجل- يقسم فقال:

إن الإنسان ربما يحتاج إلى تأكيد خبر، أو وعد منه، حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب، وتطمئن به نفسه، ولا سيما في الأمور العظيمة، كالمعاهدة بين قوم وقوم، أو ملك ورعيته، أو بين أفراد الناس؛ ليكونوا على ثقة بعضهم من بعض، فيعلموا الموافق من المخالف، والولي من العدو، وهذه الحاجة التمدنية دعوتهم إلى طرق، وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد، فكان ذلك أصل قسمهم... والقسم أصله للقطع، والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة..^(١).

(١) إمعان في أقسام القرآن، ص ٢-٢٠ باختصار كثير.

وقفة تأمل:

وعند تأمل كلامه نجد أنه لم يخرج عن كلام من هاجمه، وضعّف رأيه، ودحض حجته، وهو فخر الدين الرازي، فقد أجاب بمثل ما أجاب به من إرادة التأكيد ودفع شبه القوم، وأن القرآن نزل بلغة العرب، وكانت هذه من طرائقهم، وأن القسم لإثبات مكانة المقسم به، وتأكيد المقسم عليه ... وهكذا نقضه، ودار في فلك كلامه ... ومن ثم تبين لماذا يقسم ربنا، وهو أصدق القائلين سبحانه وتعالى، وخلاصته: إتمام الحجة، وكمال البرهان..

المبحث الأول

جمال دلالة القسم دراسة تطبيقية

بعد هذا البيان النظري الذي وضَعته ليكون مرآة تضع عين القارئ على أهمية هذا الباب الذي ذكره البلاغيون لمأمًا في الإنشاء غير الطلبي ورأوا أنه خبر نقل إلى معنى الإنشاء، بعد ذلك نأتي إلى دراسة الشواهد التي تحقق أن للقسم دلالة، وأنه يُفيد من تتبع سياقه والوقوف على جوابه أمورًا كان التعبير بها مشوقًا إليها، ودافعًا للبحث عنها ..

وستكون دراسة ذلك مجموعات متشابهة؛ ليسهل تحديد أساليب القسم، ومعرفة طرق تنوعها، فتكون على النحو الآتي إجمالًا، يتبعه التفصيل من خلال عرض الشواهد واستخراج دلالتها.

- ١- القسم بالحروف المقطعة التي وقع بعدها قسم بالقرآن، أو الكتاب، والقلم، وهي سور: يس، ص، الزخرف، والدخان، فكل منها قسم بالكتاب المبين بعد حروف (حم)، و(ق والقرآن المجيد) و (ن والقلم).
 - ٢- القسم بمجموع السلامة المؤنثة، وجاء في خمس سور، هي: الصافات، الذاريات، المرسلات، النازعات، العاديات.
 - ٣- القسم بغير ذلك، في سور: الطور، النجم، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العصر.
 - ٤- فعل القسم المسبوق ب(لا) في فاتحة سورتين فقط، هما: القيامة، والبلد.
- وهذا أساس ستقوم عليه دراسة الشواهد تنظيمًا للعمل، وتحديدًا لمسار البحث كما سبق.

أولاً: دلالة القسم بالقرآن، والكتاب، والقلم:

- قال -تعالى-: ﴿يَسَّ ۝١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ [يس: ١]، وقال -
- تعالى-: ﴿صَّ ۝ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿ [ص: ١-٢]، وقال -

تعالى-: ﴿حَمَّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿﴾
[الزخرف: ١-٣].

وقال -تعالى-: ﴿حَمَّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿﴾ [الدخان: ١-٣].

وقال -تعالى-: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ بَلْ مَحْبُوبٌ أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿﴾ [ق: ١-٢].

وقال -تعالى-: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٌ ﴿﴾ [ن: ١].

نجد هذه الفواتح تشتمل على وصف القرآن والكتاب، فجاء وصف القرآن في ثلاثة شواهد؛ منها: يس، ص، ق، ولكنه اختلف في كل واحد منها عن الآخر، ففي يس وصفه بالحكيم، وفي ص وصفه بذى الذكر، وفي ق وصفه بالمجيد، ووراء ذلك دلالات تجليها دراستها.

والكتاب وصفه في الشاهدين بوصف واحد، وهو (المبين).

وأخرها (ن والقلم وما يسطرون) قسم بالقلم وما يكتبونه به.

وعند دراستها نبدأ بما جاء فيها القسم بالقرآن، على اختلاف وصفه، وهي ثلاثة: (يس)، و(ص)، و(ق)؛ ليتمكن بيان أسباب اختلاف وصف القرآن في ثلاثتها

...

عود على بدء في الحروف المقطعة:

سبق الحديث عنها في موضعها من هذا البحث، ولكن من باب التذكير بما سبق أوقف فقط مع إشارات دقيقة فيما يتعلق بما كان منها على حرفين في شاهدنا؛ لأنها تنوعت، منها ما جاء على حرفين، وعلى حرف، فما جاء على حرفين ما استهلته به السور وبعده قسم: (يس)، و(حم) وما جاء على حرف واحد ثلاثة فقط في القرآن كله، وهي: (ص)، (ق)، (ن).

وسبق أن بعض العلماء يجعلها أسماء للسورة، تُعرف كل سورة بما افتتحت به منها، وبعضهم يجعلها من القَسَم، وبعضهم يرى أنها تنبيهات، وبعضهم يجعلها حروفاً مأخوذة من صفات الله -تعالى- يجتمع بها في المفتاح الواحد صفات كثيرة؛ كقول ابن عباس في: (كهيعص) إن الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق، وقال الكلبي هو: كتاب كافٍ، هادٍ، حكيم، عالم، صادق، ولكل مذهب من هذه المذاهب وجه حسن .. فإن كانت أسماء للسور فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء، وتفرق بينها، فإذا قال القائل: قرأت (المص) أو قرأت (ص) أو (ن) دلّ بذلك على ما قرأ ... وإن كان يقع بعضها لعدة سور مثل (حم) و(الم) فإن الفصل أن تقول: حم السجدة، وألم البقرة .. فتدل بالإضافات .. وإن كانت قسماً، فيجوز أن يكون الله -عز وجل- أقسم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها .. وربما أقسم بحروف المعجم لشرفها وفضلها، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وأصول كلام الأمم، وبها يتعارفون، ويذكرون الله ويوحدون، وقد أقسم الله في كتابه بالفجر، والطور، والعصر، والتين والزيتون، وهما جبلان ينبتان التين والزيتون .. وأقسم بالقلم إعظاماً لما يسطرون، ووقع القسم بها في أكثر السور على القرآن نحو: (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) كأنه قال: وحروف المعجم لهو الكتاب لا ريب فيه .. و(يس والقرآن الحكيم) و(ص والقرآن ذي الذكر) و(ق والقرآن المجيد) كله أقسام ..^(١).

وأفضل ما يقال في السور التي تتحدث عن الكتاب والقرآن إنها: قسم، ومجيء الواو يدل على ذلك، فشهدنا هنا قوله -تعالى-: ﴿يَس ۝١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ [يس: ١-٥].

فهي (يس) اسم، وتسميتها حروف كما في حديث ابن مسعود: "لا أقول "الم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف .."، مجاز لكونه اسماً للحرف،

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٩٨١م، ٢٩٩-٣٠٢ بقدر من الاختصار والتصريف.

وإطلاق أحد المتلازمين على الآخر مجاز مشهور، وهي أسماء معربة، وإنما سكنت
سكون سائر الأسماء؛ حيث لا يمسه إعراب لفقد موجبه، والدليل على أن سكونها
وقف لا بناء: أنها لو بنيت لحذي بها حذو: كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: صاد،
قاف، نون، مجموع فيها بين الساكنين، وتحتل الرفع على الابتداء، والنصب، والجر
لصحة القسم بها، وهذا على رأي من جعلها أسماء للسور، ومن لم يجعلها أسماء
للسور لم يتصور أن يكون لها محل على حد قوله، كما لا محل للجمل المبتدأة،
والمفردات المعدودة... (١).

وعلى ذلك فـ(يس) حرفان من الأحرف المقطعة لا محل لهما من الإعراب،
والواو: حرف جر وقسم، ولم يقع القسم في أوائل السور أو مقدماتها إلا بها...
و(القرآن) مجرور بالواو متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم بالقرآن فهو مقسم به،
وهي جملة لا محل لها ابتدائية، و(الحكيم) صفة للقرآن، وجملة (إنك لمن المرسلين)
لا محل لها من الإعراب، جواب القسم (٢).

وقال مكي بن أبي طالب القيسي: حق النون الساكنة من هجاء (يس) إذا
وصلت كلامك أن تدغم في الواو بعدها أبدًا، وقد قرأ جماعة بإظهار النون، من
(يس) و(نون والقلم) والعلة في ذلك: أن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور حقها
أن يوقف على كل حرف منها؛ لأنها ليست بخبر لما قبلها، ولا يخبر عنها، ولا
يعطف بعضها على بعض كالعدد، فحقها الوقف والسكوت عليها، ولذلك لم تُعرب،
فوجب إظهار النون عند الواو؛ لأنها موقوفة غير متصلة بما بعدها، هذا أصلها،
ومن أدغم أجراها مجرى المتصل، والإظهار أولى بها... (٣).

تبين من ذلك أن هذه الحروف المقطعة فيها معنى القسم، وأكد ذلك فيها ما
جاء بعدها من قسم صريح بالقرآن على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرسل من
ربه ..

(١) تفسير الرازي، ٢/٢-١٣ باختصار.

(٢) ينظر: المجتبي من مشكل إعراب القرآن الكريم، د. أحمد الخراط وغيره، من كتب الإعراب، ١٢.

(٣) مشكل إعراب القرآن، ٢/٥٩٨.

ويصلح أن تكون تنبيهاً تقدم على القسم؛ لبيان أهمية المقسم به، وعظم منزلة المقسم عليه؛ ويحقق ذلك أن السورة تقصد إثبات الرسالة وبيان أهميتها، وأن الغرض الأسمى منها هو الإنذار، كما قال -سبحانه-: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦]، فمقتضى التنبيه هنا ظاهر أيضًا.

ويقول البقاعي: "مقصودها: إثبات الرسالة التي هي روح الوجود، المفاض فيه من جهة الملك، وقلب جميع الحقائق، وبها قوامها للمرسل بها الذي هو خالصة المرسلين، الذين هم قلب الموجودات كلها، ذوات، ومعادن، إلى أهل مكة أم القرى، وقلب الأرض، وهم قريش قلب العرب، الذين هم قلب الناس، بصلاحتهم صلاح كلهم، وبفسادهم فسادهم، فلذلك كان من حولها جميع أهل الأرض"^(١).

هذا المقصود الأعظم الذي نص عليه البقاعي يتضمن ما في الفاتحة بهذين الحرفين من شدة اللفت والتنبيه، وبعث الحركة في نفوس طبعت على غير ما جاء به القرآن، وعلى عكس ما يندرهم به النبي العدنان، فرسالته جاءت تقلب الحقائق، وتوقظ الضمائر، وتأمروهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتحل لهم الطيبات، وتحرم عليهم الخبائث ... فإذا قلنا إن (يس) حرفاً تنبيه، فليس المقصود به تنبيه النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال بعض العلماء .. لأنه كان متنبهاً على كل حال، وكان مهموماً بالدعوة التي فرغها الله لها، وحال بينه وبين تعليم الشعر؛ لئلا يلتبس عليهم، وخاصة أن هذا مما كان مسيطراً على عقول كثير منهم، ولكن هذا التنبيه للقوم، ثم يأتي بعده القسم فترقى ثائرتهم، وتشرئب عيونهم، وتجول وتصول أفكارهم، ثم يثبت لهم القرآن بهذه الطريقة من طرق التحقيق والتوثيق أنه بني مخاطباً لهم على قدر عقولهم، وبطريقة بيانهم، وهي القسم التي كانوا يستوثقون بها في أمورهم ومهامهم، ويقدم على هذا القسم ما يلفت وجدانهم ويحرك ثائرتهم.

ولذلك يقول بعض العلماء: "وما تنفك هذه الفواتح من عوامل الاستغراب، ولا يخلق الاستغراب إلا الاهتمام، ولا يثير الاهتمام إلا التنبيه، ولن ينبه الناس، ويقرع

(١) مصادد النظر، ٢/٢٨٨.

أسماعهم صوت أجل وقعًا من هذه الحروف المقطعة الأزلية التي همستها السماء في أذن الأرض" (١).

خلاصة القول في دلالة القسم بالقرآن على أن النبي مرسل للإنذار:

وبناء على ذلك فيتجلى جمال الدلالة في اقتلاع الشك من قلوبهم وغرس مبادئ الحق في نفوسهم الذي بسببه تتغير عقائدهم، وتتبدل أحوالهم من عبادة المخلوقين، أو المصنوعين من قبلهم كالأصنام، إلى عبادة الواحد القهار، والقسم عامل مؤثر في البناء الجديد لنفوس غاصت في الباطل، وجبلت على عبادة الأصنام، فلا تُقتلع القوة إلا بالقوة، أو كما قيل: لا يفل الحديد إلا الحديد، فحديدهم أصنام وتصرفاتهم لم ينزل بها شرع من الرحمن، وقلب حقائقهم التي زعموها حقائق ليس بالأمر الهين، فكان القسم من أرسخ العوامل التي تحرك فيهم فطرة الحق التي فطرهم الله عليها، وتتزع منهم منازع الضلال والشك المهيمنة على قولهم، لذلك كان الحديث بعد الفواتح المستهلة بالحروف المقطعة، عن القرآن، أو الكتاب، أو التنزيل، إلا ثلاث سور هي (كهيعص) و(الم أحسب الناس) و(الم غلبت الروم)، وعلل ذلك فخر الدين الرازي ذلك بأن: الحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن، أو التنزيل، أو الكتاب، بالحروف، هي: أن القرآن عظيم، والإنزال له ثقل، والكتاب له عبء كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]، وكل سورة أولها ذكر القرآن، والكتاب، والتنزيل، قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه، لا يقال: كل سورة قرآن، واستماعه استماع القرآن، سواء كان فيها ذكر القرآن لفظًا، أو لم يكن، فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه" (٢).

فقد تآزر التنبيه مع القسم الصريح بعده في الدلالة على أن الرسول رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله، وأنه على الدين الحق، والطريق القويم، وأنه جاء لإنذار الغافلين، وهداية الضالين، وتنبيه المعرضين، وحالتهم التي جبلت على غير الحق،

(١) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٣م، ص٢٤٦.

(٢) تفسيره، ج٢٥/٢٧.

وطبعت عليه شديدة، وقوية، وعنيدة، تتناسب مع بنائهم على ذلك، ولا سيما وقد وجدوا آباءهم عليه، فكان الموقف جديرًا بالتوثيق، ومحتاجًا إلى هذا التحقيق.

وأسلوب القسم من أعلى أساليب التأكيد، ولا يطابق هذا المقام سواه، ولا يحقق الغرض المطلوب إلا القسم بالقرآن الموصوف هنا بالحكمة المأخوذة من الإصلاح، والمنع من الانفلات، والصرف عن الضلال.

وهي كما قال الراغب: "إصابة الحق بالعلم والعقل، وأنها من الله: -عز وجل- معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات، والقرآن تضمنها في كل ما جاء به"^(١).

والرسول -صلى الله عليه وسلم- أمر أن يدعو بها كما قال -تعالى-: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ومن ثم، هياً التنبيه بالحروف المقطعة للقسم؛ ليتناسب مع قوة الموقف، وعلاج الأمور بأحد أساليب القوة والتوكيد، وعلى اعتبار أن الحروف المقطعة (قسم) يستقيم فيها الغرض أيضاً، وبنائها على ما بنيت له لتحريك الشعور، والتشويق للوصول إلى المطلوب، وهذا ما حققه القسم في قوله -تعالى-: ﴿يَسَّ ١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿ [يس: ١-٦]

دلالة القسم بالقرآن على شقاق وغرور الكفار:

وكذلك جاء القسم بالقرآن مقدماً عليه حرف واحد من الحروف المقطعة في قوله -تعالى-: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿ [ص: ١-٢].

وذكر ابن القيم وغيره في السور المستهله بالحروف المفردة نحو (ص)، (ق)، (ن)، أن السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، ونذكر منه هنا ما يتعلق بقوله -تعالى-: (ص)، يقول: "وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي -صلى الله عليه

(١) المفردات، (حكم)، بقدر من التصرف.

وسلم - وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم، ثم اختصاص الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصاص الملائة الأعلى في العلم، وهو الدرجات، والكفارات، ثم مخاصمة إبليس، واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيًا في شأن بنيه، وحلفه ليغيونهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير (ص) وسورة (ق) غيرها، وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم^(١).

هذه نظرة جيدة، إلا انها صوتية ظاهرية فقط، ولا بد من التأمل في دقائق المعاني التي استدعت أن يكون هذا مفتاح السورة، وأول معنى فيها أنها أيضًا قائمة على الإنذار، وكأنها امتداد لخط سورة (يس)، وسورة (الصافات) قبلها، ويرجع الأمر في تحديد معالمها كلها إلى مقصد السورة الذي يجمل سر القسم بها، وهو إنذار هؤلاء المتكبرين المتجبرين في الضلال كما وصفهم القرآن الكريم فيما أقسم عليه به، فقد أقسم بالقرآن الذي يدعوهم إلى توحيد الله على أنهم "في عزة وشقاق"، أي أنهم في غلبة ومنعة وتكبر يمنعهم عن اتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والذي أظهر هذه الحالة التي حكاها القرآن عنهم، هو سبب نزوله، فقد ذكر الواحدي .. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "مرض أبو طالب فجاأت قريش وجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وعند رأس أبي طالب مجلس رجل [أي مكان يكفي رجلا واحدا]، فقام أبو جهل كي يمنعه ذلك، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: يا عم، إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب، وتؤدي إليهم الجزية بها العجم، قال: كلمة واحدة؟ قال: ما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا؟ قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، حتى بلغ قوله -تعالى-: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخْرَةَ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْنَلُ﴾^(٢).

فسبب النزول بين غرورهم وغطرستهم عن سماع الحق، أو مجرد الإذعان له، ومنعهم من الاستجابة لدعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجعلهم في شقاق من

(١) بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، ١٧٤/٣.

(٢) أسباب النزول، ٢٠٦.

أمرهم، فحقق القرآن ذلك، وأقسم عليه بأمرين؛ أولهما: (ص) على القول بأن الحروف المقطعة، وخاصة المفردة (قسم) ومعنى القسم جليّ فيها هنا، أي أن الله يقسم لهم بالحروف التي نزل بها هذا القرآن، ثم يقسم بالقرآن على طريقة العام بعد الخاص، وكما ذكر ابن القيم أن هذه السورة اشتملت على خصومات الكفار مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنكار ما يدعوهم إليه بقولهم: ﴿أَجْعَلُ اللَّاهُتَةَ إِلَٰهًا وَّوَحْدًا﴾ ؟ وكذلك ما في السورة من اختصاصات أخرى في قصة داود، وتخاصم أهل النار .. ونحو ذلك - كما سبق - جعل السورة تسمى بـ(ص)، وتسمى بداود أيضًا، كما ذكره السيوطي في الإتيان ..، ولكن اسمها (ص) هو المصطلح عليه، وهو الموافق لما فيها من موضوعات، وخاصة الخصومات.

نخلص من هذا إلى أن جواب القسم هو قوله -تعالى-: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وفيه اختلاف كثير جمعه الزركشي، فقال: واختلف في جواب القسم في ﴿صَّ وَالْفُرَّانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فقال الزجاج: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٤]، واستبعده الكسائي، وقال: الفراء: قد تأخر كثيرا وجدت بينهما قصص مختلفة، فلا يستقيم ذلك في العربية، وقيل: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [ص: ٣]، ومعناه: لكم أهلكنا، وما بينهما اعتراض، وحذفت اللام لطول الكلام، وقال الأخفش: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ﴾ [ص: ١٤]، والمعتزض بينهما قصة واحدة، وعن قتادة ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]، مثل ﴿ق وَالْفُرَّانِ الْمَجِيدِ﴾ [بل مجبوا] [ق: ١-٢]، وقال صاحب النظم في هذا القول: معنى "بل" توكيد الأمر بعده، فصار مثل "أن" الشديدة تثبت ما بعدها، وإن كان لها معنى آخر في نفي خبر متقدم، كأنه قال: إن الذين كفروا في عزة وشقاق، وقال أبو القاسم الزجاجي: إن النحويين قالوا: إن "بل" تقع في جواب القسم، كمل تقع "إن" لأن المراد بها توكيد الخبر، وذلك في "ص والقرآن" ... الآية، وفي "ق والقرآن" ... الآية، وهذا من طريق الاعتبار، ويصلح أن يكون بمعنى "إن" لأنه سائغ في كلامهم، أو يكون "بل" جوابًا للقسم، لكن لما كانت متضمنة رفع خبر، وإتيان خبر بعده كانت تؤكد من سائر التوكيدات، فحسن وضعها موضع "إن"، وقيل:

الجواب محذوف، أي: والقرآن المجيد، ما الأمر كما يقول هؤلاء، أو الحق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-^(١)، أي ليس الأمر كما يقولون ..

والذي أراه راجحاً في هذا الجواب هو قوله -تعالى-: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأنه هو الذي يتناسب مع سبب نزول هذه الآيات التي تحكي تكبرهم وإصرارهم وشقاقهم، وهذا واقع، ويؤيده ما ذكره الزجاجي في حروف المعاني من أن (بل) تحاكي (إن) في وقوعها جواباً للقسم، وجاء التعبير بها دون (إن) لأنه أوكد؛ أي أشد تأكيد في هذه الحالة؛ وذلك لبقاء معنى الإضراب فيها؛ لأنهم أضربوا -من جهة المعنى- عن طلب النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ .. فجاء التعبير بها حكاية لواقعهم من جهات متنوعة، دل عليها نص القسم وجوابه، والسياق الذي جاءت عليه كثير من المواقف في السورة من: تحذير الحق لهم، وإنذاره إياهم في قوله -تعالى-: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَىٰ حِينٍ مِّنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وفيه تذكير لهم بحالة من كانوا أمثالهم، ولما جاءهم العذاب استغاثوا، ولكن: ولات أي ليس الحين حين فرار أو خلاص .. وكذلك حكاية الحق عن الأقسام السابقة فيه إنذار شديد لهم، وذلك قوله -تعالى-: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُّوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۗ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: ١٢-١٤]، وغير ذلك من الشواهد الدالة على إنذارهم بما يتناسب مع غرورهم وجحودهم المكشوف في قولهم الذي حكاه القرآن ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلِّغْهُمْ فِي شَكِّكَ مِنْ ذِكْرِي ۗ بَلِّغْ لِمَا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ [ص: ٨].

فقد تآزر السياق مع دلالة القسم في إبراز تكبرهم وجحودهم وعنادهم وعدم قبولهم الحق، وعدم تخوفهم من الإنذار الذي ليس بعده إلا العقاب، الذي قال فيه

(١) البرهان في علوم القرآن، ١٩٣/٣، وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ٣١٩/٤، ومعاني القرآن للفراء، ٣٩٧/٢، ومعاني القرآن للأخفش، تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ٤٩٢/٢، وينظر: حروف المعاني للزجاج، تحقيق: د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرياض، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٥.

ربنا: ﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾، ومن ثم تحقق أن لأساليب الإنشاء غير الطلبي خصائص يشع بها الأسلوب، ويحققها المقام الذي ورد فيه، والسياق الذي يحكي معانيه. وجمال دلالة السياق يتلخص في دلالة النص الذي جمع بين القسم وجوابه، وشهادة السياق عليه.

دلالة القسم بالقرآن على تعجب الكفار من الإنذار:

وعلى شاكلة هذا القسم، الذي مضى في سورة(ص) يجري القسم في سورة(ق) قال -تعالى-: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١-٢]، يلاحظ بداية أن هذا الوصف (المجيد) للقرآن الكريم، لم يرد إلا في هذه الآية، وقوله -تعالى-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢٢].

وقد ورد في هذه السورة أيضًا وصف لله عز وجل في قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [١٤-١٥]، فالغفور، والودود، وذو العرش المجيد كلها أخبار...

وعليه ف(المجيد) صفة للقرآن تارة، وصفة لله عز وجل أخرى، والقرآن كلام الله، ووصفه هنا بوصف قائله، كما قال بعض العلماء والإسناد فيه مجازي، كما في القرآن الحكيم، أو لأن من علم معانيه، وعمل بما فيه يمجد عند الله -تعالى- وعند الناس^(١).

والفرق بين الوصف هنا ب(المجيد) وفي الشاهد السابق ب(ذي الذكر) وذلك لأن حالتهم في سورة ص تحكي أنهم يزعمون أنهم في عزة ومنعة، وفيها حكي القرآن عنهم "أنزل عليه الذكر من بيننا"؟ فعبر بقوله -تعالى-: "ذي الذكر" ليبين له أن الشرف به، وأن العزة في الإذعان له؛ لأن الذكر هنا بمعنى الشرف والرفعة، فمن آمن به كان شرفًا له في الدارين، كما قال -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي شرفكم، وكما قال -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

(١) الجدول في إعراب القرآن، ٢٦/٢٩٩.

[الزخرف: ٤٤]، وأيضًا القرآن شريف في نفسه؛ لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره^(١)، بالإضافة إلى أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس، فهو ذكر كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر: ٩]، وفيه ذكر آلاء الله ومواعظه، والدليل على ذلك أنه في سورة (ص) ذكّرهم بمصير أمم كثيرة قبلهم أعرضوا فحق عليهم العقاب.

أما في سورة (ق) فقال -تعالى-: "ق والقرآن المجيد"، فأقسم بالقرآن ونعته بالمجيد، ويقول الراغب: "فوصفه بالمجيد؛ لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية، وعلى هذا وصفه بالكريم في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وعلى نحوه قوله -تعالى-: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾، وقوله: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾، فوصفه بذلك لسعة فيضه وكثرة جوده^(٢)، وقيل: الكريم الرفيع القدر، وقيل: الكثير مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة، وقيل: الشريف^(٣).

والمعاني التي بنيت عليها السورة توافق تلك المعاني بما فيها من الغزارة، والعلو، والشرف، وما شابه ذلك، كقوله -تعالى-: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩-١٠] ... ونحو ذلك مما جمعه ابن القيم، قال فيه: والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول، ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقديم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب، والقرون، والتتقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبُسُوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول، والمحاورة، وسر آخر وهو: أن كل معاني السورة مناسبة لما في حرف القاف

(١) تفسير القرطبي، ١٤٤/١٥، وتفسير الرازي، ٣٦٥/٢٦.

(٢) المفردات، (مجد).

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للنيسابوري، دار إحياء التراث، ٩٣/٩.

من الشدة والجهر والعلو والانفتاح^(١)، لو لم يكن إلا ذلك لكفى تناسبًا مع المقصود من السياق.

فذكر (ق) يتناسق مع هذه المعاني التي جمعتها السورة، ووصف القرآن بالمجيد يدل على رفعة كل معنى، وقدّر كل قول .. ومن ثم جاء التعبير في (ص) بـ(ذي الذكر) وفي (ق) بـ(المجيد).

والقسم في حرف (ق) أقرب من أي معنى آخر كما سبق في (ص)، ودلالته على القسم معنوية تتأكد بعده بالقسم الصريح "والقرآن المجيد" والإنذار القوي، والوعيد الشديد، والترهيب جزاء إنكارها قدرة الله معان جديدة بأن يقسم على حدوثها بالقرآن المجيد؛ لأنه الجامع لمعالمها.

ويقول البقاعي: مقصودها: تصديق النبي -صلى الله عليه وسلم- في الرسالة التي معظمها الإنذار ... وأحسن من هذا أن يقال: مقصودها: الدلالة على إحاطة القدرة التي هي نتيجة ما ختمت به الحجرات من إحاطة العلم لبيان أنه لا بد من البعث ليوم الوعيد ..^(٢)

وعلى أي القولين فالأمر رفيع القدر عالي المنزلة، شريف في معناه ترغيبًا وترهيبًا، ومن ثم استحق أن يكون القسم الصريح بالقرآن الموصوف بالمجيد، ودلالة الرفعة هنا بادية جلية لا شك فيها، والجواب كما سبق في (ص)، وهو: قوله - تعالى -: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أقسم الحق على أن هذا واقع منهم، وسبق بيان ذلك في شاهد سورة (ص)، ويضاف إليه قول ابن فارس: وقال قوم: تكون "بل" بمعنى "إن" في قوله جل ثناؤه: ﴿صَّ وَالْقُرْءَانَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، معناه: إن الذين كفروا، قالوا: وذلك أن القسم لا بد له من جواب ...^(٣)، وجملة الجواب تتمثل في استبعادهم، وتعجبهم من أن جاءهم

(١) بدائع الفوائد، ١٧٤/٣.

(٢) ينظر: نظم الدر، ٢٤٣/٧.

(٣) الصاحبى، تحقيق: السيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص ٢٠٩.

منذر منهم يعرفون صدقه، ولكن بعض العلماء يرى أن جواب القسم محذوف، وأن حذفه يؤدي ما لا يؤديه نكره، وذلك لتذهب النفس في تقديره كل طريق ممكن في المقام ... يدل عليه الإضراب في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، والإضراب الانتقالي يقتضي كلاماً منتقلاً منه، والقسم بدون جواب لا يعتبر كلاماً تاماً، فتعين أن يقدر السامع جواباً تتم به الفائدة، يدل عليه الكلام، وكأن الله يقول لرسوله -صلى الله عليه وسلم- لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر .. (١).

وحذف الجواب في مثل هذا يتناسب مع بيان النحاة بأن القسم بالحروف مستعمل في بيان العرب بحذف الجواب؛ لأن هذه الحروف وصلة بين القسم والمقسم به، يقول سيبويه: "وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر، وأكثرها الواو، ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به، ثم التاء، ولا تدخل إلا في واحد، وذلك قولك: والله لأفعلن، وبالله لأفعلن، وتالله لأكيدن أصنامكم، وقال الخليل: إنما تجيء بهذه الحروف؛ لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به، كما تضيف مررت به بالباء، إلا أن الفعل يجيء مضمراً في هذا الباب، يعني أنك إذا قلت: والله لأفعلن، وبالله لأفعلن، فقد أضمرت: أحلف، وأقسم، وما أشبهه، مما لا يتعدى إلا بحرف القسم في الكلام، إنما تجيء به للتوكيد، وهو وحده لا معنى له، لو قلت: والله وسكت، أو بالله، ووقفت، لم يكن لذلك معنى حتى تقسم على أمر من الأمور ... (٢).

وعلى قولهم هذا يكون جواب القسم محذوفاً، ولكن دلت عليه الجملة المذكورة بعده، وهي قوله -تعالى-: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، واستمر إنكارهم وتمادت غفلتهم فقالوا: ﴿أَءَاذَنَا وَكُنَّا نُرَآبِئَٰذِكَ رَجْعًا بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، فالحق يثبت رسوله -صلى الله عليه وسلم- بأن هذا هو الذي يجري في قلوبهم، وتضمرة نفوسهم، ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

(١) ينظر: تفسير الرازي، ١٤٩/٢٨، والتحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، ٢٦/٢٧٧.

(٢) الكتاب لسيبويه، ٤٩٧/٣، والأصول في النحو لابن السراج، تحقيق: عبد الحميد الفتلي، مؤسسة

الرسالة، لبنان، ٤٢١/١.

فجمال الدلالة مع الذكر لا يتغير مع الحذف؛ لدلالة المذكور على المحذوف، بل إن دلالة القسم وجوابه تتمثل في إظهار قدرة الله - عز وجل - وإنداز الكافرين على قدر إنكارهم، وتسليية الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى لا يحزن من واقعهم، والسياق في السورة يشهد بقدرة الله، وشرف رسوله، وعلو قدر الحق - سبحانه - وطلاقة قدرته ترغيباً وترهيباً.

دلالة القسم بـ "ن والقلم وما يسطرون":

أما قوله - تعالى -: ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١] -

[٢].

فالكلام على الحروف المقطعة سبق بيانه، ويغلب القول بأنها قسم على الحروف المقطعة، ومنها "ن والقلم وما يسطرون"، يقول أبو بكر الصولي: "فأقسم في القرآن بما خلق من ذلك؛ أعني القرآن، وما يكتب به من حبر ومداد، وما يكتب فيه من سفر، وقرطاس، وأشباههما ... وإنما هو افتتاح السور بهذه الأحرف التي السورة منها غير خارجة عنها، يقول عز وجل: وهذا القرآن بهذه الحروف العربية ليس فيها لسان أعجمي، ولا حرف من حروف العجم؛ ليبطل بهذا ما زعمه الكفار أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعلمه بشر، كما حكاه - سبحانه - في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١) [النحل: ١٠٣].

والقسم بالشيء دليل على مكانته، ورفعة شأنه، والتتويه بذكره، وبيان مهمته، يقول الجاحظ: فلذلك وضع الله - عز وجل - القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم، كما أقسم بما يخط بالقلم، إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يشق غباره، ولا يجري في حلبته، ولا

(١) أدب الكاتب، صححه وعلق عليه محمد الأثري، المطبعة السلفية بمصر، ص ٢٢.

يتكلف بُعد غايته ..^(١)، والإقسام لا يقع منه -سبحانه- إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع، كالشمس والقمر والنجوم ونحوها، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها، ورفع قدرها ..

ومن هذا ونحوه تجلت دلالة القسم بالقلم بما فيها من بيان قيمته، وأثره، وبيان مهمته، وشرفه، ورفعته، وأن القسم به أمر جليل، وشرف عظيم، وقد جعل الله -عز وجل- الكتاب وصفًا للملائكة المقربين، فقال -تعالى-: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كُنِينًا ۝ يَكْتُبُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١]، فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء -عليهم السلام- وإنما منَعها النبي معجزة، قد بين الله -تعالى- سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ أَكْتَبَهَا﴾ [الفرقان ٥].^(٢)

وفاصلة السورة أقيمت على هذا الحرف (ن) غالبًا، وذلك -بلا ريب- يترك وقعًا كبيرًا في نفس القارئ يشعره بدرجة القسم، وعظم مكانته، والعلماء يقولون: "الفاصلة في القرآن لها مزية مهمة ترتبط بما قبلها من الكلام، بحيث تتحدر على الأسماع انحيازًا، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدًا لها، فهي -الفواصل- حروف متشاكلة في المقاطع توجب حُسن إفهام المعاني، أو يقع بها إفهام المعاني، وعلاقة الفاصلة بما قبلها تنحصر في أربعة أشياء، هي: التمكين، والتوشيح، والتصدير، والإيغال، فالتمكين يبين أنها متمكنة في مكانها مستقرة في قرارها ليست قلقة ولا نابية، متعلقًا معناها بمعنى السياق.

والتصدير هو: أن يتقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو أثنائها، وذلك جلي في شاهدنا، فقد جاءت (ن) في صدر السورة، وجاء المقسم به مبنياً عليها.

(١) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ١٩٩٦م، ٤٨/١ بقدر من الاختصار.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، تحقيق: يوسف الطويل، دار الفكر، دمشق، ط١،

والتوشيح أن يوجد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة، وهو ما يسمى في البلاغة بالإرصاد... والإيغال هو: أن ترد الآية بمعنى تام، وتكون الفاصلة زائدة في ذلك المعنى، كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (١) [النمل: ٨٠]، ولما قامت السورة على تأنيب الكفار وترهيبهم، وبيان عاقبة ما يفعلونه بالإضافة إلى تثبيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، جاء جواب القسم نافية ما يقولون: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [ن: ٤-١].

و(ن) كما سبق حرف من الحروف المقطعة لا محل له من الإعراب، والقلم مقسم به متعلق بفعل محذوف تقديره (أقسم)، و(وما يسطرون) مقسم به أيضاً، فالوا حرف عطف وما موصولة أو مصدرية، أقسم بالقلم ثم بما يسطره الملائكة، وقوله سبحانه: (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) جواب القسم، فما نافية تعمل عمل ليس، والباء زائدة في خبرها، وهو (مجنون) والجار (بنعمة) متعلق بحال من الضمير في (مجنون) والتقدير ما أنت مجنوناً متلبساً بالنعمة.. أي انتفى عنك الجنون بسبب إناعام ربك عليك بالنبوة وغيرها... (٢).

فجواب القسم، وما عطف عليه فيه دلالة على تكريم النبي -صلى الله عليه وسلم- ورفعة شأنه وتثبيت قلبه، وحته على عدم طاعة هؤلاء المكذبين، ولكثرة قسمهم الذي حكاه ربنا في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ لمبالغتهم في ذلك استهلت السورة بهذا الحرف (ن) باعتباره قسماً بجنس ما بني عليه الكتاب الكريم، والقلم الذي هو منوه بذكره لبيان مهمته في الارتقاء، والرفعة، وسمو الخلق...، وكذا أقسم بما يكتبه الكاتبون؛ لما فيه من حقائق تدل على رفعة..، والقسم بهذا، وذاك يطابق مبالغتهم في اتهام النبي -صلى الله عليه وسلم- بما لا يليق، وذلك يُعدّ منهم دحساً

(١) ينظر: الفاصلة القرآنية، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ بالرياض، ص ٣٩-٤٠، والبرهان

للزركشي، ١/٩٥-٩٧، وبيدع القرآن لابن أبي الأصعب المصري، ص ٩٢.

(٢) ينظر: المجتبي من مشكل إعراب القرآن، د. أحمد الخراط، نشر: مجمع الملك فهد، ج ١/١٣٤٦،

وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش، ٨/٢٣.

لنعم الله، وافتراء عليه، فجاء الجواب ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾، تكذيباً لهم، وتشنيعاً عليهم، ودحضاً لفكرهم، وفضحاً لأمرهم بهذا القرآن الذي يتلى إلى يوم يبعثون، فيكون شاهداً عليهم.

وقيل: إن جملة (بنعمة ربك) اعتراضية؛ أي أن أصل الكلام: ما أنت بمجنون، كما تقول: أنت -بحمد الله- فاضل، وهذا الاعتراض له دلالة تتمثل في الرد على قريش الذين رموه بذلك، فنفاه عنه، وأخبره بأنه على خلق عظيم، تشريعاً له ومدحاً، وقال علي -رضي الله عنه-: الخلق العظيم أدب القرآن، وعبر عنه ابن عباس بالدين والشرع، وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، وإن كان ظاهر الآية أن مقصدهم أنه لا يحصل ما يقول .. وإنما مدحه الله -تعالى- بكرم السجية، وبراعة القريحة، والملكة الجميلة .. ومنه قوله -عليه السلام-: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .. فكان ظاهره مع الخلق بالأدب، -مهما قالوا- وحسن التعامل، وباطنه مع الحق.. (١).

ويهدي ذلك كله إلى إجمال الدلالة في جملة القسم، وتفصيلها في جملة جواب القسم -كما تبين- وشمولها: للرفعة، الشرف، والمواساة بإظهار النعمة، وحسن الخلق، واتصال الأجر والزيادة، مقابل دحر الكفار وانقطاعهم، وقصص السورة تؤكد ذلك بضرب المثل بالتبطر على نعم الله وافترائهم عليه ..

ثانياً: القسم بجموع السلامة المؤنثة:

جاء ذلك في خمس سور؛ هي: الصافات، والذاريات، والمرسلات، والنازعات، والعاديات، منها سورتان خالصتان في القسم بأوصاف الملائكة وهما: الصافات، والنازعات، وسورتان بالرياح والملائكة وهما: الذاريات، والمرسلات، وسورة بالعاديات. وسبق بيان أن الحق سبحانه وتعالى لا يقسم بشيء إلا وكان وراء هذا القسم دلالة، كما تبين من **الشواهد السابقة**، ولم يقسم لنزع شك، أو إرضاء خلق، بل جاء قسمه -سبحانه- بأشياء كثيرة لبيان مكانتها وعظم منزلتها، والتنبيه على ذلك،

(١) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت،

والتشويق لمعرفة المقسم عليه، وتأكيده حدوثه، من باب مخاطبة العرب بما جرى على لسانهم، وكان العرف به سائداً بينهم؛ إذا أرادوا تأكيد أمر، أو توثيق عهد...، أو نحو ذلك، وما يأتي بعد جواب القسم يكون دليلاً على إثباته؛ حيث إن من بيانهم ثبوت الشيء بثبوت دليله، والقرآن نزل بلسان عربي مبين ..

وهنا في هذه السور الخمس يقول الرازي: "في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف -أي المقطعة- كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة، وهي: الوجدانية، والرسالة، والحشر، وهي التي يتم بها الإيمان، ثم إنه -تعالى- لم يقسم لإثبات الوجدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور، وهي (والصافات) حيث قال فيها: (إن إلهكم لوحد) وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) على سبيل الإنكار، وكانوا يبالغون في الشرك، لكنهم في تضاعيف أقوالهم، وتصاريف أحوالهم، كانوا يصرحون بالتوحيد، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقال -تعالى-: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلم يبالغوا في الحقيقة في إنكار المطلوب الأول، فاكتفى بالبرهان، ولم يكثر من الأيمان...، وأقسم الله -تعالى- بمجموع السلامة المؤنثة في سور خمس، ولم يقسم بمجموع السلامة المذكورة أصلاً، فلم يقل: والصالحين من عبادي ولا المقربين .. إلى غير ذلك، مع أن المذكر أشرف؛ وذلك لأن: جموع السلامة بالواو والنون في الأمر الغالب لمن يعقل...^(١)، والمقصود هنا الجماعات، ولم يقصد قصرها على الذكور العقلاء؛ لذا قال والصافات .. إلى آخره.

وعلى ذلك فسورة الصافات هي السورة الوحيدة من السور الخمس التي جاء القسم فيها لتأكيد الوجدانية، رغم أنهم مع جحودهم وإنكارهم يقرون بذلك في أمورهم الطبيعية، عند سؤالهم مثلاً ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ولكن كان الشرك غالباً على طبعهم، فأقسم الله -عز وجل- بالملائكة في سورتين على اختلاف الصفات الأولى الصافات، والثانية النازعات، قال -تعالى-

(١) تفسيره، ح٢٨/١٩٤.

: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ [الصافات: ١-٥]. روي عن قتادة قال: "قَسَمٌ، أقسم
الله بخلق، ثم خلق، ثم خلق، والصافات: الملائكة الصافات لربها في السماء، وهي
جمع صافّة، فالصافات جمع الجمع، وبذلك جاء تأويل أهل التأويل، فهم الملائكة في
السماء يُصَفُّون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة، قال رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- "ألا تُصفون كما تُصف الملائكة عند ربهم؟" قلنا: وكيف تُصف الملائكة عند
ربهم؟ قال: "يُتَمَّون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف" (١).

وقيل: هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمر الله -تعالى- بما
يريد، وقيل: هي الطيور، بدليل قوله -تعالى-: ﴿الطَّيْرُ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقِضْنَ﴾ [الملك:
١٩]، والزاجرات، قال بعضهم: يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقال قتادة:
هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبائح، والتاليات: هم الملائكة يتلون ذكر الله -
عز وجل- وقيل: هم جماعة قراء القرآن... (٢).

(١) أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.
الدر المنثور، ٧/٧٧.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ١٩/٤٩٣، والبيهقي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، ط٤، ١٩٩٧م،
٧/٣٣.

ترجيح وتعليل:

ويُرجَّح من كل الأقوال التي ذكرتها وغيرها مما ذكره المفسرون: أن القسم في كل ذلك بالملائكة على اختلاف أحوالها: صافات، وزاجرات، وتاليات؛ لبيان منزلتهم عند ربهم، وسبق أن القسم يكون بما له رفعة ومكانة في أمر من الأمور، ولأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، أقسم بهم على اختلاف أحوالهم؛ لتأكيد الوجدانية والرد على المنكرين ذلك بقولهم: ﴿أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؟

والدلالة المستنبطة من القسم بالملائكة أنهم أكثر المخلوقات توحيدًا لله، وطاعة لله، وتسبيحًا لله، وتقديسًا لله؛ أي كملوا في كل صفة من هذه الصفات؛ لذلك عدَّ هنا بعض أوصافهم التي يجب أن يقتدي بها البشر، ومن ثم نبه الله على عظم منزلتهم، ورفعتهم، وشرف أفعالهم، وعبر في الثلاثة بالمفعول المطلق "صفا"، و"زجرا"، و"ذكرا" ليدل على طلاقة ذلك عندهم، وأنه يجب أن يكون البشر كذلك، ولذلك رتب هذه الصفات باعتبار علو مكانتها، فبينها ترق من الأعلى؛ لأن الاصطفاف في السماء كاصطفاف الناس في الصلاة دليل على الترابط، والترابط يتآلف مع إقرارهم بوجدانية الله - عز وجل - وكما قال ابن القيم: وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله، فالتاليات آياته، واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى: الملائكة، فإن الأقسام كالدليل، والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان، وأقسم - سبحانه - بذلك على توحيد ربوبيته، وإلهيته، وقرر توحيد ربوبيته فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿﴾ من أعظم الأدلة على أنه إله واحد" (١).

فهنا ترابط في الدلالة على رفعة الشأن واستقرار الأمر، وتوحيد الرب المسبب عن الطاعة الخالصة، والأعمال الصادقة، وفي كل ذلك حثٌّ على إتقان القول وإخلاص العمل، فهي دعوة إلى الترابط والاعتصام بحبل الله، ولن يكن ذلك إلا

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٦٨.

بتوحيد الله رب العالمين؛ لذا كان التآزر بين طرفي الجملة: القسم والمقسم به جد غزير، وجاءت بعد جملة الجواب دلائل كثيرة محسوسة ومعقولة تدل على وحدانية الله وعظم قدرته، وكان أول دليل على طلاقة القدرة يتناسب مع الوحدانية من قوله - تعالى:- ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ [الصافات: ٥]، ورب السماوات بدل من (لواحد)، ثم تأتي الأدلة على ذلك، وأولها دليل محسوس يدل على باهر عظمته وعجيب قدرته، إحكامًا، وإبداعًا، وجمالًا تراه العيون، فقال -تعالى:- ﴿ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦]، فهذا محسوس نراه، أما قوله - تعالى:- ﴿ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٧]، فهذا من المعقول الذي لا تراه العيون، ولا يصفه الواصفون، فكان التآلف بين القسم، والمقسم عليه، والأدلة على المقسم عليه أبرز الدلالات التي يشعها السياق، إضافة إلى ما مضى من دلالة كل جملة، واجتماعها كلها في اسم السورة، ومعنى القسم بها ..

دلالة القسم بالنازعات، والفرق بينها وبين: الصافات:

السورة الثانية من السور التي أقسم الله فيها بصفات الملائكة سورة النازعات، أقسم الحق - سبحانه وتعالى - بالملائكة أيضًا، ولكن بأوصاف أخرى غير التي مضت، فقال -تعالى:- ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غُرُقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَبَّحًا ۝٣ فَالسَّيِّغَاتِ سَبَّحًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ أَيُّومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴾ [النازعات: ١-٩].

بداية، نلاحظ أنه في القسم السابق - (الصافات) كان القسم بثلاثة أوصاف لجماعات الملائكة، تم الربط بينها بالفاء لترتيب بعضها على بعض؛ لأن الاصطفاف: اعتصام وترابط يثمر الزجر عن كل ما لا يصلح كالقبايح ونحوها، أو تزجر السحاب، وتسوقه على اختلاف بينهم في المعنى .. ثم التاليات للذكر .. فالفاء رتبت الأولى فالأولى، والتقديم للاهتمام بالمقدم على النهج العربي الذي نزل القرآن بلسانه.

ولكن هنا جاءت الأوصاف خمسة، ثلاثة بالواو، وهي تفيد مطلق الجمع، ولا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، واثنان بالفاء، ومعناه أن الثانية منهما مرتبة على الأولى، فالتى عطفت بالواو جماعات من الملائكة اكتملت في كل صفة من هذه الصفات: النزع، والنشط، والسبح. والتي عطفت بالفاء تفرعت عنها، وهنا يلزم الترتيب، وليس مجرد الجمع فقط، والمعنى -كما سيأتي- يقتضي تقديم السابقات على المدبرات في المنزلة؛ لأن السابق في أمور الآخرة، فهي تسبق بالأرواح إلى ما أمر الله، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

أما المدبرات فهي التي كانت تدبر أمور الدنيا بإذن ربها، أو يدبرون أمر الله على الإطلاق، وسيتجلى من خلال أقوال العلماء فيها.

وقد جمع ابن القيم قدرًا منها، ثم ارتضى: أنه قسم بطوائف الملائكة، وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد .. وغرقا بمعنى الإغراق في النزع، وهو أن يجتذبه إلى آخره، وقيل: هي أنفس الكفار، تنزعها بشدة، والناشطات التي تنشطها؛ أي تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا؛ أي أخف له وأسرع، ويراد به أن الملائكة تنشط روح المؤمن فتزعها برفق؛ لأن النشط جذب برفق ولين، بخلاف النزع، والسابحات التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء، ويصلح أن يكون كناية عن السرعة والخفة في نزع أرواح المؤمنين، وكذا السابقات التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به، ولا تبطئ عنه ولا تتأخر، فالمدبرات أمور العباد التي أمر ربها بتدبيرها.

ومنهم من فسر السابقات بملائكة قبض الأرواح، يسبقون بأرواح الكفار إلى النار، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، والمدبرات: الملائكة الذين يدبرون أمر الله - تعالى - في أهل الأرض، وهم المقسمات أمرًا، فجبريل موكل بالرياح والجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأرواح، وإسرافيل ينزل بالأمر

عليهم، وقوم منهم موكلون بحفظ بني آدم، وآخرون بكتابة أعمالهم ... وعبر بـ(أمراً) دون (أموراً)؛ لأن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع ..(١).

دل ذلك على أهمية معرفة أحوال المقسم به، وأن مثل هذا لا يكفي أن يقال فيه إن القسم به يدل على شرفه، وعلو قدره، وعظيم منزلته، لا يكفي هذا، بل يتجلى منه التعريف بطوائف الملائكة، وأنهم ليسوا فقط مصطفين في طاعة الله وعبادته، وتقديسه، بل لهم مهام موكلون بها، وكل طائفة مجندة عند ربها لعمل معين، وتعريف الخلق بذلك فيه دلالة على الجد والنشاط، والسبق إلى الخير، والتحذير من المصير الذي ترونه مع أعمال الملائكة المعروضة حالتهم هنا للعمل، استكمالاً للمعروضة حالتهم في سورة الصافات وكانت للعبادة، ولما كانت للعبادة كان جواب القسم متناسقاً مع ذلك ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، ولما كان القسم هنا بأوصاف العمل استجابة لأمر الله حسب أحوال المخلوقين مؤمنهم وكافرهم كان جواب القسم الدلالة على البعث في قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ تَرُجُّمُ الرَّاحِفَةُ﴾^(٦) ﴿تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، والراجفة هي النفخة الأولى بما فيها من قوة، يتزلزل لها كل شيء، تتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية .. وكل هذا دليل على البعث.

لذلك قال بعض العلماء الجواب محذوف يدل عليه السياق، وتقديره: لتبعثن، وفيه دليل على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به، دون أن يراد به مقسماً عليه بعينه، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه، وإن لم يذكر لفظاً، ويرى البعض أن الإقسام بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته، وصفات كماله، فتأمله ... (٢).

فالمقسم به دل على المقسم عليه؛ لأنها كلها أمور تتعلق بالآخرة، وفي المقسم عليه دلالة على بيان حالة الكافر وحالة المؤمن عند نزح الروح، والسبق بها إلى جنة، أو إلى نار ... وفيه أيضاً إيقاظ وتنبيه لمكانة الفريقين، بالإضافة إلى التشويق

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ص ٨٥، وتفسير الرازي، ٢٩/٣١.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، ٨٧ بتصرف واختصار.

الذي تثيره أحوال المقسم به، فعندما يسمع الإنسان هذه الأوصاف: النازعات .. والناشطات، والسابحات، على استقلالها، والسابقات متفرعة على السابحات؛ لأن السباحة أدت إلى السبق، فعطف بالفاء، والمدبرات متفرعة عن السابقات، فالسابق أدى إلى أن يكون سبباً في تدبير ما أمر الله، عندما يسمع المؤمن ذلك، ويعقله، ينتبه لكل غفلة هو فيها، ويتسابق إلى الخيرات، وينزع عن المعاصي، والسيئات، ثم إنها إنذار للطاغين، وحجة عليهم يوم الدين ...

القسم بالرياح وإجمال الدلالة فيه:

كما أقسم الحق - سبحانه وتعالى - بصفات الملائكة في سورتين، هما: الصافات، والنازعات، كذلك أقسم بالرياح في سورتين مع وجود الملائكة في كل منهما أيضاً، ولكن البداية بالرياح، هما: الذاريات، والمرسلات، غير أنه - سبحانه - أقسم في الذاريات بأربع آخرها الملائكة، وفي المرسلات بخمس رابعها وخامسها الملائكة أيضاً، فاستوى أن يكون القسم بالرياح طبيعة كل منهما مع كثرة الاختلاف في الأقوال، أكتفى بالمتفق عليه منه لإبراز دلالة القسم ودلالة المقسم عليه، وأثرهما في بناء السورة ..

أولاً: دلالة القسم بالذاريات:

ففي الذاريات يقول - تبارك وتعالى ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ۝١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وُقُرًا ۝٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾ فَأَلْمَسْنَتهِمْ أَمْرًا ۝٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿ [الذاريات: ١-٦].

المقسم به هنا جاء متعددًا متنوعًا، أوله: الرياح، وثانيه: السحاب التي تحمل، وثالثه: السفن التي تجري، وأخره: الملائكة التي تقسم الأمور بإذن ربهم .. ولم تقف المعاني عند هذا الحد، بل ذكرت فيها أقوال كثيرة، إلا أنهم اتفقوا على أن: الذاريات هي الرياح، والحاملات وقرًا بمعنى السحاب؛ لحملها الماء، والوقر هو الحمل الثقيل، والجاريات يسرًا هي السفن تجري مسيرة.

وقيل: الجاريات يسرًا هي النجوم التي من فوق الغمام، و(يسرًا) أي مسخرة مذلة منقادة .. وسبب ذلك التفسير أنه انتقال من السافل إلى العالي؛ فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقه الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه^(١).

ولكن الذي يُرجح أنها السفن تجري في الماء جريًا سهلًا؛ لأنه الأنسب للسياق، وهو المعنى المجمع عليه من كثير من العلماء، وفيه حسن ترتيب؛ حيث أقسم

(١) معاني القرآن للفراء، ٨٢/٣، وينظر: التبيان في أقسام القرآن، ص ١٧٣.

بالذاريات تذرو الرياح، والحاملات التي هي السحب تحمل الماء، ويسوقها الله حيث يشاء، ويناسبها هنا ذكر السفن ليكون حمل الماء جواً وبحراً بإذن الله، فتتجلى آيات الله في كل زمان ومكان، وقد قال -تعالى-: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢]، كل هذا يؤكد أن الجاريات هنا هي السفن، وليست النجوم فوق الغمام كما يقول البعض، (والمقسمات أمرا) هم الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق، كما سبق.

فالقسم بهذه الأشياء على ترتيبها هذا له منافع عظيمة في الخير، ومضار كثيرة في الشر، وهذا يطابق حياة البشر، كما قال -تعالى-: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْيَاءِ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقد اجتمع في سياق واحد: الإرسال عن طريق الريح الحاصب (أي التي ترمي بالحصباء) والقاصف (أي التي تعصف عصفاً شديداً مهلكاً)، والإغراق بسبب الكفر، فقال -تعالى-: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [٦٨] أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٨-٦٩].

فالريح تأتي في القرآن غالباً للشر فتكون ﴿رِيحٌ فِيهَا صُرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: ٨١]، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وكذلك تكون في الخير: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقد اجتمع فيها الخير والشر في آية واحدة، قال -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

أما الرياح فلا تأتي إلا في الخير، وقد اجتمعت الرياح والسحاب والمطر الذي يحمله السحاب في آية واحدة تبشر بالخير، قال -تعالى-: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وهكذا يقسم ربنا بما يشاء على ما يشاء، فبيده الأمر كله، والقسم في سورة الذاريات جاء بأشياء دنيوية، تحدث بيننا نراها رأيا العين، قد تكون خيرا، وقد تكون عكس ذلك حسب أعمال البشر واختلاف عقائدهم، وتنوع أحوالهم، والملائكة توزع بأمره القسم بهذه بما تحمله من نعم، أو نقم على أن الدين واقع، أي يوم الجزاء آت لا ريب فيه، أي كما أنكم ترون هذه الأشياء، فإن يوم الجزاء كذلك ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦]، أي الذي توعدون لصادق.

يقول ابن قيم الجوزية: "وصف الوعد بكونه صادقا أبلغ من وصفه بكونه صدقا .. ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه، بل هو صادق في نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فوصف كلامه بأنه صادق، وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق، وليس ذلك مجاز ولا مخالف لمقتضى التركيب"^(١)

توضيح وتعليل:

والذي تعرفه البلاغة في مثل ذلك هو: إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول بعلاقة المفعولية؛ لأن كاتم بمعنى مكتوم، ونهار صائم، وليل قائم بإسناد الفعل إلى زمانه ومكانه، ودافق بمعنى مدفوق، ولكن ابن قيم لا يرى ذلك هنا، بل يرى أن الوعد في الآية صادق في نفسه، ولا حاجة إلى المجاز بالإسناد، الذي يسمى مجازاً عقلياً، ولا مانع من ذلك، فالحقيقة هنا أقرب، وتتناسب مع المعنى المراد، وهو صدق الوعد في وقوع الجزاء، ولذلك جاء الكلام مؤكداً في صدق الوعد، وحدوث البعث ..

(١) التبيان في أقسام القرآن، ١٧٧.

والدلالة البلاغية في كل ذلك تنبع من حقائق تحدث، أقسم الله - عز وجل - بها على يوم البعث بأنه واقع، ومن ثم تجلى أن: سياق القسم يحمل تفصيل ما يجمله معنى القسم .

والدلالة العظمى للقسم هنا هي بيان قدرة الله - تعالى - فيما أقسم به، وفيما أقسم عليه، وكل هذا متطابق لمقصود السورة الأعظم بما فيها من دلائل الإنذار، ترهيباً وترغيباً.

ويقول البقاعي: "مقصودها: الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحاً، وبشرت به تلويحاً، ولا سيما آخرها من: مصائب الدنيا، وعذاب الآخرة، واسمها الذاريات ظاهر في ذلك بملاحظة جواب القسم، فإنه مع القسم لشدة الارتباط كآلية الواحد وإن كان خمساً، والتعبير عن الرياح بالذاريات أتم إشارة إلى ذلك..."^(١).

فدلالة القسم تؤكد أن حياتهم دليل على بعثهم، ولكنهم لا يؤمنون، ولا يشعرون، ولا يفعلون، لذلك ختمت الأقسام بقوله - تعالى -: ﴿فَالْمُصَمَّتِ آمْرًا﴾ وسماهم المقسمات؛ لأنه هنا تحدث عن كل شيء بمهمته التي يؤديها، فلم يذكر الرياح، بل عبر عنها بـ"الذاريات"، والفعل (ذَرَّ) من قوله (ذروا) يدل على التفرق والانتشار على غير نظام ... وفي هذا دليل على البعث: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿ [القارعة: ٤، ٥]، وكذلك لم يذكر السحاب، بل عبر عنها بالحاملات، ولم يذكر السفن، بل عبر عنها بالجاريات، والكناية أبلغ من التصريح؛ لأنها إثبات الشيء بإثبات دليله، وهي - كما عرفها البلاغيون -: ذكر الشيء وإرادة لازم معناه، وهنا قال: فالمقسمات أمراً، وكل منها دليل على قدرته على الإحياء والإماتة والبعث، وهذا هو المعنى الأسمى للقسم بطرفيه المقسم به والمقسم عليه ..

ثانياً: دلالة القسم بالمرسلات:

هذه هي السورة الثانية التي أقسم ربنا فيها بالرياح، والملائكة قال -تعالى-:
﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا^(١) فَأَلْعَصْفَتِ عَصْفًا^(٢) وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا^(٣) فَأَلْفَرَقَتِ فَرَقًا^(٤) فَأَلْمَلَقَتِ ذِكْرًا^(٥) عُدْرًا
أَوْ نُذْرًا^(٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ^(٧)﴾ [المرسلات: ١-٧].

في سورة الذاريات كان العطف عليها بالفاء ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا^(١) فَأَلْحَمَلَتِ وُقُرًا^(٢) فَالْجَارِيَتِ يَسْرًا^(٣) فَأَلْمُقْسِمَتِ أَمْرًا^(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ^(٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَفْعٌ^(٦)﴾ [الذاريات: ١-٦].

وهنا توسط العطف بالواو بين العاصفات، والفارقات، وجاء جواب القسم "إنما توعدون لواقع" وكان في الذاريات: "إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع"، فهذه فروق دقيقة، ولكن لكل منها دلالة تبين جمال التعبير وسره البلاغي، ويحتاج البيان: الوقوف على المعاني أولاً؛ لمعرفة دلالة القسم، وجوابه، والسياق بعده.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى قول الله: (والمرسلات عرفاً) فقال بعضهم: معنى ذلك: والرياح المرسلات يتبع بعضها بعضاً، قالوا: والمرسلات: هي الرياح .. قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، وكذلك روي عن سفيان، وعن مجاهد، وقتادة .. وقال آخرون: بل معنى ذلك: والملائكة التي ترسل بالعرف .. وقيل هي: الرسل التي ترسل بالعرف، قالوا: فتأويل الكلام: والملائكة التي أرسلت بأوامر الله ونهيه، وذلك هو العرف، وقال بعضهم: عني بقوله: عرفاً: متتابعاً كعرف الفرس، كما قالت العرب: الناس إلى فلان عرف واحد، إذا توجهوا إليه فأكثروا ..^(١).

ولكن الذي يؤكد أنها الرياح: عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب، والتسبب، فكأنها أرسلت فعصفت، ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح، والأكثر على أنها الرياح ..^(٢).

(١) تفسير الطبري، ١١٢/٢٤ باختصار.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، ٩٠.

أما العاصفات فهي: الرياح الشديديات الهبوب السريعات الممرّ، والناشرات
 نشرا، اختلف فيها أهل التأويل، فقال بعضهم: عُنِي بالناشرات نشراً: الريح، قاله ابن
 مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، قالوا: هي الرياح تأتي بالمطر، ويدل على صحة
 قولهم، قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:
 ٥٧]، أي أنها تنتشر السحاب نشراً، وهو ضد الطي، وقال آخرون: هي المطر تنتشر
 الأرض أي تحييها ... وقال آخرون: هي الملائكة تنتشر الكتب ... ولم يخصص الله
 شيئاً من ذلك دون شيء، فالريح تنتشر السحاب، والمطر ينشر الأرض، والملائكة
 تنتشر الكتب، ولا دلالة من وجه يجب التسليم له على أن المراد من ذلك البعض دون
 البعض، فذلك على كل ما كان ناشراً، (فالفارقات فرقا) قال بعضهم: عُنِي بذلك
 الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل، وقال بعضهم: يعني القرآن .. والصواب من
 القول في ذلك: أن يقال: أقسم ربنا جل ثناؤه بالفارقات وهي الفاصلات بين الحق
 والباطل، ولم يخصص منهن بعضاً دون بعض، فلذلك قَسَمَ بكل فارقة بين الحق
 والباطل، ملكاً كان، أو قرأناً، أو غير ذلك، وقوله (فالمليقات ذكرًا) يقول: فالمبلغات
 وحي الله رسله، وهي الملائكة، إعدارًا من الله إلى خلقه، وإنذارًا منه لهم ...^(١).

دار الخلاف بين هذه الأصناف المقسم بها على أنها: الرياح، أو الملائكة،
 ولكن السياق يوضح، ويعضد أن المرسلات هي: الرياح؛ لذكر العاصفات بعدها
 فهي المناسبة لها، ولا بد أن يكون التناسب بين كل الصفات المذكورة، وخاصة لو
 وُجد العطف، وأيضاً يُرجح أن تكون الناشرات هي: الرياح، وقد سبق ما يدعم ذلك،
 ولكن جاءت (والناشرات) بالواو دون الفاء؛ لبيان أنها لا يشترط أن تُرتَّب على
 العاصفات، فقد تأتي في أي وقت يريد الله، فتنتشر السحاب بالخير، أو بغيره، وهي
 الوحيدة التي جاءت بالواو في سياق ما أقسم الله -عز وجل- به هنا.

وفيه يقول ابن قيم الجوزية: لكن ها هنا أمر ينبغي التقطن له، وهو أنه -
 سبحانه- جعل الأقسام في هذه السورة نوعين، وفصل أحدهما عن الآخر، وجعل
 العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب، فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل

(١) تفسير الطبري، ١٢٥/٢٤ .. باختصار.

الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات، والملقيات، بالفاء، فأوهم هذا أن: الفارقات، والملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات، وقد اختلف في الفارقات، والأكثرين على أنهم الملائكة، ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق، وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول، ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إذاراً أو إنذاراً^(١).

ولكن يُفَضَّل أن يكون القسم هنا بما يراه الناس ظاهراً لإثبات غيب ينكرونه، وهو البعث، بالإضافة إلى التنزيل الذي نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- بواسطة الملائكة.

وبناء على ذلك فالقسم هنا بالرياح التي تنشر على الناس خيراً، أو سوءاً، بمثابة العقاب لهم، كما سبق في عقاب المنكرين من الأمم السابقة الذين أهلكهم الله بالريح، وكذلك في القرآن أن الرياح مبشرات، وبشرًا، ولواقح... ونحوه مما هو في الخير وجزيل العطاء، فيحتج الله عليهم بقدرته بما هو واقع بينهم ترغيباً، وترهيباً، فالمرسلات، والعاصفات نوع مترابط، والفارقات والملقيات نوع آخر مترابط وهم: الملائكة، وجاءت بين هؤلاء وأولئك (والناشرات) التي تنشر ما قبلها من خير أو سوء، أما الملائكة فكل منهم موكل بمهمة يعلمها اللطيف الخبير ..

ويأتي جواب القسم مؤكداً ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ لأنهم أنكروا الوعد، والسياق بعده يذكر علامات هذا اليوم، ويتكرر قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في السورة عشر مرات، وكل واحدة تدل على إنكارهم وعدا، وتذرههم بالهلاك، فقد أنكروا يوم الفصل، ولم يعتبروا بهلاك من كان قبلهم ﴿أَلَمْ يَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات ١٦-١٩]... وإنكارهم قدرة الله ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، وهكذا في كل مرة تجد لهم إنكاراً، يأتي بعده الوعيد بالهلاك...

(١) التبيان في أقسام القرآن، ٩١.

ومن ثم برزت جماليات الدلالة في معنى القسم الذي استهلته به السورة إلى عظم مكانة من أقسم الله - عز وجل - بهم من: الرياح التي تدمر كل شيء بأمر ربها، أو تكون بشارة بالخير، والملائكة التي تؤدي مهامها التي كلفها الله بها، والرسول الذين تلقوا منهم بلاغ الله إلى خلقه، ومع هذه الدلالات نجد المناسبة بين اسم السورة، ومقصودها الأعظم الذي يدل على ثواب الطائع وعقاب العاصي، مع تحقيق وعد الله في سياق الوعد، والوعيد، والترغيب، والترهيب، وتتكامل كل سورة مع سابقتها فيما جاءت له، وهكذا يؤدي كل أسلوب دلالاته متآزرة مع مقامه وسياقه.

دلالة القسم بالعاديات:

ويبقى من القسم بجموع السلامة المؤنثة: القسم بالعاديات، مما يؤكد تقدير مكانتها في الغزوات، والحروب، وأنها عُدَّة من عدد الحرب؛ لذا أقسم ربنا بها لما لها من مكانة؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ صَبِيحًا ۝١﴾ ﴿فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا ۝٢﴾ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣﴾ ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا ۝٤﴾ ﴿فَوْسَطْنَهُ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١-١٠].

أقسم الحق سبحانه وتعالى بثلاثة أشياء من واد واحد، على ثلاثة أشياء مصدرها واحد أيضا، والثلاثة الأول من نعم الله على الإنسان في حله وترحاله، وحروبه ودفاعه... والثلاثة الثانية تبين حقيقة الإنسان تجاه نعم الله - عز وجل -، وذلك في القرآن كثير كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ...﴾ [الإسراء: ٨٣].

وكما قال تعالى: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَآسَاءٍ تَمُوتُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وفي الزخرف: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

وعلى ذلك فالقسم بها؛ لبيان أنها نعمة عظيمة النفع، كثيرة الفوائد ومقصود السورة يجمع فيها القسم والمقسم به معا، وهذا يؤكد التناسب بين طرفي الكلام "المقسم به والمقسم عليه"، ولذلك يقول الفيروز أبادي: معظم مقصود السورة: بيان شرف الغزاة في سبيل الرحمن، وذكر كفران الإنسان، والخبر عن اطلاع الملك الديان على الإسرار، والإعلان، وذمّ محبة ما هو فان....^(١).

ولكن اختلف الصحابة في العاديات، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما -: هي إبل الحاج تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى ... وحُجَّتهم في ذلك: أن السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد، ولا خيل تجاهد، وإنما أقسم بما يعرفونه، ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة فهي عاديات، والضبح، والضبع مدّ الناقة ضبعها في السير.... قالوا: فهي تعدو ضبحا، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض، فتثير النقع-وهو الغبار- بعُدوها فيتوسط جُمعا، وهي المزدلفة...

وقال ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج: هي: خيل الغزاة؛ لأن المعروف في اللغة: أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى: والعاديات ضابحة، فيكون: ضبحاً مصدراً على الأول، وحالاً على الثاني، وقالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحاً، وهو صوت يُسمع في أجوافها من شدة العدو.

وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ والإيراء لا يكون إلا للحافر لصلابته، أما الخف ففيه لين واسترخاء.... والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لأخفاف الإبل... والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعُدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في به عائد على المكان الذي تعدو فيه،

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣٦١/١.

قالوا: وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو؛ لكثرة حركتها، واضطرابها في ذلك المكان.... (١).

وقفة تأمل:

ولما كان المقسم عليه بيان الطبع الغالب في الإنسان وهو جحود النعمة ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وفي القرآن سياقات كثيرة تدل على ذلك، لما كان ذلك كذلك، فإنه يترجح أن المقصود بالعاديات هنا: الخيل؛ لأن فيها الدلالة المقصودة من القسم، وهو بيان نعم الله على الإنسان، وعزة هذه النعم، وبيان شرفها، والخيل نعمة في السلم، وفي الحرب، وقد وردت في سياق القرآن في الأمر بالإعداد للقاء العدو، كما وردت في سياق الحديث عن النعم، أما الإبل فجاء الحديث عنها في سياق الأكل مرة، وسياق الاستدلال على قدرة الله أخرى في سياق الحديث عن ينكرون البعث...

وبيان ذلك: جاءت الخيل في الأمر بالإعداد للعدو في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفي سياق النعم على الإنسان في قوله تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ... ﴾ [آل عمران: ١٤]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

أما الإبل فجاءت في ساق المحرم، والمحلل من الأكل في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ... ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وكذا جاءت في الإنكار على من ينكرون البعث: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ٤٩، ٥٠ باختصار، وينظر: تفسير الطبري ٥٥٧/٢٤، وتفسير البغوي ٢٩٥/٥، والرازي ٦٣/٣٢

وليس المقصود بالعاديات خيلا بعينها؛ لأنه ليس المراد بكون الإنسان كنودًا لربه، أمورًا بعينها، أو نعمًا بعينها، فالقسم بالخيال على عمومها؛ لبيان أنها من نعم الله على الإنسان في كل أمور حياته، بها يحارب، وبها يباهي ويفاخر، والله - عز وجل - يقسم بما يعرفه الإنسان من نعم، أنه - أي: الإنسان - كنود لربه.

وكما يقول ابن قيم: "الإبل أخص بحمل الأثقال، والخيال أخص بنصرة الرجال"^(١) فالخير فيها أنسب لجواب القسم المعطوف الذي يقول فيه: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فدلالة القسم قائمة على التذكير بالنعم، الدافع للطاعة لله، والامتثال له، ولرسوله - صلى الله عليه وسلم -، لذلك فصل الأحوال في المقسم به، والمقسم عليه وهذا التفصيل فيه دلالة على التعريف بدقائق النعم ليقابلها الإنسان بالإقرار بالنعم، والسياق بعده يوحي بأنه ليس كل إنسان، بل الإنسان الذي يجحد نعم ربه، فلا يحمده على القليل، ولا يشكره على الكثير، والدليل على ذلك قوله تعالى بعد جواب القسم: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ؟ فلا يكون التعجب من حاله هكذا، والتهديد بما سيكون إليه مآله، إلا إذا كان منكرًا للبعث، وذلك لا يكون إلا للكافر، ولكن جاء التعبير بالإنسان على إطلاقه، كما يقول البقاعي.. على اعتبار عدّ المخلص على قلته عدماً"^(٢).

ولذلك جاء التعبير "لكنود" بصيغة المبالغة؛ لكثرة من ينسى النعم، ويعدها في الحياة أمرًا طبيعيًا لا يحتاج إلى تقييد، وإقرار بها، ومن ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ مع أنه في غفلة من أمره، وربما ختم الله على قلبه، ولكن ذلك من باب قول ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وأما قوله تعالى في نهاية المقسم عليه: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فقيل: الشديد هنا بمعنى البخل، ولو لم يكن كنودًا بمعنى كفورًا، وجحودًا لما كان بخيلًا بالعطاء الذي يرقى به عند ربه فلا ينطبق عليه هذا.

(١) التبيان ٥٠.

(٢) نظم الدرر ٥١٠/٨.

ومن ثم نلاحظ أن تقييد العاديات بهذه الحال ﴿صَبَحًا﴾ بمعنى صوت أنفاسها الذي يكاد ينقطع من شدة العناء، يقابله في المقسم عليه قوله: ﴿لَكُنُودٌ﴾ بما فيها من مبالغة تدل على القطع، وبلوغ الحد الأقصى في ذلك، ولذلك يقول: ابن فارس: "الكاف والنون والذال أصل صحيح واحد يدل على القطع، يقال: كند الحبل يكُنْده كندا، والكنود: الكفور للنعمة... ويكند الشكر أي: يقطعه.."^(١).

ولما انتشر كفره وجحوده، وصار معروفاً بفعله، كأن كنوده انقذح، فأخرج ما فيه فكان ذلك مقابلاً لقوة قدح الخيل للحصى من شدة عدوها، ولذا وصف بـ (الموريات) والإيراء: إخراج النار، فأيراء النار كإيراء فعل الجاحد المنكر ... لذلك كانت الصفة الثانية مقابلة للمقسم عليه الثاني.

أما جملة القسم الثالثة ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ فبينها وبين جملة جواب القسم الثالثة توأمة أيضاً؛ لأن الإغارة فيها ركض، وفيها شدة، ولا سيما إذا كانت صباحاً، فتكون قوية شديدة مؤثرة، وذلك هو المقابل في جملة الجواب الثالثة ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فالأولى شدة في الخير، والمقابل لها شدة في البخل.... ولذلك قدم الجار والمجرور ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ على عامله ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لأنه أساس الكنود، وبذلك تكون الجملة الثالثة في جواب القسم نتيجة للجملة الأولى، وما بينهما دليل عليهما.

وجمال الدلالات في البيان يتجلى بفهم هذه المعاني، ومعرفة وجوه الربط بينها، وبها يكون التذكير بالنعم، وبيان منزلتها، وشرح مهامها، وتفصيل أعظم أحوالها دليلاً على التعجب من إنكارها، وهذا التعجب ناجم من قوة الإنكار المتولدة من الاستفهام المذكور عقب نهاية الجواب تعليقا عليه، وتحذيراً من استمرار كنوده.

وفي النهاية نجد أن الحق سبحانه وتعالى أقسم بعظيم على عظيم؛ لتعظم الدلالة، وتقوى المناسبة بين المقسم به، والمقسم عليه، والسياق الذي سيطر على جملة النص، كما أن الإطلاق في جمل القسم "ضبجا، قدحا، صبجا..." يوحي

(١) مقاييس اللغة (كند).

بطلاقة النعم، والتتوين على حرف الدال في جمل الجواب يوحي بقوة الكنود التي
أثمرت حب المال، والبخل به... وهكذا تتواءم دلالة القسم بجملتيه.

المبحث الثاني

دلالة القسم بالمفردات المتنوعة:

من الأنواع التي استهلكت بها سور القرآن بالقسم بعد القسم بجموع السلامة
المؤنثة - كما سبق - يأتي القسم بالمفردات المتنوعة التي تشمل: الطور - والكتاب
المسطور - والبيت المعمور - والسقف المرفوع - والبحر المسجور - والنجم - والسماء
ذات البروج - واليوم الموعود - والشاهد والمشهود - والسماء والطارق - والنجم الثاقب -
والفجر - وليال عشر - والشفع - والوتر - والليل إذا يسر - والشمس - وضحاها -
والقمر - والنهار - والليل - والسماء - والأرض - والنفس - والليل - والنهار - والخلق -
والضحى - والليل - والتين - والزيتون - والجبل - والبلد الأمين - والعصر .

فهذه أربع وثلاثون مفردة تكرر فيها القسم بالطور في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾
في سورة الطور، و﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ في سورة التين... وتكرر فيها النجم بذكره مقيداً في
قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ وبقوله: ﴿وَالطَّارِقِ﴾ الموضحة بـ ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ في
سورة الطارق، وتكرر فيها ﴿وَاللَّيْلِ﴾ أربع مرات في سور: الفجر، جمعا ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾
والليل في نفس السورة، وكذا في أول سورة: الليل، وفي سورة: والضحى، وكل مقسم
به في مكانه وسياقه في نفس السورة التي ورد فيها؛ لتوضيح دلالة القسم به هنالك
وكذلك تكررت السماء بأوصاف متنوعة؛ فمنها: والسقف المرفوع ومنها: والسماء ذات
البروج، والسماء فقط بعطف الطارق عليها، ولكل وصف دلالة يجليها المقام،
والسياق، وسأقف عندها مجليا جمال دلالة القسم بها، وعلاقته بالمقسم عليه.

أولاً: القسم بالطور ودلالته:

ذكر الزركشي في البرهان، وبعده السيوطي في الإتيان عند بيان الفواتح العشرة التي استهلت بها السور: وسورة أقسم فيها بالثربة التي هي منها وهي: "والطور" (١) على اعتبار أنه من تربة الأرض، وطينتها.

ولكن جاء القسم بعده في نفس السورة بأربعة أنواع، أقسم ربنا بها هي: الكتاب المسطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور، فهل ثم علاقة بينها؟

قال تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ١-٧].

الفرق بين القسم بالجموع والقسم بالمفردات:

قبل أن أقف مع القسم بالطور، وما عطف عليه، أوضح لماذا أفرد هنا، وجمع هناك في: "الذاريات، والمرسلات، والنازعات، والعاديات، وقبلهما والصفافات؟ فلم يقل هنا: والأطوار، أو والجبال، والنجوم، والسماوات، والبحار.... ونحوها كما سبق هناك.

وفي الجواب عن ذلك لم أجد أفضل مما قاله الفخر الرازي في تفسيره، يقول: "في بعض السور أقسم بجموع كما في قوله تعالى: ﴿وَالذَّرِيَّتِ﴾، وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ وفي بعضها بأفراد كما في هذه السورة حيث قال: ﴿وَالطُّورِ﴾ ولم يقل: والأطوار، والبحار، ولا سيما إذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ (النساء: ١٥٤) أي: الجبل فما الحكمة فيه؟ نقول: في الجموع في أكثرها أقسم بالمتحركات، والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير، فقال: ﴿وَالذَّرِيَّتِ﴾؛ إشارة إلى النوع المستمر، إلى الفرد المعين المستقر، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير، والواحد من الجبال دائم

زماناً، ودهراً، فأقسم في ذلك بالواحد، وكذلك قوله: والنجم، والريح (أي: المفردة) ما علم القسم به، وفي الطور (المفرد) علم^(١).

توضيح وبيان:

أي أن الحق - سبحانه وتعالى - أقسم بالجموع؛ لما فيها من تغيير ينشأ من حركاتها، ولم يحدث أن أقسم بالريح مثلاً، ولكنه أقسم بالجبل لثباته، ولم يقع في القرآن قسم بالجبال، ولكن جاءت في سياقات أخرى، وكذا النجم عند ما جاءت في القسم مجموعة، كان القسم بمواقعها كما قال سبحانه: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، فهذا سر الإفراد هنا، والجمع هناك.

والطور: جاءت بالواو في القرآن الكريم مرة واحدة، وهذا قسم، ولكنه ذكر في القرآن من غير قسم سبع مرات، ثلاث منها ببيان القدرة الإلهية، ثنتان منها في سورة البقرة: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣] وواحدة في النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]، وجاءت أربع مرات كجهة من الجهات ﴿جَانِبِ الطُّورِ﴾ [مريم: ٥٢، طه: ٨٠، القصص: ٢٩، ٤٦].

والطور: الجبل، واسم مخصوص بالقدس، وجبل محيط بالأرض^(٢) وهو الجبل الذي كلم الله موسى - عليه السلام - عليه بالأرض المقدسة، وعرفه باللام، (الطور)، وفي سورة (التين) عرفه بالإضافة ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ وهو مظهر بركة الدنيا، والآخرة، والكتاب المسطور أي: المكتوب، والرق هو ما يكتب فيه، وهو أديم المصحف، والمنشور أي: المبسوط، وهو القرآن الكريم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، والبيت المعمور: الضراح الذي في السماء، رفع للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة الإسراء، وهو معمور بالملائكة، وهو بحيال الكعبة، وكلاهما معمور، هذا بالملائكة، وهذا بالطائفين، والقائمين، والركع، السجود، والسقف المرفوع: يعني السماء، ونظيره قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ

(١) تفسيره ٢٨ / ٢٤١.

(٢) بصائر ذوي التمييز ١ / ١٠٥٨.

سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴿ [الأنبياء: ٢]، والبحر المسجور أي: الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور، وهو قول ابن عباس، وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارًا، فيزداد بها في نار جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿ [التكوير: ٦]، أي: أوقدت وامتلاّت نارًا تضطرم^(١).

فهذه خمسة أنواع، أقسم الحق - سبحانه وتعالى - بها على وقوع العذاب الذي لا يدفعه دافع، ولكن ما وجه المناسبة بينهما حتى يجمعها الله عز وجل للدلالة على قدرته، وبالغ عظمته، وصدق وعده؟

للعلماء فيه كلام جدير بالذكر؛ لأنه يساعد على استخراج دلالة القسم بها على عظمة المقسم عليه، فالطور بمعنى الجبل على الإطلاق، وجبل الطور الذي كلم الله موسى - عليه السلام - عليه على وجه الخصوص - له مكانة عالية؛ حيث تجلى الله له، وعند ذلك خر موسى صعقا، وليس هناك أعلى من تجلي رب العزة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [الأعراف: ١٤٣].

والكتب المسطور هو دليل الهداية، ووصفه بقوله في: ﴿فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ﴿ فيه تذكير بما يكون يوم القيامة ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿ [١٣] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿ [الإسراء: ١٣، ١٤]، ونكره لإثبات عظمته، والواو لمطلق الجمع.

وكما يقول ابن قيم: "قد أقسم بسيد الجبال، وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنا للنبوتين المعظمتين: نبوة موسى، ونبوة محمد، وكثيرا ما يقرن بينهما وبين محلها،

(١) تفسير البغوي ٢٨٩/٤، والتبيان في أقسام القرآن ١٦٤ باختصار.

كما في سورة والتين والزيتون، ثم أقسم بعدهما بسيد البيوت، وهو البيت المعمور، والبحر المسجور من أعظم آيات الله، وعجائبه التي لا يحصيها إلا الله.

ويقول فيه الزمخشري: "روي أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارًا تسجر بها في جهنم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، أي: أوقدت فصارت نارًا، والقسم بذلك كله واقع على الجزاء والمعاد... (١).

فهذا وجه من وجوه التناسب، والدلالة فيه عظمة هذه الأشياء التي يستدل بها على تحقيق وقوع العذاب، فكما أنها لا يدفعها دافع؛ لأنها من قدرة الله - عز وجل - على صدق ما وعد الله به ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، ودلالة التأكيد في التعبير عنه تناسبها هذه الأشياء التي أقسم الله بها، وربط الرازي بين هذه الأشياء وبين الأنبياء، ومن ثم كان التألف.

فكان الله أقسم بكل ما يتصل بهم، وذلك فيه مؤانسة لهم، وتثبيت لدعوتهم، وتعضيد لما أذروا به أقواهم، وفي هذا بالغ الدلالة بالمقسم به، والمقسم عليه لما بينهما من رباط القوة، والعظمة، والصدق.

يقول الرازي: الأماكن الثلاثة وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلو بربهم، والخلاص من الخلق، والخطاب مع الله، أما الطور فانتقل إليه موسى - عليه السلام - والبيت محمد - صلى الله عليه وسلم - والبحر المسجور يونس - عليه السلام - والكل خاطبوا الله هناك، فقال موسي: ﴿أَمْهَلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فَنُنُوكَ تُضَلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأما محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال: "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك" وأما يونس - عليه السلام - فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب، فحلف الله تعالى بها، وأما ذكر الكتاب فإن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع الله

(١) التبيان في أقسام القرآن ١٦٤، وينظر: الكشاف ٢٢/٤.

تعالى كلام، والكلام في الكتاب، واقتترانه بالطور أدل على ذلك؛ لأن موسى - عليه السلام - كان له مكتوب ينزل عليه، وهو بالطور.

وأما ذكر السقف المرفوع، ومعه البيت المعمور؛ فليعلم عظمة شأن محمد - صلى الله عليه وسلم - (١).

لأن التعبير بلفظ الطور دون أي تفصيل يدل على القوة والثبات، ويقابله هنا درجة التأكيد في جواب القسم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، ويزداد تأكيداً بجملته: ﴿مَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ وهي في محل رفع خبر ثان، وكل مقسم به بعد الطور له وصف، وهذا يحقق وقوع اليوم، ووقوع الجزاء فيه على قدر العمل، ولا دافع لذلك، كما أن دعوات الأنبياء بما فيها من: وعد، ووعد، وترغيب وترهيب، لا يدفعها دافع.

وأرى الكلام بطرفيه تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتثبيت لدعوته التي أمره الله أن يصدع بها، ومجيء الكلام بطريقة القسم ليس دفاعاً عن وعد الله، وصدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - إنما هو تثبيت للرسول - صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، وإنذار ووعد للمكذبين، وقد قال ربنا في سياق السورة بعد القسم وجوابه، وأدلة الجواب: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، وليس أدل على أن ذلك تثبيت للنبي - صلى الله عليه وسلم - من أن تختم السورة بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

ثانياً: القسم بالأفلاك:

١ - القسم بالنجم ودلالته:

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١: ٤].

(١) تفسيره ٢٨ / ٢٣٩.

النجم أصله: الكوكب الطالع، وجمعه نجوم، وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قيل: أراد به الكوكب، وإنما خص الهويّ دون الطلوع، فإن لفظة النجم تدل على طلوعه، وقيل: أراد بالنجم الثريا، والعرب إذا أطلقت لفظ النجم قصدت به الثريا... وقيل: أراد بذلك القرآن المنجم المنزل قدرًا فقدرًا، ويعني بقوله: ﴿هَوَىٰ﴾ نزوله^(١).

استهلت هذه السورة بالقسم بالنجم في هذه الحالة من الأقول، أو الغروب، وختمت التي قبلها بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَّحَهُ وَيَدْبُرُ النُّجُومَ﴾ [الطور: ١٩]، قال العلماء: "إدبار النجوم: وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح إلا وقت النوم"^(٢) ثم تفتتح هذه بالقسم بالنجم.

والدلالة التي وراء ذلك: بيان أهمية هذه الوقت، ومنزلة التسبيح فيه، فكأن الله تعالى يعظم تسبيحه - صلى الله عليه وسلم - فيقسم به من خلال وقته، فذكر الزمن، وأراد الحدث على المجاز العقلي من جهة المعنى.

فالقسم في هذا الاستهلال تعظيم من جهة، وتوجيه من جهة أخرى، وفي هذا التوجيه يقول البقاعي: "افتتحت هذه بالحث على الاهتداء بهديه، والاستدلال بدلّه، واتباع أثره، ولما كان من ذلك تسبيحه بالحمد في إدبار النجوم أقسم أول هذه بالنجم على وجه أعم مما في آخر تلك، فعبر بعبارة تفهم عروجه، وصعوده؛ لأنه لا يغيب في الأفق الغربي واحد من السيارة، إلا وطلع من الأفق الشرقي في نظير له منها، لما يكون عند ذلك من تلك العبارة العالية، والأذكار الزاكية مع ما فيه من عجيب الصنع الدال على وحدانية مبدعة.."^(٣) قوله: فعبر بعبارة تفهم عروجه، وصعوده، أي أن: قوله سبحانه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ تحتمل الانحدار والارتفاع.

(١) المفردات للراغب (نجم).

(٢) تفسير الرازي ٢٨ / ٢٧٦.

(٣) نظم الدرر ٧ / ٣١٢.

قال الراغب: والهُوِيُّ (بضم الهاء) ذهاب في انحدار، والهَوَى (بفتح الهاء) ذهاب في ارتفاع...^(١). أي: ليس له طريق مستقيم، ولذلك كان جواب القسم: ﴿مَا صَلَّى صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ أي: لا يتبع هواه، ومن ثم لا يضل ولا يغوى، ومن هنا قال البقاعي في مقصود السورة: "ومقصودها: ذم الهوى لإنتاجه الضلال، والعمى بالإخلاق إلى الدنيا التي هي دار الكدور والبلاء، والتصرم والفناء، ومدح العلم؛ لإثماره الهدى في الإقبال على الأخرى؛ لأنها دار البقاء في السعادة، أو الشقاء، والحث على اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - في نذارته التي بينها سورة"ق"، وصدقها الذاريات، وأوقعها، وعينتها الطور.."^(٢).

ومن ثم يتجلى جمال الدلالة (التي يفيدها القسم وسياقه، وعلاقة أول السورة بآخر ما قبلها) في التعظيم للوقت والحدث، وقت إدبار النجم، والتسبيح الذي أمره الله أن يسبحه إلى هذا الوقت، كما يتجلى جمال الدلالة أيضا في بيان ما ينطق به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبيان أنه ليس من هوى نفسه: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٤﴾ عَمَّهُ شَدِيدُ الْغَوَىٰ ﴿٥﴾ النجم ٤، ٥. وكذا الحث على اتباعه - صلى الله عليه وسلم - في تسبيحه، وتبليغه... فهو على الطريق لم يضل، وعلى الرشاد لم يغو ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وكل ذلك من القسم وجوابه، يدل على بيان منزلة النبوة، ولذلك جعل بعض العلماء القسم عليها أي: على إثباتها، كما كان القسم في: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ على الوجدانية ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ وفي الذاريات والطور على الحشر، فهنا القسم على إثبات النبوة، وبهذه السورة تكتمل الأصول الثلاثة: الوجدانية، والحشر، والنبوة...^(٣).

وبذلك تكون الدلالة العظمة من هذا القسم هي إثبات النبوة، وتبرئته - صلى الله عليه وسلم - مما يقولون، وترابط الآيات في السورة يدل على ترابط هذه الدلالات

(١) المفردات (هوى).

(٢) نظم الدرر ٣١٢/٧.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٧٧/٢٨

التي استتبطها من القسم، وجوابه، وسياقه، وعلاقة هذه السورة " النجم " بالتي قبلها "الطور" وكأنهما شرح وتفصيل لمعالم الإنذار هناك، ولذلك ختمت " الطور " بالأمر الخاص بالتسبيح ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبُرَ النُّجُودِ ﴾ [الطور: ٤٩]، وختمت النجم بما هو أعم حثًا على اتباع الهدى، والبعد عن الهوى، والضلال فقال تعالى: ﴿ فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۗ ۝٦٣ ﴾ [النجم: ٦٣].

٢- القسم بالسماء وما عطف عليها:

جعلت العنوان القسم بالسماء باعتبار استهلال السورة، وذلك لأن السورتين المستهلكتين بالسماء عطف على كل واحدة منهن أشياء أخرى، سواء جعلت الواو للعطف، أو للقسم فالمأل واحد، فكل منها مقسم به، ففي قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ [البروج: ١-٤].

يُذَكِّرُ الْعِتَاةَ الظالمين بمصير من تقدمهم من الظالمين الذين انتقموا من المؤمنين؛ لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، كما قال ربنا: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]، فلما فعل كفار مكة بالمؤمنين ما فعلوا وضيقوا عليهم، وآذوهم، أنزل الله - عز وجل - هذه السورة؛ تسلية لهم، وتثبيتًا لقلوبهم، مذكراً لهم بصبر من سبقوهم، ومنذراً هؤلاء ومتوعداً إياهم بمصير أصحاب الأخدود.

وحقق لهم ذلك التثبيت بالقسم بعدة أنواع، أولها: السماء ذات البروج، أي: ذات منازل الشمس والقمر، وقيل: عظام الكواكب، سميت بروجاً لظهورها، وقيل: البروج القصور، الواحد: برج، وبه سمي بروج السماء لمنازلها المختصة بها، كما قال تعالى: ﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، وقيل: أبواب السماء، وثانيها: اليوم الموعود، وهو يوم القيامة، وثالثها: الشاهد والمشهود، والشاهد: من يشهد فيه الخلائق كلهم، والمشهود: ما في ذلك اليوم من عجائبه، وأطلقهما ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾

دون تعيين، وأعم المعاني فيه: أنه المدرك والمدرك، والعامل والمعلوم، والرئي والمرئي....^(١).

ودلالة القسم بهذه الأشياء المتنوعة هي: التنبيه الشديد، والتحذير من يوم الوعيد الذي يكون فيه كل الخلائق على نفسه شهيد.

وسبب الجمع بينها لخصه ابن قيم في قوله: "فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته، وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي وهي: السماء، وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة، وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرا، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه، وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو: الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم، وأيضا فالشاهد هو المطلع، والرقيب، والمخبر، والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد"^(٢).

أقسم بكل ذلك على قتل أصحاب الأخدود، ومن تشبه بصنيعهم من كفار مكة، وغيرهم ممن آذوا المؤمنين، وعذبوهم، وقال الزمخشري: "الجواب محذوف، يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾^(٣) كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء إنهم ملعونون، يعني كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود"^(٣).

فدلالة الجواب تتأزر مع دلالة المقسم به في تسليية المؤمنين، وتشبيبتهم، وتصبيرهم، ووعيد الكافرين، وإنذارهم، وتحذيرهم.

(١) ينظر: المفردات للراغب (برج)، وتفسير الطبري ٢٤ / ٣٣٢، وتفسير البغوي ٥ / ٢٣١، وتفسير

الزمخشري ٤ / ٢٣٧، والتبيان في أقسام القرآن ٥٧.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ٥٧، ٥٨.

(٣) الكشاف ٤ / ٢٣٧.

وتجلى الترابط بين المقسم به، والمقسم عليه، من خلال ما لخصه ابن قيم، فأقسم بعظيم على عظيم.

أما قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿[الطارق: ١-٤].

فدلالة القسم بجملتيه هنا تتمثل في التعظيم، والعظيم لا يقسم إلا بما يراه عظيمًا تقديرًا له، وإظهارًا لقدرته وحكمته، وتجليه لمنافع الناس، والحرص على حفظهم، وحثهم على الاستقامة وطريق الهداية، كما أن النجم يطرق ليلاً فيخترق الظلام، فيهتدون به، كما قال -سبحانه- في بيان نعمه: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥-١٦]، كل هذه من دلائل نعم الله، وحفظه للإنسان.

ولذلك أقسم هنا بالسماء لشرفها، وعلو مكانها، ومقامها، وعطف عليها: الطارق، وعبر به، وخصه؛ ليكون تهيئة لجواب القسم الذي يدل على أن الله -عز وجل- يهيء لكل نفس خلقها ملكًا يحفظها، ويحفظ لها عملها؛ ليكون ذلك ضابطًا لسلوكها، وحاكمًا لزماتها، وذلك لأن الطارق كما يقول الراغب: "السالك للطريق، لكن خص في التعارف بالآتي ليلاً، فقيل طرق أهله طروقًا، وعبر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل..."^(١)، فهو بذلك ضرب مثلاً للإنسان توجيهًا له بأن يسلك طرق الخير، وأن يخترق طرق الظلام بقوة الإيمان، ولذلك وضحه بقوله -تعالى-: "النجم الثاقب"، والثاقب هو الذي يثقب بنوره وإصابته ما يقع عليه"^(٢)، كل هذه دلائل نور الإيمان التي يحث الحق -سبحانه- الإنسان عليها بكونه حافظًا لأحوالها، رقيبًا على كل أمورها، ولذلك أتبع الحق جواب القسم بقوله "فلينظر الإنسان مم خلق .." بلام الأمر الداخلة على المضارع؛ مما يدعوها لاستمرار النظر في كل

(١) المفردات، (طرق).

(٢) السابق، (ثقب).

أحوالها، ودعوتها إلى أن تتذكر أن (عليها حافظ)، وفيه يقول الزمخشري: فإن قلت: ما وجه اتصال قوله (فليُنظر) بما قبله؟

قلت: وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره، ونشأته الأولى؛ حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته" (١).

ومن ثم يتمثل جمال الدلالة العظمى هنا في تخميم القضية كلها؛ حيث قال بين جملتي المقسم به (وما أدراك ما الطارق) وهذا يدل على التخميم الذي يعم جوانب السورة بما يتناسب مع أدلة القدرة فيها "إنه على رجعه لقادر" ويتفرع على ذلك دلالة تعظيم النفس والحرص عليها، والقسم على ذلك بما يدفعها للسير على الطريق القويم.

٣- دلالة القسم بالشمس وضحاها:

ويبقى من القسم بالأفلاك، القسم بالشمس وضحاها، وما ترتب على ذلك من: القمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض، والنفس، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهِ ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَرَاهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠﴾ [الشمس: ١-١٠].

في سورة الطارق كان جواب القسم: الإخبار بحفظ النفس، وحفظ ما يصدر منها، وكان القسم بالطارق الذي يطرق فيوقظ وينبّه، والنجم الثاقب، والثاقب -كما سبق- الذي ينفذ بنوره، فيؤثر.

وفي هذا القسم -كما سبق- دلالة على تنبيه الإنسان بأن يكون ما يُحفظ في شأنه له، لا عليه، والحث على أن يعلم أن الله رقيب عليه ...

كذلك القسم هنا جاء على فلاح النفس بتزكيتها، وهيبة من دسها في الشر حتى تعمقت فيه دون رجوع، فكان مصيرها الهلاك والخسران، ولأهمية النفس، والحرص على إصلاحها، واستمرار صلاحها، وعودتها إلى ربها كلما نزعها نزع؛ لأهمية ذلك جاء القسم عليها بسبعة أشياء، وهو أطول قسم في القرآن الكريم، وكله بالمتقابلات الدالة على عظمة خالق الكائنات، وبالغ قدرته، وعظيم إنعامه وإحسانه.

فجاء بالشمس وضوئها، وهذه آية النهار، ثم بالقمر المستمد نوره من نورها، وهو آية الليل، ولذا قال -سبحانه- "إذا تلاها" أي في النور، ثم توالى المتقابلات لبيان حالة النفس أيضًا، فأقسم بالنهار الذي يظهر ضوء الشمس، ويفصح عن جمالها، وجلالها، وعظم نفعها، ثم قابله بالليل الذي يُغشّي ذلك، وهذا تنظيم لحركة الحياة، فكما أن فيها الحركة، فيها السكون، وهي في حاجة إليهما، ولا يصلح أحدهما دون الآخر، ثم أتبع ذلك بالقسم بأية جامعة فقال: "والسما" ومع أنها آية عظيمة دالة على الخالق الأعظم، إلا أنه أقسم بذاته المقدسة؛ مما يدل على علو شأن المقسم عليه، وقوة الحرص عليه، فقال -سبحانه-: "وما بناها" و(ما) هذه قال فيها بعض العلماء: "وقيل: "ما" مصدرية، أي: والسما وبنائها، والأرض ودحوها، ونفس وتسويتها، وقيل "ما" بمعنى (من) أي: والسما وخالقها، والأرض وداحيها، ونفس ومسويها"^(١)، كما أقسم بما يقابل السماء من آية عظيمة، فقال: "والأرض وما طحاها"؛ أي بسطها، ويقول الراغب: "الطحو كالدحو، وهو بساط الشيء والذهاب به"^(٢)، ثم ختم بمكانة النفس؛ لأنها مكنم الخير والشر "وما سواها" أي ومن سواها وحسن خلقها، وجعلها كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ثم ذكر دليل تسويتها؛ مجليًا دلالة السبب وأثره في المسبب عنه، فقال -سبحانه-: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي أرشدها بفطرتها إلى أن هذا خير، وهذا شر، ولذلك ترك

(١) إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، طبعة ١٤٢٠هـ،

٩٢١/٣.

(٢) المفردات، (طحا).

التوجيه في جواب القسم لصاحبها، فقال - عز وجل - : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

لكل هذا القسم على تفعيل النفس للفطرة التي خلقت عليها، وإهمالها لتلك الفطرة، فكل جملة من جمل المقسم به تدل على أمر في النفس، ودلالة فيها، فالرابطة بين الطرفين جد عظيمة، فكما أن الشمس تنفع وتضر، فكذلك النفس، غير أن النفع والضرر في النفس أكبر، فقد تنفع، أو تضر نفسها بنفسها، وقد ينصرف ذلك إلى غيرها، فهذه دلالة الربط بين الشمس والنفس.

وكذلك الشأن في القمر آية الليل الذي هو وقت السكون، الذي يعين على تفعيل الحركة المطلوبة في النهار، قد يستخدمه الإنسان استخدامًا صحيحًا يؤدي فيه ما يجب عليه؛ ليكون عونًا له على ما يطلب منه ..، وجسم الإنسان في حاجة إلى هذا وذاك، ولا يكمل نفعه إلا بتفعيل نعم الله على الوجه الأمثل، وهنا أيضًا تكمن قوة الدلالة بين المقسم به المتنوع الدال على كل حالات النفس، والمقسم عليه بحالته "قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها" ثم يأتي القسم بالعام الأعظم وهو السماء والأرض "والسماوات وما بناها والأرض وما طحاها" وهما المكان الجامع لمصادر النور والظلام على أصلهما، وعلى ما يستعاران له من الكفر والإيمان ..، ثم يقسم - سبحانه - بالنفس ذاتها، التي تعدد المقسم به لإثبات عظمها؛ إذ هي مصدر النور والظلام، المدلول عليهما بأول القسم "والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها"، فهذا قسم بالنفس على فلاح من زكاهها وخيبة من دساها.

كما أن التعبير بتسوية النفس "ونفس وما سواها" يتناسب مع الأحكام البارعة في المقسم به من الشمس، والقمر الذي قدره الله منازل للانتفاع بها في أمور أعلى وأعظم، والنهار والليل مصادر السعي والراحة التي تعين على السعي، والسعي الذي يشترك إلى الراحة، فهي حلقة متواصلة مترابطة يدل بعضها على بعض، ويمهد بعضها لبعض، إلى أن يصل الأمر بغيته، ويحقق القسم طلبته، فيحكم بالفلاح على ما دل عليه المقسم به على اختلاف أنواعه وتعدد مشاربه الدالة على النفع والضرر والعام الذي يشمل ذلك (السماء والأرض) كما يشمل بدن الإنسان، فهو مصدر القوة

والحركة التي تصلح أو تفسد، وتوجه إلى سبيل الرشد أو سبيل الغي، إلهام وفطرة، وغيره وضلال "فألهمها فجورها وتقواها"، يأتي الحكم بالفلاح لمن نماها في الخير، وقوي مصادره فيها، ومن دساها في السوء فحرمها كل نفع ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿[٩، ١٠].

قال الشيخ محمد الطاهر: "يجوز أن تكون الجملة جواب القسم، وأن المعنى: تحقيق فلاح المؤمنين، وخيبة المشركين، كما جعل في سورة الليل جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾^(٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى .. إلى آخره، ويجوز أن تكون هذه الجملة معترضة بين القسم وجوابه؛ لمناسبة ذكر إلهام الفجور، والتقوى؛ أي قد أفلح من زكى نفسه، واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي، وتكون هذه الجملة توطئة لجملة القسم التي هي قوله -تعالى-: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ ... ولام الجواب محذوفة تخفيفاً لاستطالة القسم"^(١).

وأرجح ما قاله الزجاج من أن جواب القسم قوله -تعالى-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿ وحذفت اللام لإطالة الكلام؛ لتكتمل الدلالة العظمى بين المقسم به على تنوعه والمقسم عليه الذي يدعو إلى تقدير النفس، وامتلاكها زمام الأمور، وسيطرتها على الفجور، وفيه الدلالة العظيمة التي تحث على اتباع الفطرة، ونبذ اتباع الهوى ... والله يهدي من يشاء إلى ما يشاء.

ثالثاً: القسم بما فيه معنى الزمن، ودلالته:

يشمل هذا النوع: القسم بالفجر، والليل، والضحى، والعصر.

كل زمن من هذه الأزمنة وقع القسم به على أمور عظام، تتعلق بمصير من طَعَوْا وبغوا وأفسدوا؛ ليكون عبرة لمن يكذب، وتذكرة للإنسان؛ لذلك أقسم الله -عز وجل- بالزمن في مختلف أطواره، في كتابه الكريم، في آيات جمّة؛ إشعاراً منه بقيمة

(١) التحرير والتنوير، ج ٣٠/٣٧٠ باختصار وقدر من التصرف.

الزمن، وتنبئها إلى أهميته، فأقسم -جل شأنه- بالليل، والنهار، والفجر، والصبح، والشفق، والضحي، والعصر.

ويلاحظ أن كل ما أقسم الله عليه بالزمن كان [مهمًا] ^(١) في أعلى درجات الأهمية ^(٢)، وتتجلى هذه الأهمية من خلال الشواهد.

دلالة القسم بمبدأ النهار (الفجر):

ففي سورة الفجر جمع بينه وبين: الليال العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، فقال -تعالى-: ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ٥﴾ [١-٥]، أقسم الله -عز وجل- بالفجر، وهو انفجار الصبح كل يوم، وقيل: صلاة الفجر، وقيل: فجر أول يوم من المحرم، تنفجر منه السنة، وقيل: فجر ذي الحجة؛ لأنه قرنت به الليالي العشر، والليالي العشر هي: العشر الأول من ذي الحجة، وجاءت مُنكَرَةً، وكل ما أقسم به هنا مُعَرَّفٌ؛ لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر، بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها، فالتكثير يعطيها مزية ومزيد اختصاص، والشفع والوتر، يقصد به: إما الأشياء كلها شفعها ووترها، فيعم الشفع جميع الخلق، كما قال -تعالى-: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي تتذكرون أن الزوجية للمخلوقات، والأحدية لله عز وجل، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وإما أن يكون المقصود شفع هذه الليالي ووترها، وشفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة؛ لأنه تاسع أيامها، وذاك عاشرها، قال الزمخشري: وقد روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه فسرها بذلك.

(١) في الأصل (هاما) والصواب ما أثبتته.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، عبد الفتاح أبو غدة الجلي، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١٠،

وبعد القسم بهذه الليالي المخصوصة، أقسم بالليل على عمومه ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا
 يَسَّرَ﴾ أي يمضي، أو: إذا يُسار فيه، كما قيل: ليل نائم - على المجاز بإسناد النوم
 إلى الليل من باب إسناد الفعل إلى زمانه - فحذفت الياء من (يسر) باعتبار أنه زمان
 السرى، وقيل لتتناسق مع فواصل الآي قبلها، ويكتفى بالكسرة دليلاً عليها، قال الفراء:
 والعرب قد تحذف الياء وتكتفي بالكسرة قبلها، وأنشد:

كفاك كف ما يبقي درهما ★★ جودًا وأخرى تعط بالسيف الدما

فإذا كان هذا في غير الفاصلة، فهو في الفاصلة أولى .. وقال ابن خالويه:
 "والليل إذا يسر" نسق عليه، وهو ليلة الأضحى، وكان الأصل: يسري، فحذفوا الياء؛
 لأنها تشبه رؤوس الآي التي قبلها .. ويقال: سرى وأسرى بمعنى واحد، قال -تعالى-
 : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، والسرى سير الليل خاصة،
 والتأويب سير النهار ..

فلما أقسم الله -تبارك وتعالى- بالفجر، والأيام المعدودات، ويوم النحر، وبنفسه،
 وبآدم، وولده، قال: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي عقل، ولذي لب؟ ... والحجر
 هنا بمعنى العقل، وسمي به؛ لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي.^(١)

فالقسم بهذا الجمع الذي يربط عظمة أول النهار وآخره، وبينهما الليالي
 المخصوصة بالعشر على اختلاف ما قيل فيها من أنها عشر ذي الحجة أو العشر
 الأول من رمضان أو الأواخر منه ... إلخ .. وشفع الأشياء ووترها -كما سبق-
 والليل حتى يمضي، أو يُمضى فيه مع اختيار لفظة (يسر) لمكانة السرى ليلاً،
 واختصاصه برحلة الإسراء مع إسناده إلى الحق -سبحانه- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
 بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] ... وتخصيص الليل مع السرى لا يكون إلا ليلاً؛ لبيان
 القدرة الإلهية بأن الرحلة كانت في جزء من الليل، وتكثير ليلاً يفيد تعظيم هذا القدر
 الذي تمت فيه الرحلة ..

(١) تفسير البغوي، والكشاف للزمخشري، ٤/٢٤٩، وتفسير الرازي، ٣١/٣٦٥، وإعراب ثلاثين سورة لابن
 خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤١م، ٧٤.

القسم بكل هذا الجمع فيه من التعظيم ما تذهب فيه النفوس كل مذهب من عظمة هذه الأزمنة المرتبطة بعظمة خالقها؛ لأنها دليل على وجوده - سبحانه وتعالى - لذلك جاء جواب القسم يؤكد عظمتها، ويحقق رفعتها، وهذا هو جمال الدلالة التي نبحثها في جملة القسم بطرفيها، وأن الجواب، وهو المقسم عليه: يجلي هذه العظمة وتلك الرفعة؛ لأن المقصود منه هنا "هل في ذلك قسم لذي حجر"؛ أي أن عظمة هذه الأشياء المقسم بها لا تحتاج إلى قسم، ولكنها جاءت للدلالة على وقوع البعث، وحدث الجزاء، وفيه يقول الزمخشري: "أي هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه"^(١)، فلهذا الاستفهام دلالة على عظمة الأمور المقسم بها؛ أي صاحب العقل السوي لا يحتاج إلى قسم على عظمة المقسم به، فهو عظيم في ذاته لكل ذي حجر، وفيه يقول الرازي: "هل في ذلك قسم" استفهام، والمراد منه التأكيد، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنى: أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله - تعالى - به من هذه الأشياء فيه عجائب، ودلائل على التوحيد، والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه"^(٢).

ولذلك قدم الجار والمجرور "هل في ذلك قسم" وتقديمه يفيد أهمية ما يرجع إليه المعنى؛ أي هل في ذلك المقسم به قسم؟ وقيل: الجواب محذوف.

قال الزمخشري: "والمقسم عليه محذوف وتقديره "لتعذبن" يدل عليه قوله - تعالى - بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَرَّبُّكَ بِعَادٍ﴾^(٣)، أي أنه - سبحانه - يُقسم على وقوع البعث، وحدث العذاب.

والغرض الأسمى في السورة كلها إثبات العذاب للمنكرين، ويدل عليه ما بُنيت عليه من إنذار وتهديد، ويكفي قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر ١٢]، وقد ختمت بالإفصاح عن هذا الوعيد، كما قال - تعالى -: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٢٢) ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يندكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ [٢٢-٢٣].

(١) الكشاف، ٤/٢٤٩.

(٢) تفسيره، ٣١/١٦٦.

(٣) الكشاف، ٤/٢٥٠.

فالدلالة العظمى في الآية: وقوع البعث، وعظمته من عظمة خلق الكون، وفوق كل ذلك عظمة خالق الكون، توزعت هذه الدلالة بين معالم السورة؛ لتبدأ بالقسم بوقت له خصوصية عالية، ويتدرج العطف عليه بما له خصوصية، ويختم المقسم به بالليل؛ لبيان أن أول النهار له دلالة، وآخره له دلالة، والمقدمات إذا نجحت دلت عليها الخواتيم؛ لأن كل مقدمة تُسلم لنهاية، وخاتمة تناسبها، بالإضافة إلى دلالة الحث على تقديم ما ينفع أن يُستقبل به يوم البعث، وهذه دلالة مطوية بين طرفي أسلوب القسم، سواء المقسم به على تعدده، والمقسم عليه بدليله المذكور، ويجمعه كله قول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمَّئِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي لا بد أن تلاقي عمالك، وفي هذا دليل قاطع على مجيء اليوم الذي لا ينفع فيه نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، والسورة تجمع بين مقدماتها وخاتمتها الكثير من الدلائل التي جاء القسم من أجل إثباتها؛ ليكون حجة على المكذبين.

دلالة القسم بشرط الزمان (الليل):

السورة الثانية من السور التي وقع القسم في بدايتها بالزمن قوله -تعالى-:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١-٤].

القسم هنا بثلاثة أشياء على أن سعي الإنسان مختلف، أو متفرق بعضه في الخير وبعضه في الشر؛ أي: والليل إذا غطى الكون بظلامه، والنهار إذا كشف ذلك الغطاء بضوئه، ثم أقسم بذاته المقدسة فقال: "وما خلق الذكر والأنثى" وسبق أن "ما" هذه بمعنى (من) في الشاهد السابق (والسماوات وما بناها والأرض وما طحاها) فقد أقسم بصنعه الدال على عجائب قدرته، وبذاته الدالة على عظمته على درجة العموم لجميع مخلوقاته، وحذف مفعول (يغشى)، و(تجلى) لإثبات عمومته، فليل يقابله نهار، وذكر يقابله أنثى، ثم يأتي جواب القسم بنفس التقابل، وذلك قوله -تعالى-: "إن سعيكم لشتى" أي مختلف، وهذا الاختلاف تضاد أيضاً، بعضه في الخير، وبعضه في الشر، والدليل على وضوح ذلك ما جاء في السياق بعده: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾

﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيْرُهُ لِلْيَسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْتَنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيْرُهُ
لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

ويلخص ابن قيم هذا العموم الدال على اختلاف السعي عملاً وجزاءً فيقول:
"وأقسم -سبحانه- بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو: الذكر والأنثى،
على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه، وزمانه
مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه -سبحانه- لا يسوي بين من
اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار، والذكر والأنثى" (١).

فجمال الدلالة في سياق السورة يكمن في الترغيب والتحذير، وهذا ما يجمله
جواب القسم، وهو عمل عظيم وجزاؤه عظيم، وهو التيسير، إما لليسرى، وإما
للعسرى، كل بعمله، كما أن المقسم به -مع عظمتها- متقابل، والتقابل يدل على
التضاد، ولذلك كان مقصود السورة قائماً على الدلالة على تحكم الإنسان في سعيه،
وقدرته على توجيهه إياه، والله -عز وجل- هو الذي مكنه من ذلك، بدليل قوله -
تعالى-: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:
١٠].

ومن ثم ذكر البقاعي في مقصودها: التصرف التام في النفوس بإثبات كمال
القدرة بالاختيار باختلاف الناس في السعي مع اتحاد مقاصدهم... (٢)، وهذا متمم
لمقصود سورة "الشمس" قبلها، حيث كان القسم هناك على فلاح من زكاهها، وبوار من
دساها، وبذلك تتكامل دلالات القسم باختلاف المقسم عليه، ولا تتكرر، وكل ما أقسم
الله به آية من آياته، وكل ما أقسم عليه كان تقديرًا لمكانته، وتحقيقًا لإثباته، وهذا هو
جمال الدلالة في النص مجملًا، وفي السياق مفصلاً.

دلالة القسم بشطر النهار (الضحى):

(١) التبيان في أقسام القرآن، ٣٧.

(٢) تفسير مقاتل بن سلمان البلخي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، دار المصرية، ٣١٧/٢ باختصار.

ولكن كان القسم بالضحى والليل إذا سجي على شيء خاص متعلق بسيد البشرية، وهو إثبات مكانته عند ربه، وكانت ردًا على مشركي مكة لما غاب الوحي عنه -صلى الله عليه وسلم- قالوا: قد ودّعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل -عليه السلام- قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ما جئت حتى اشتقت إليك، قال: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَبِينٌ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، ونزلت: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

والضحى؛ أي وقته، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس واعتدال النهار في الحر والبرد، والصيف والشتاء، والليل إذا سجي يعني غطى بهيمه ضوء النهار، فأقسم الله ببده الليل والنهار .. (١).

وهذا الوقت هو ضوء النهار وزهوته، وهو صدره، كما أن رسول الله صدر الخلق وصفوتهم، وهذا من دلالة المقسم به على المقسم عليه، ومنزلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ربه، وعند من آمن به بمنزلة الضحى من النهار، والليل الذي به تمام الصلاح، وكما أن نور الضحى يوافي بعد ظلام الليل، كذلك نور الوحي وافاه بعد احتباسه عنه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي، ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه .. والله الذي اقتضت رحمته ألا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضور النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، لا يمكن أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

ولما جاء هذا المقسم مطابق لحالة الوحي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء المقسم عليه (جواب القسم) قوله -تعالى- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] أي ما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه .. (٢).

(١) ينظر: السابق، ٤٩٥/٣، ومعاني القرآن للفراء، ٣٧٣/٣.

(٢) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، ٤٧، ٤٨، ونظم الدرر، ٤٥٢/٨، ٤٥٣ باختصار وتصرف.

فالدلالة بين المقسم به، والمقسم عليه جد جلية، ومطابقة تمام التطابق؛ لذلك جاء التعبير بلفظ (ربك) بما فيه من إضافة تكريم، وتشريف، وإحسان، بتكليف، واختيار، يقول البقاعي: "ما ودعك ربك؛ أي الذي أحسن إليك بإيجادك أولاً، وجعلك أكمل الخلق ثانيًا، ورباك أحسن تربية ثالثًا، كما أنه لا يمكن توديع الليل للنهار، بل الضحى للنهار الذي هو أشد ضيائه، ولا يمكن توديع الضحى للنهار، ولا الليل وقت سجوده له .. (١).

ويخلص كمال الدلالة وجمالها هنا في: امتداد التكريم وعلوه؛ حيث ختمت سورة الليل قبلها بتكريم أبي بكر الصديق بقوله -تعالى-: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ جزء ما قدمه من إعتاق بلال، وإخلاصه في العطاء .. فهنا -في سورة الضحى- ارتقت دلالة التكريم والتشريف بهذا القسم الذي يجمع هذا الترابط الذي رأيناه بين المقسم به، والمقسم عليه، وزادت منزلته بوعده الله الذي لا خلف فيه؛ حيث قال -سبحانه-: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

وإرضاء أبي بكر مما يُرضي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لما له من مكانة عنده ... فالدلالة بين السورتين "الليل، والضحى" علاقة تصاعد، وتكامل، والدلالة بين المقسم به، والمقسم عليه دلالة تجمع بين شواهد الحس، ونور العقل؛ الذي يُستمد من نور الإيمان .. وهي دلالة مجموعة في جملة القسم، ومفصلة في سياق السورة.

دلالة القسم بالشطر الآخر من النهار (العصر) أو بالدهر:

ويبقى من شواهد القسم بالزمن في فواتح السور القسم بالعصر، وسور العصر بما بنيت عليه من القسم وجوابه، وأسلوب الاستثناء: توجيه عام وإرشاد لكل البشرية، وترغيب في العمل الصالح، وحث على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والخسران لأهل الشرك، وهو أيضًا إنذار عام، يفيد نجاة من آمن، وهلاك من أعرض

(١) نظم الدرر، ٨/٤٥٣.

وأشرك، اتخذها أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- شعاراً لهم في ملتقاهم، فعن أبي مدينة الدارمي -رضي الله عنه- وكانت له صحبة، قال: "كان الرجلان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر "والعصر إن الإنسان لفي خسر" ثم يسلم أحدهما على الآخر"، قال الألباني: وفي هذا الحديث فائدتان مما جرى عليه عمل سلفنا -رضي الله عنهم جميعاً- إحداهما: التسليم عند الافتراق، والأخرى نستقيدها من التزام الصحابة لها وهي قراءة سورة العصر .. (١).

ويقول الإمام الشافعي: لو لم ينزل على الناس إلا سورة العصر -أي في التوجيه والإرشاد- لكفتهم (٢).

قال -تعالى-: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿سورة العصر﴾.

يقول ابن قيم الجوزية: والعصر المقسم به، قيل: هو الوقت الذي يلي المغرب من النهار، وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل: المراد صلاة العصر، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم: قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة ★★ إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ويوم وليلة بدل من (العصران)، فأقسم -سبحانه- بالعصر لمكان العبرة والآية فيه .. فهو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها .. (٣).

والمهم أن دلالة القسم بالزمن هنا تنبيه بتصريف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع، وجواب القسم "إن الإنسان لفي خسر" قيل المراد به الكافر،

(١) الجامع الصحيح للسنن والمسائيد، صهيب عبد الجبار، وهامشه، ١٢/١٢٨، وصحيح الألباني، ٢٦٤٨.

(٢) ينظر: الإمام الشافعي، جمع وتحقيق د. أحمد الفران، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ٣/١٤٦١.

(٣) التبيان في أقسام القرآن، ٥٤ باختصار.

وقيل جنس الناس لفي عقوبة، أو هلكة، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أُمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]، والدليل على أن المقصود: الجنس أنه استثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..(١).

والسورة تقصد إلى تفضيل نوع الإنسان المخلوق من علق، وبيان خلاصته وعصارته، وهم الحزب الناجي يوم السؤال عن زكاء الأعمال بعد الإشارة إلى أصدادهم ... واسمها العصر واضح في ذلك؛ فإن العصر يخلص روح المعصور، ويميز صفاته؛ لذلك كان وقت النبي الخاتم الذي هو خلاصة الخلق وقت العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات(٢).

وعلى ذلك، فاسم السورة دال على مقصودها، ومبناها دال على مقصود القسم وجوابه، وهي قائمة على دلالة التوجيه والإرشاد والتمييز بين طبقات الناس بأعمالهم، كما قال ربنا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

رابعًا: القسم بالنبات ودلالته:

جاء ذلك في سورة واحدة فقط من سور القرآن الكريم، وهي سورة التين، قال -تعالى-: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ (٢) ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤].

واختلف العلماء في المقصود بالتين والزيتون، قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد وإبراهيم، وعطاء بن رباح، ومقاتل، والكلبي: هو زيتكم هذا الذي تأكلونه، وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت، وقيل: خص التين بالقسم؛ لأنها فاكهة

(١) ينظر: تفسير القرطبي، ١٧٨/٣٠.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ٥٢١/٨.

مخلصة لا عجم فيها، شبيهة بفواكه الجنة، وخصص الزيتون لكثرة منافعه، والزيتون شجرة مباركة جاء بها الحديث، وهو ثمر، ودهن يصلح للاصطباغ، والاصطباح، وقال عكرمة: هما جبلان، وقال قتادة: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون ... وقيل هما مسجدان .. التين بدمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس ..^(١).

وحجة من جعلها أسماء أماكن، ومساجد، أو جبال: هي ذكر الطور بعدهما، وكذا البلد الأمين، ولكن ليس شرطاً أن يكون المقسم به من نوع واحد، فقد سبق في كثير من الشواهد السابقة التعدد والتنوع، وكلها دلائل على أمر معين، ثم إن التين والزيتون فيهما من المنافع والفوائد ما تم ذكره، وهذا يدل على أنهما فاكهتان جديرتان بأن يقسم الله بهما على خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ لأن ما فيهما من منافع وفوائد إنما هو لصالح الإنسان، ومن مكملات صحته التي تجعله في أحسن صورة بريئة من كثير من الأمراض والأسقام ...

ومعنى أن يجعل الله فيهما هذه الفوائد أنهما دالان على قدرة الحق - سبحانه -، وأنه خلق الإنسان، وخلق له ما ينفعه، ويحول بينه وبين كثير من الأمراض، ولا سيما أن المقسم عليه هنا هو قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وكونه في أحسن تقويم يحتاج إلى الأخذ بأسباب ذلك في الحياة .. ثم إن هذا المقسم به جامع لمراحل متعددة، وأزمنة متباعدة على اعتبار أنهما فاكهتان مرتبطتان بأماكن معينة غالباً، ومشهوران فيها، قال بعض المفسرين: أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن منبتهما حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله، وكلمته، وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه، ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة

(١) تفسير البغوي، ٥/٢٧٧.

مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم مظهر الكلية، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكر الخلق عليه...^(١).

فسواء كان المقصود بالتين والزيتون البنات، أو الجبال، أو الأماكن المقدسة فالدلالة بادية في القسم بما هو شريف على أنه سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وتتجلى دلالة الشرف والتكريم للإنسان من جانب، ودلالة القدرة الإلهية من جانب آخر في إحكام هذا الأسلوب، والجمع فيه بين المتناسبات سواء في المنفعة أو الشرف والرفعة، وهذه دلالة جملة القسم بطرفيها.

(١) التبيان في أقسام القرآن ٣٠ باختصار.

المبحث الثالث

أسلوب القسم المنفي ودلالته في فواتح السور:

استهلت سورتان من سور القرآن الكريم بهذا النوع من البيان، وهما حديث من الحق سبحانه عن ذاته المقدسة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ و﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ والمقصود بهما إثبات أمر لا ينكر، ولا ينبغي له ذلك؛ لأنه في غاية الوضوح والبيان، وكثرة الدلائل عليه في القرآن الكريم أكبر من أن يُقسم عليه، وستتجلى دلالة نفي القسم في دراسة شاهدهيه، والقسم بالفعل نحو هذا، ليس كثيراً في القرآن، كالقسم بالحرف، وخاصة الواو، علماً بأن الحرف يدل على الفعل؛ لأن معنى: والصفات، والنازعات، والمرسلات.. مثلاً: أقسم بالصفات، والنازعات، والمرسلات.. ونحوها، فالحرف فيها قائم مقام الفعل، وفيه إيجاز يتناسب مع كثرة المقسم به، فيذكر الحرف حين يقتضي المقام الإيجاز، وهو أخف من الفعل، ومؤدٍ مؤداه، ولكن هناك سياقات لا يستقيم معها ذكر الحرف، ولا تتجلى دلالتها إلا بذكر فعل القسم، ولكل سياق ما يناسبه، ولكل مقام ما يحقق مطلبه ويؤدي هدفه ويبرز دلالته... وسبق أن القسم من الله سبحانه يكون لكمال الحجة، وتأكيد البرهان...

والقسم بالنفي في القرآن الكريم من الحق سبحانه وتعالى ليس له إلا صيغة واحدة، تدل على قدرة الحق دلالة ظاهرة، لا يخالفها شك مما يحتاج السياق فيه إلى نفي القسم؛ لأن الموضوع أجلى من أن يُقسم عليه، وجاء ذلك في فواتح السور مرتين فقط كما سبق، ولكنه تخلل السور القرآنية من الحق سبحانه خمس مرات، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا بُصْرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُسِّ﴾ [التكوير: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، وجاء النهي بصيغة الخطاب مرة واحدة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بنهيهم عن القسم وإرشادهم إلى ما هو أنفع لهم وأكرم،

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ [النور: ٥٣]، وشواهدنا في هذا الباب تقع في استهلال سورتين فقط تحديداً للمسار الذي عليه البحث كما سبق.

الشاهد الأول قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١) ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ﴾ (٢) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٣) ﴿بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: ١-٤].

هنا ظهر فعل القسم صراحة مع الباء؛ لأنها الأصل في تعديّة الفعل إلى ما بعده، وهذا مما تختص به الباء دون الواو والتاء من حروف القسم، وشواهدنا في القرآن شاهدة على ذلك، وهو مما قال به العلماء، كهذه الآية وكقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ و ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾ (١) ونحوهما ففعل القسم لا يظهر إلا مع الباء.

ولكن في شاهدنا هذا، ونظائره كلام للعلماء في شأن (لا) الداخلة على فعل القسم كلام يقتضي الحال أن أوجز القول فيه قبل تطبيقه على شاهده في هذا البحث.

يقول ابن قتيبة: "وأما زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١) ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفْقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، و ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما تقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول، لو قلت: والله ما ذاك كما تقول، لكان جائزاً، غير أن إدخالك (لا) في الكلام أولاً أبلغ في الرد، وكان بعض النحويين يجعلها صلة، ولو جاز هذا لم يكن بين خبر فيه الجحد وخبر فيه الإقرار فرق (٢)".

وقال أبو البقاء العكبري: "في (لا) وجهان: أحدهما: هي زائدة كما زيدت في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، والثاني: ليست زائدة، وفي

(١) ينظر في ذلك: شرح المفصل لابن يعيش ١٠١/٩، والبسيط في شرح جمل الزجاجي ٩٢٥/٢، والأصول في النحو لابن السراج ٤٣٠/١....

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٤٦، تحقيق السيد أحمد صقر الكتب العلمية بيروت ط ٣، ١٩٨١.

المعنى وجهان: أحدهما: هي نفي للقسم بها، كما هي نفي القسم بالنفس، والثاني: أن (لا) رد لكلام مقدر؛ لأنهم قالوا: أن مفتر على الله في قولك: نُبعث، فقال: لا، ثم ابتداءً، فقال: أقسم، وهذا كثير في الشعر، فإن واو العطف تأتي في مباديء القصائد كثيراً، يقدر هناك كلام يعطف عليه، وقرئ: ﴿لَأَقْسِمُ﴾ وفي الكلام وجهان: أحدهما: هي لام التأكيد دخلت على الفعل المضارع، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ٢٤]، وليست لام القسم، والثاني: هي لام القسم، ولم تصحبها النون اعتماداً على المعنى، ولأن خبر الله صادق، فجاز أن يأتي من غير توكيد^(١).

وذكر الزمخشري: أن إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم، واستشهد بقول امرئ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري ★★ لا يدعي القوم أني أفر
وفائدتها: توكيد القسم. (٢)

ونخلص من هذا-وهو أكثر في كلام النحاة، والمفسرين- إلى أنها ردُّ لكلام سابق مقدر بناء على ما يدور في عقولهم، وقالوه في مواطن كثيرة، فهي تنفي مقالاتهم أولاً، ثم يأتي القسم بعدها إعظاماً للمقسم به والمقسم عليه... أو أنها نافية للقسم ذاته بمعنى تأكيده، كما أقول: لا أوصيك بكذا، والمراد: تأكيد الوصية، أو هي على قراءة: ﴿لَأَقْسِمُ﴾ أشبعت فتحتها فصارت: لا، كما في الوقف، وفيه يقوله ابن خالويه: "والحجة لمن قصر: أنه جعلها لام التأكيد، دخلت على أقسم، ومن مدَّ جعلها صلة زائدة، والتقدير: أقسم بيوم القيامة .. وهي هنا ردُّ لمن أنكر البعث وكفر بالتنزيل، فقيل له: (لا) ليس كما تقول: أقسم بيوم القيامة^(٣)".

وبتطبيق ذلك على قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۗ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. يتجلى من غير شك أن المعنى

(١) التبيان في إعراب القرآن ١٢٥٣/٢ تحقيق: علي محمد البجاوي طبعة الحلبي.

(٢) الكشف ٤/ ١٨٩.

(٣) ينظر: الحجة في القراءات السبع ٣٥٦، تحقيق د: عبد العال سالم مكرم ط٤، ١٤٠١ دار الرسالة.

على إثبات القسم، وتأكيد من جهة الدلالة على معناه، بناء على ما مضى من الكلام في (لا) والأقوى أنها للتأكيد، وبناء الكلام على هذه الطريقة من الكلام على عظمة المقسم به، والمقسم عليه، وإن كان محذوفاً، فهو قسم أكيد عظيم صريح، وليس أدل عليه من قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ثم يقول عقبها: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، فهو ليس مجرد قسم، بل قسم عظيم.

ولكن الله - كما يقول البقاعي - أشار هنا إلى أن الأمر قد صار غنياً عن الإقسام لما له من الظهور الذي لا ينكره إلا معاند، فقال مشيراً إلى تعظيمها، والتهويل في أمرها بذكرها وإثبات أمرها بعدم الإقسام، أو تأكيده: "لا أقسم" أي: لا أوقع الإقسام، أو أوقعه مؤكداً "بيوم القيامة" على وجود القيامة، أو بسبب وجوده؛ لأن الأمر غني فيه عن ذلك، وأقوى في الدلالة على المراد بصيغة لافته، كيف يؤكد القسم بدخول النفي عنه؟ فإثبات الشيء بإثبات لازمه أبلغ من إثباته صراحة؛ لأن هذا الأسلوب كناية عن عظمة القسم وقوته... وفي هذا إقرار بعظمة الخالق، وبالغ قدرته بدخول النفي على ما هو ثابت، وواقع، وحقيق، وفي هذا الأسلوب لفت عظيم، وتبنيه بالغ على قيام الساعة، وحدث البعث، فلا شيء أدل على عظمة الله من ذلك، فلذلك أوقع القسم بيوم القيامة، والنفس اللوامة، والإثبات عن طريق النفي أكد وأبلغ - كما سبق - كأنه ردُّ على المنكر، ثم أثبت القسم، والجمع بين النفي والإثبات دليل الحصر...^(١).

وتكررت نفس الصيغة مع النفس اللوامة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ﴾ وعبر عنها بصيغة المبالغة؛ لأنها جدت واجتهدت، وأقلعت عن المعاصي، ولامت نفسها على أدنى خلل وقع منها... فجاءت الصيغة مطابقة لحال النفس، وقال الراغب: "قيل هي النفس التي اكتسبت بعض الفضيلة، فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروها، فهي دون النفس المطمئنة^(٢)" وقيل: هي المتقيظة المتوجسة، التي تحاسب نفسها، وتتبين حقيقة

(١) ينظر: نظم الدرر ٢٤٢/٨.

(٢) المفردات (لوم).

هواها، وتحذر خداع ذاتها، وهي النفس الكريمة على الله حتى ليذكرها مع اليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين... (١) فالنفس الطلاعة إلى الحق المتوجسة من كل ضلال، وهوى جديرة بأن يكون هذا مكانها، وذلك مقامها فجمال الدلالة في هذا البيان قائم على تأكيد التعظيم، وتحقيق ما وعد به رب العالمين، ولو كره المشركون، بالإضافة إلى دلالة إلى الحث على محاسبة النفس، وكفها عن التقصير؛ لتعظم عند الله مكانتها، ويأتي بعد ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ (٢) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُؤِيَ بَنَانُهُ ﴿﴾ دليلاً على جواب القسم؛ لأنه يجمع علامات البعث، والتقدير: لنجمعن عظامه، ولذلك استنكر الحق مجرد حسابان ذلك.

وتولي الإجابة بنفسه، تحقيقاً للأمر، وتأكيداً له، وترهيباً من إنكار البعث، والتشكيك في قدرة الذي خلق فسوى، ولذلك ختمت السورة بما يؤكد مضمون أولها، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) الرَّبُّكَ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿﴾ (٣٨) فَعَلَّ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿﴾ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]. وهذا بيان ناطق بالحق، ناصع الدلالة قوي اليقين لا يحتاج إلى تبين..

وإذا كان القسم في سورة القيامة على أن الإنسان سيبعث، وسيعاد خلقه ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فالقسم في الشاهد الثاني من هذا النوع في استهلال سور القرآن على أن الإنسان خلق في كبد، وفيه دلالة على تسليية النبي - صلى الله عليه وسلم - وتثبيته، وبيان نعم الله على خلقه، والتحذير من الاغترار بها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿﴾ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿﴾ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿﴾ [البلد: ١-٤].

ذَكَرَ جَمْعٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ فِي دَلَالَةِ هَذَا الْقِسْمِ أَشْيَاءَ، أُولَاهَا: أَنَّهُ اسْتِهْلَالٌ تَشْوِيقٌ لَمَا يَرِدُ بَعْدَهُ، وَأُطِيلَتْ جُمْلَةُ الْقِسْمِ زِيَادَةً فِيهِ؛ لِأَنَّهُ - سَبْحَانَهُ - أَقْسَمَ بِسَيِّدِ الْبَلَادِ، وَسَيِّدِ

(١) ينظر: نظم الدرر ٨/٢٤٣.

العباد؛ لانتهاه كل منهما في الشرف والفضل، وتأتي دلالات هذا القسم: تسليية النبي - صلى الله عليه وسلم - وتثبيته على احتمال الأذى، وذلك جلي في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَدْرِ﴾ فبعضهم يرى أن المقصود: أنت مع -عظم مكانتك- حلٌ لهم فيها، يستحلون إخراجك، وإثباتك، أو قتلك.... وبعضهم يرى أن المعنى: أنت حل فيها أي: مقيم بينهم تجد منهم كل عناء ومشقة^(١)، والمقسم عليه هنا هو إثبات هذا الكبد الذي خلق الإنسان فيه، وهذا ينعكس على تصرفاته، وبخاصة أمره بالتكاليف الشاقة؛ لأنها ملزمة له، وهي دليل الطاعة، والخروج منها دليل المعصية.

والدلالة المهيمنة على كل ما سبق هي إثبات الكمال له قدرة وعلماً، والنقص للإنسان قدرة وعلماً، فهذا قسم على ذلك، أثبت مضمونه، ونفي ضده، والنفي هنا تأكيد للقسم؛ لأن الجواب ممكن باللام وقد ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وتقديره: والله لقد خلقنا الإنسان في كبد... ودلالة التأكيد بهذا النفي جلية، وهي أن القسم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقوله: ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ بذكر (ما) الدالة على الإبهام ليعم جميع ذرية آدم.

يقول الرازي: الولد آدم، وما ولد ذريته، أقسم بهم؛ إذ هم من أعجب خلق الله على وجه الأرض؛ لما فيهم من البيان، والنطق، والتدبير، واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء، والدعاة إلى الله تعالى، والأنصار لدينه...^(٢).

ف — (ما) هي التي تحقق كل هذا، وتدل عليه بما عرف عنها من التقخيم كما سبق في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿﴾ [الحاقة: ١].

وينته الأمر إلى جمال الرفعة في دلالة المقسم به؛ لأنه يعم البلاد والعباد، فمكة أم القرى وهي أصل البلاد، ويتوق إليها كل من آمن من العباد مع بعد المشقة وطول السفر، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- سيد ولد آدم، وأشرف الكائنات، ويضاهي

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٢٥٥، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٨١، ونظم الدرر ٨/ ٢٢٥، والتحرير والتنوير ٣٠/

(٢) ينظر: تفسيره ٣١/ ١٨٠.

هذه الرفعة في جواب القسم تأكيد أن الإنسان مخلوق في كبد، فالمشقة هنا على قدر الرفعة والعلو في المقسم به، لتستوي الدلالة ويكتمل مراد القسم بطرفيه علو هنا ومشقة هناك، قدرة هنا، ونقص وضعف هناك، وسياق يُفَصِّل كل ذلك، وتأكيد القسم بـ (لا) لفت، وتنبية؛ حيث لم تذكر إلا مع فعل القسم الصريح، ومع القسم بغير الله، كما تبين، ومن ثم يتجلى من كل ما سبق كيف يطابق الكلام مقتضى الحال، وأن كل مقال له مقام.

خاتمة البحث:

بعد هذه الجولة الماتعة في بيان رب العالمين لبحث جمال الدلالة، في السياق القرآني، تبين أن كل معلومة في هذا البحث تعد نتيجة من أهم نتائجه؛ حيث تُجلى دلالة التعبير في كل مكونات الكلام، بدءاً من حروف المعاني، وما لها من جمال حين تذكر، وحين تحذف، فكل منهما في مكانه بليغ مطابق، ومنه تتجلى الدلالات، ثم حروف المباني، كذلك، فقد يحذف الحرف من كلمة، ويذكر في نظيرتها، في سياق واحد، أو أكثر من سياق، وضابط ذلك المقام، ليكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، ثم الكلمة وما تآزرت معه من كلمات تناسبها، ثم الجملة، وما يحيط بها، ويترايط معها لبناء المعنى، برباط خفي، أو جلي، وإذا كان هذا له من الأهمية ما له في كل كلام، فإنه في كلام الله أعلى، وأجل، والمادة التي قامت عليها هذه الدراسة هي: كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن ثم فمجالات الدراسة فيه لا تدرك بالهويناء؛ لأنها تتوخى أعلى درجات الحذر من أن تُحمّل كلام الله ما لا يتحمله، أو تدعي فيه العلم بشيء لا تعلمه، ومن ثم استنتجت من دراسة الحروف: حسن وقعها، ودقة جمالها، وجلالها في فواتح السور، وأنها فواتح خاصة بالسور التي جاءت فيها، ولكل سورة فاتحة تناسب مقصودها، وتتم عن أغراضها، وتتناسق مع خاتمتها، وبها تترايط مع السورة التي بعدها، والبحث في كلام الله لا يتيسر إلا لمن قرأ كلام الله جملة، وتفصيلاً؛ لأن بعضه مبني على، وبعضه يندكر ببعض، وبعضه يفسر بعضه، ومعرفة الدلالة فيه لا تكون إلا بعد روية، وفكر، فكل حرف له أثر في بناء الكلمة، وكل كلمة لها وقع في بناء الجملة، وكل جملة تتآزر مع أخواتها؛ حتى تعطى معنى يحسن السكوت عليه، وكل معنى يكون ركناً ركينا في الدلالة على الغرض، وكل غرض من أغراض السورة يفصح عن مقصودها الأعظم، ودلالاتها الكبرى، وكانت هذه الدراسة معنية بكل ذلك، حتى تبين لها: أن كل كلمة، وجملة تعد نتيجة للتي قبلها، وتقدمة للتي بعدها، وأن بحث جمال الدلالة فيه لا يكمل، ولا يجمل إلا بالتأمل في زواياه، ومن ثم أسلمت-هنا- دراسة الحرف إلى دراسة الكلمة، والجملة، والجمال؛ ليكمل الغرض المطلوب، وتثبت به حجة الله على كل مخلوق.

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

والله حسبي وهو نعم الوكيل، عليه توكلت وإليه أنيب.

وكتبه: السيد محمد سلام.

أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

ثبت المصادر والمراجع:

١. أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث، بيروت.
٢. أدب الكاتب. لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، نشر مكتبة السعادة، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٣م.
٣. أركان الإيمان جمع وإعداد، علي بن نايف الشحود الطبعة، الرابعة، مزيدة ومنقحة، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م
٤. الأزمنة، محمد بن المستنير قطرب. تح: د حاتم صالح الضامن الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
٥. أساس البلاغة. لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. دار المعرفة. بيروت. ط ١، ١٤٠٢ هـ
٦. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق، د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط السابعة، ١٤١٩ هـ.
٧. أسباب النزول للسيوطي (لباب النقول في أسباب النزول) لجلال الدين، عبد الرحمن السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ، طبع دار المعرفة، الطبعة الثانية سنة ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٨. أسرار البلاغة، تأليف عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تعليق، محمود محمد شاكر، ط ١. مطبعة المدني، مصر، سنة ١٤١٢ هـ، ١٩٩١ م.
٩. أسرار التكرار في القرآن (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (ت ٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق، عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

١٠. أشرطة الساعة، تأليف، عبد الله بن سليمان الغفيلي الناشر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية الطبعة، الأولى، ١٤٢٢ هـ
١١. أصول السرخسي لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق، أبي الوفاء الأفغاني، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٢ هـ.
١٢. إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق، السيد أحمد صفر، ط ٥، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧ م.
١٣. إعراب القرآن الكريم، تأليف، أحمد عبيد الدعاس - أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم الناشر، دار المنير ودار الفارابي - دمشق الطبعة، الأولى، ١٤٢٥ هـ
١٤. إعراب القرآن للنحاس، تحقيق د زهير غازي زاهد ط عالم الكتب الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨ م.
١٥. أعلام النبوة، تأليف، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى ٤٥٠ هـ) الناشر، دار ومكتبة الهلال - بيروت الطبعة، الأولى - ١٤٠٩ هـ
١٦. أم القرى، تأليف، عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي يلقب بالسيد الفراتي (المتوفى ١٣٢٠ هـ) الناشر، دار الرائد العربي - لبنان، بيروت الطبعة، الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
١٧. إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن (التبيان في إعراب القرآن)، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.
١٨. أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني، ت شاهر هادي شكر، مكتبة العرفان، كربلاء، ١٣٨٩ هـ
١٩. الإيضاح للخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩ هـ) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة: الثالثة

٢٠. البحر المحيط (تفسير أبي حيان). أبو حيان محمد ابن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
٢١. بدائع الفوائد لابن القيم (ت ٧٥١هـ)، تحقيق هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٢٢. البرهان في تناسب سور القرآن، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير النثقي، تحقيق الدكتور، سعيد جمعه الفلاح، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
٢٣. البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م).
٢٤. البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر، دار المعرفة - بيروت.
٢٥. بصائر ذوي التمييز، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف بمصر، الطبعة الثانية عام ١٤٠٦هـ.
٢٦. بلاغة القرآن، لمحمد الخضر حسين، أشرف على طبعه ونشره، علي التونسي، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.
٢٧. البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق المحامي فوزي عطوي، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، نشر، دار صعب - بيروت.
٢٨. البيان والتبيين، تأليف، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح، عبد السلام هارون دار النشر، مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة، السابعة ١٤١٨هـ، ١٩٨٨م
٢٩. تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق، السيد أحمد صقر، دار القرآن، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣، ١٩٧٣م.
٣٠. التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية.

٣١. التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، تصحيح وتعليق، فواز أحمد زمرلي، ط، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
٣٢. التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، تحقيق، عصام فارس وآخر.
٣٣. الترغيب والترهيب لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري المتوفى سنة (٦٥٦هـ)، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٣٤. التعريفات، لعلي محمد بن علي الجرجاني، تحقيق، إبراهيم الأبياري (ت ٨١٦هـ)، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٨هـ.
٣٥. تفسير ابن عباس (المسمى تنوير المقباس)، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ،
٣٦. تفسير ابن عباس (تنوير المقباس)، تحقيق، راشد عبد المنعم الرجال، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
٣٧. تفسير البغوي، معالم التنزيل، للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق، محمد عبد الله النمر و عثمان جمعة و آخرون، ط٣، دار طيبة، الرياض، ١٤١٦هـ.
٣٨. تفسير البيضاوي (المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل)؛ لعبد الله بن عمر بن محمد بن علي أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي، توفي سنة ٦٨٥هـ، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨هـ.
٣٩. تفسير البيضاوي. البيضاوي (ت ٧٩١)، تحقيق عبدالقادر عرفات، العشا حسونة، بيروت، دار الفكر، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م،
٤٠. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م

٤١. تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق، محمد محمود شاكر. راجعه وخرّج أحاديثه أحمد محمد شاكر. دار المعارف. القاهرة. ط٢،
٤٢. تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير) لمحمد بن عمر فخر الدين الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، طبع دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة.
٤٣. تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق، ياسر إبراهيم، وغنيم عباس، ط الأولى ١٤١٨هـ، دار الوطن للنشر - الرياض.
٤٤. تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد المروزي السمعاني (ت ٤٨٩هـ)، دار الوطن، الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، تحقيق، غنيم بن عباس بن غنيم.
٤٥. تفسير القرآن، لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم طبع مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ ١٩٨٩م).
٤٦. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفى سنة ٦٧١هـ، تحقيق، د. محمد الحفناوي، محمد عثمان، طبع دار الحديث القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٤٧. تفسير الماوردي (النكت والعيون). لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، تعليق / السيد بن عبد المقصود، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، دت.
٤٨. تفسير المنار (تفسير القرآن العظيم). لمحمد رشيد رضا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
٤٩. التفسير الوسيط للزحيلي، تأليف، د وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر، دار الفكر - دمشق الطبعة، الأولى - ١٤٢٢ هـ
٥٠. تفسير مقاتل بن سليمان؛ لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي، المتوفى ١٥٠هـ، تحقيق، أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
٥١. التكرار، للدكتور، حسين نصار، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٥٢. التتقيح في أصول الفقه، تأليف، صدر الشريعة البخاري الحنفي مع التلويح والتوضيح ضبطه وخرج أحاديثه زكريا عميرات دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٥٣. التوبة إلى الله: معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها، تأليف، أ. د صالح بن غانم بن عبد الله بن سليمان بن علي السدلان الناشر، دار بلنسية للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة، الرابعة، ١٤١٦ هـ

٥٤. الجلالين تصنيف، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، عناية، أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ.

٥٥. جمع الجوامع، تأليف، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي مع شرح المحلي حاشية الآيات البيئات، ضبطه وخرج أحاديثه زكريا عميرات مكتبة التراث للنشر والتوزيع المدينة المنورة ط٢، ١٤١٣هـ

٥٦. حَاشِيَةُ الشَّهَابِ عَلَى تَفْسِيرِ البَيْضَاوِيِّ، الْمُسَمَّاةُ: عِنَايَةُ الْقَاضِي وَكِفَايَةُ الرَّاضِي عَلَى تَفْسِيرِ البَيْضَاوِيِّ : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ) دار النشر: دار صادر - بيروت

٥٧. حجة الوداع، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تح: أبو صهيب الكرمي، الطبعة: الأولى، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض، ١٩٩٨

٥٨. الحُجَّةُ فِي الْقَرَاءَاتِ السَّبْعِ؛ لِلإِمَامِ ابْنِ خَالَوِيه، تح: د/ عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، سنة النشر: ١٣٩٩ - ١٩٧٩

٥٩. حروف المعاني والصفات، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ) المحقق: علي توفيق الحمد الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م

٦٠. الحسنه والسيئة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦١. الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ
٦٢. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق، محمد طرفي وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١، ١٩٩٨م.
٦٣. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق، محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط الأولى، ١٣٧٦ هـ.
٦٤. خصائص التراكم (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
٦٥. الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت، ١٤١٤ هـ.
٦٦. الدعاء، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣ هـ.
٦٧. دلائل الإعجاز، للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، تحقيق، محمود محمد شاكر، مكتبة المعارف، ط ٥، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
٦٨. ذم الهوى، تأليف، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى ٥٩٧هـ) المحقق، مصطفى عبد الواحد مراجعة، محمد الغزالي
٦٩. الرسالة المحمدية، تأليف، السيد سليمان الندوي الحسيني (المتوفى ١٣٧٣هـ) الناشر، دار ابن كثير - دمشق الطبعة، الأولى - ١٤٢٣ هـ
٧٠. الرسالة-محمد بن إدريس الشافعي-تحقيق، أحمد شاكر-دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان-ط ١، ١٤١٣ هـ.
٧١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، البغدادي، (ت، ١١٢٧هـ)، دار الفكر، ١٤٠٨هـ.
٧٢. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، لابن قيم الجوزية، نشر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م.

٧٣. سوء الخلق، تأليف، محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد الناشر، درا بن خزيمة الطبعة، طبعة ثانية منقحة ومزودة
٧٤. شرح التلويح على التوضيح لعبد الله بن مسعود المعروف بابن تاج الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٧٥. شرح المفصل-موفق الدين بن يعيش النحوي-عالم الكتب-بيروت، لبنان.
٧٦. شرح جمل الزجاجي، لأبي عصفور الإشبيلي، تحقيق، د، صاحب أبو جناح، ط، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٧٧. شروح التلخيص، للتفتازاني، والمغربي، والسبكي، نشر أدب الحوزة، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٨. صبح الأعشى في صناعة الإنشا - أحمد بن علي القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ.
٧٩. صحيح البخاري للإمام البخاري، تحقيق، مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير واليامة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٨٠. طريق الهداية - مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، تأليف/ محمد يسري الناشر/ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف الطبعة/ الثانية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
٨١. علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ١٩٨٥م، دار النهضة بيروت.
٨٢. علم اللغة، تأليف، علي عبد الواحد وافي - رحمه الله - الناشر، نهضة مصر للطباعة والنشر الطبعة، الأولى
٨٣. غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق، د. حسين محمد محمد شرف، القاهرة، مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٤هـ.
٨٤. غريب القرآن، لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ، تحقيق، محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.
٨٥. الغيث الهامع شرح جمع الجوامع. لولي الدين أبي زرعة أحمد العراقي (ت ٨٢٦هـ)، تحقيق، مكتب قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الفارق الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
٨٦. الفاصلة القرآنية، للدكتور عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٨٧. الفاصلة في القرآن، لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط٢، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
٨٨. الفائق في غريب الحديث. للعلامة جار الله محمود عمر الزمخشري، وضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.
٨٩. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، لشرف الدين الطيبي، دراسة وتحقيق من بداية سورة الأنبياء إلى نهاية سورة الشعراء، رسالة ماجستير، إعداد، عبد القدوس راجي موسى،
٩٠. الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت، ٤٠٠هـ)، تحقيق، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
٩١. في علوم القرآن. لسليمان المعرفي، نشر مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ٢٠٠٣م.
٩٢. القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٩٣. قيمة الزمن عند العلماء، تأليف/ عبد الفتاح أبو غدة، تحقيق/ الناشر/ مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب الطبعة/ العاشرة
٩٤. كتاب سيبويه، لأبي بشر بن عثمان بن قنبر، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٥هـ.
٩٥. كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين بن جماعة، تحقيق، عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٠هـ.
٩٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٧٤هـ ط، الأولى.
٩٧. مباحث في علوم القرآن، د. مناع القطان، ط٢، ١٤١٧هـ نشر مكتبة المعارف، الرياض.
٩٨. متشابه القرآن، لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي. أحد القراء السبعة. ت، ١٨٩هـ، تحقيق، د. صبيح التميمي، كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٩٤م.

٩٩. المجتبی من مشكل إعراب القرآن، تأليف/ أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال الناشر/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة عام النشر/ ١٤٢٦ هـ
١٠٠. المحرر الوجيز. لابن عطية.، ط.١.، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ.
١٠١. مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق، د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٥ هـ.
١٠٢. مشكلات القرآن، لمحمد أنور شاه الكشميري، مطبوعات المجلس العلمي، الهند، ط٢.
١٠٣. معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر أحمد النحاس، تحقيق، محمد الصابوني، طبع جامعة أم القرى، ط، ١، ١٤٠٩ هـ.
١٠٤. معاني القرآن للفراء، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، ط دار السرور.
١٠٥. معاني القرآن وإعرابه للزجاج، أبي إسحاق إبراهيم السري، المتوفى سنة ٣١١ هـ، شرح وتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، طبع دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٩٨ م.
١٠٦. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، ١٣٨٩ هـ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
١٠٧. مغني اللبيب عن كتب الأعراب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق، د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله و سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط الثانية.
١٠٨. مفتاح العلوم، ليوسف بن محمد بن علي السكاكي، تعليق، نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
١٠٩. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه وراجعته، محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثانية، ١٤٢٠ هـ.
١١٠. مكارم الأخلاق، تأليف/ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى/ ٢٨١ هـ)، تحقيق/ مجدي السيد إبراهيم الناشر/ مكتبة القرآن - القاهرة

١١١. ملاك التأويل، تأليف، الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، ت. الدكتور سعيد الفلاح، ط ١. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.
١١٢. النبأ العظيم، تأليف الدكتور/ محمد عبد الله دراز، اعتنى به وخرج أحاديثه عبد الحميد الدخاخي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ.
١١٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري ((ابن الأثير))، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي دار الفكر، بيروت.

فهرس محتويات البحث

الصفحة	المحتوى
٢	المقدمة
٤	تمهيد: تحرير مصطلحات الموضوع
٤	١ - الدلالة
٨	٢ - الأثر الجمالي
٩	٣ - السياق
١٣	الفصل الأول: الحروف المقطعة وجمال دلالاتها في السياق القرآني المبحث الأول: مكانة هذه الحروف في البيان القرآني
٢٠	المبحث الثاني: نوعية هذه الحروف من جهة الاسمية أو الحرفية
٢٦	الفصل الثاني: جمال الدلالة في ذكر الحرف وحذفه من خلال السياق
٢٧	المبحث الأول: الحرف يحذف من السياق وتقوى دلالاته:
٤٦	المبحث الثاني: دلالة ذكر الحرف وحذفه في سياق واحد، أو سياقين متباعدين
٥٧	الفصل الثالث: أثر بنية الكلمة على جمال دلالاتها في السياق القرآني المبحث الأول: دلالة حرف المبنى ذكرا وحذفا
٨٦	المبحث الثاني: جمال الدلالة في حذف همزة الاستفهام وبقاء معناها
١٠١	الفصل الرابع: الدلالة البلاغية للجملة الجملة في السياق القرآني المبحث الأول: مدخل إلى دراسة الجملة
١٠٦	المبحث الثاني: الجمل الخبرية ودلالاتها في مقدمات سور القرآن الكريم
١٥٠	المبحث الثالث: دلالة الجملة المتضمنة معنى الشرطية في استهلال سور القرآن
١٧٣	الفصل الخامس: جمال دلالة الجملة الإنشائية بين سياقها في استهلال السور القرآنية
١٧٦	المبحث الأول: جمال الدلالة في الاستهلال بجملة الاستفهام

الصفحة	المحتوى
١٩٣	المبحث الثاني: دلالة جملة الأمر في استهلال سور القرآن الكريم.
٢٠٤	المبحث الثالث: جملة النداء: أثرها ودلائلها في بناء النص القرآني
٢٣٥	المبحث الرابع: دلالة أسلوب الدعاء وسياقه في النص القرآني
٢٤٩	الفصل السادس: جمال الدلالة في سياق الاستهلال بالقسم
٢٥٥	المبحث الأول: جمال دلالة القسم دراسة تطبيقية
٢٩٢	المبحث الثاني: دلالة القسم بالمفردات المتنوعة
٣١٨	المبحث الثالث: أسلوب القسم المنفي ودلالاته في فواتح السور
٣٢٥	خاتمة البحث
٣٢٨	ثبت المصادر والمراجع
٢٣٨	فهرس المحتويات